# التراث المجهول



د. يوسف زيدان

# التراث المجهول

## إطلالة على المخطوطات

د. يوسف زيدان



اسـم الكتـاب: التراث المجهول (إطلالة على المخطوطات)

المـؤلـف: د. يوسـف زيـدان.

إشـراف عـام: داليـا محمـد إبـراهيـم.

تاريـخ النشـر: الطبعـة الأولـى - مارس 2008

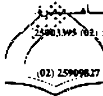
رقـم الإيـداع: 2008 / 2965

الترقيم الـدولي: ISBN 997-14-4247-3

الإدارة العامة للنشر 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 33466434(02)-33472864(02) فاكس 33462576(02) ص.ب. 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 38330287 (02) - 38330289 (02) - فـاكـس: 38330296 (02)
البريـد الإلكترونـي للمطابـع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القـاهـرة - ص. ب: 96 الفجـالـة - القـاهـرة.
ت: 25908895 (02) - 25909827 (02) - فـاكـس: 25903395 (02)



مركز خدمة العملاء: 25909827 (02)
البريد الإلكتروني لخدمة العملاء:
customerservice@nahdetmisr.com
البريـد الإلكترونـي لإدارة البيـع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طـريـق الحريـة (رشـدي)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي - متفرع من شارع عبد السلام عارف - مدينة السلام.
ت: 2221866 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com



# الإهـــداء

إلى الصديق:

سامى خشبة.. اعتزازًا برفقةٍ جمعتنا عشرين عامًا،
على درب الوعى بالماضى.

يوسف زيدان

# مقدمة الطبعة الثانية

كان لصدور هذا الكتاب في طبعته الأولى - قبل قرابة عشرين عامًا - صدًى واسع أثار دهشتي! فقد عُني به المتخصصون في فنون التراث وعلومه، وجمهرة المثقفين والقراء، حتى نفدت الطبعة الأولى في زمن يسير، وكتب عنه كثيرٌ من أصحاب الأقلام، حتى زاد ما كُتب عنه، عن حجمه.. مع أنني لم أقصد بكتابي هذا إلا التعريف العام بالتراث العربي، حسبما أوضحت ذلك في المقدمة العامة للكتاب. وأرى من المناسب هنا التقديم لهذه الطبعة (الثانية) بالوقوف عند بعض الآراء التي أثارها الكتاب في طبعته الأولى، فمن ذلك :

رأى بعضهم أن الكتاب يمثل مقدمةً عامة في التراث العربي، لكنه لا يغوص في بواطن هذا التراث على نحو تفصيلي مشبع؛ فهو محضُ تلويح من بعيد، لا يكاد يقترب من المواطن العميقة، حتى يرحل عنها إلى غيرها. والحقُّ، فإنني لا أجد عندي اعتراضًا على هذا الرأي، بل هو عينُ ما أردته! وقد نصَّ عنوان الكتاب على أنه (إطلالة) على العالم التراثي الفسيح، المتنوع، المجهول. ولم يكن المراد منه استكناه أعماق التراث وسبر أغواره، فقد فعلت ذلك - أو سعيتُ إلى فعله - في أعمال أخرى، تنوَّعت ما بين فهرسةٍ وتحقيقٍ ودراساتٍ أكاديمية متخصصة.. غير أنني لما انتبهت إلى أن البون صار واسعًا ما بين القارئ المعاصر وتراثه الذي هو في حقيقة الأمر عالمه الجَوَّاني العميق؛ أردتُ وَصْلَ ما انقطع وتنويرَ ما أظْلَم وتَقْريبَ ما ابتعد. ولم تكن الغايةُ الغوصَ في الدقائق والرقائق التراثية.. فالكتابُ بالفعل تلويحٌ وتشويقٌ.

ومن جهة أخرى، رأى بعضهم أنني غاليت وتزيَّدتُ في قولي إن التراث (مجهول)، واحتَجُّوا عليَّ بهذا القدر الكبير من الكتب التراثية التي أخرجتها المطابع، ولا تزال تخرجها كل يوم. فالتراثُ، حسبما يرون، معروفٌ

مألوف.. وأصحاب هذا الرأى هم المشتغلون فعلًا بالتراث، أو هم بالأحرى القلةُ الباقية من المشتغلين بالتراث. والحقُّ فإن هذا الكتاب لم يوضع أصلًا لهم! وإن كانوا بالفعل فى حاجة إليه. فالعمل التراثى ظل دومًا عملًا تخصصيًا يُغرق صاحبه فى بحر من البحور التراثية، فلا يهتم بما سواه؛ مما يؤدى به إلى انصراف نظره عن المنظومة المتكاملة للتراث، تحت وَهْمِ التخصُّص الدقيق. وما هذا التخصُّص المزعوم إلا خرافة منعت ثقافتنا المعاصرة من رؤية (تكامل) التراث، وعاقها عن نقل هذا التراث من مستوى (النصّ) إلى مستوى (الخطاب) المعرفى المتواصل، ومن هنا كانت النظرةُ العصفوريةُ المحلِّقة، للتراث، تصيب هؤلاء بالدُّوار؛ لارتفاعها من جهة، ولإطلالها على جوانب أخرى لم يتعوَّدوها من الجهة الأخرى. ولعلهم انزعجوا من قولى إن التراثَ مجهولٌ، لمَّا أدركوا أنهم كانوا يجهلون بالفعل رحابته!.. وبالطبع، فإن ذلك لا يعنى التقليل من شأن هؤلاء المتخصِّصين، وإنما هى دعوةٌ لهم كى يخرجوا من المسارب الضيقة إلى المسالك الفسيحة.

ومن ناحية ثالثة، قرَّر بعضهم أن المخطوطات (الثلاثين) التى ضَمَّها الكتاب لا تكفى، على تَنَوُّعِهَا، للإطلال على العالم التراثى الزاخر، الحافل بآلاف الكتب البديعة المطوية فى نُسَخها الخطية. فكان لابُدَّ لى، مادمتُ قد أردتُ التعريف بالتراث المجهول، من تقديم المزيد. والحقُّ فإن هؤلاء لم يُجانبوا الصواب كثيرًا، لكن المزيد من فصول الكتاب، كان سيخرج به عن الشكل اللائق به. حيث إن الغرض الأصلى من الكتاب كان استكشافَ التراث لا تقديمَ موسوعة تراثية. وما اشتمل عليه الكتاب، هو محضُ نماذج من نواحٍ تراثية مهجورة، وفى كل ناحيةٍ منها، الكثيرُ من التراث العربى الذى لم يزل مجهولًا.

وبعد، فلا يسعنى فى ختام هذا التقديم إلا التوجه بالشكر لهذه النخبة من مثقفينا الذين تلقَّوا الكتاب بكل ترحاب، وفاضت أقلامهم بمقالات بديعة عن الكتاب ومؤلِّفه، ربما بأكثر مما يستحقان. ولعل هذه الطبعة (المنقحة) من الكتاب، تكون أفضل من سابقتها من حيث سهولة التناول والخلوِّ من الهنات، ومن حيث جودة

الطباعة ووضوح الصور التى اخترتها مع الفصول، كى تكتحل أعين المعاصرين برؤية نماذج مما تركه أجدادنا.

وقد رأيتُ أن أجعل (التراث المجهول) فى كتابين: الأول منهما بالعنوان الفرعى: إطلالة على المخطوطات، وهو هذا الكتاب. والآخر، سوف يضم صورًا نادرة، ويأتى بعنوان فرعى، هو: لوحات وتعليقات.. ونرجو أن نتمكن من الانتهاء منه، قريبًا.

**د. يوسف زيدان**

الإسكندرية فى أوائل 2008

# مقدمة عامة

هل التراث مجهول؟

هناك أسبابٌ عديدة دعتني لتسمية هذا الكتاب، والكتاب الذى سوف يليه، بهذا العنوان. على الرغم مما يبدو فيه من استفزاز للقارئ العام، بل القارئ المتخصص. فالتراث حسبما أرى، لم يزل مجهولاً. وأقصد بالتراث هنا، ما تركه السابقون من كتابات خَطُّوها بأيديهم، أو نسخها النُّسَّاخ من أعمالهم، على امتداد قرون الحضارة العربية الإسلامية ذات التاريخ الطويل.

تراثنا بهذا المعنى، لا يزال مجهولاً.. بحكم الواقع الإحصائى؛ إذ إحصاء ما نُشر من تراثنا، محققًا أو بدون تحقيق، ومقارنته بما لم يزل مخطوطًا، وبما ضاع مع الزمان؛ يدل على أن نسبة المنشور المعلوم من تراثنا لا يزيد على خمسة بالمائة من مجموع هذا التراث، أو لعله أقل من ذلك. وعلى ذلك، فالجانبُ الأعظمُ من تراثنا (مجهول)؛ لأنه رهينُ النسخ الخطية الحبيسة فى خزائن المخطوطات ببلدان الشرق والغرب.

وتراثنا لا يزال مجهولاً، بحكم الوعى به؛ وذلك لأننا حين ننظر فى أعمال الأساتذة المعاصرين الذين قدموا رؤيةً للتراث، أو بحسب ما نسميه اليوم (قراءات التراث) لا نجد فى مراجع هؤلاء الأساتذة مخطوطةً واحدة! ويعنى هذا، أنهم اعتمدوا على المنشور، المعلوم، ليكون هو (المقروء) بينما هذا المنشور فى حقيقة الأمر لا يمثل إلا أقل القليل من جملة التراث. من هنا، تأتى القراءات التراثية المعاصرة باهتةً، متضاربةً، مردودةً؛ لأنها أغفلت الشقَّ الأكبر (المخطوط) من التراث.

وتراثنا لا يزال مجهولاً بحكم منطق الإلغاء والتغييب الذى ساد اليوم بيننا حتى أباد النظرة الموضوعية للتراث. فمع أن تراثنا رحيبٌ متنوع، إلا أن التوظيف

المعاصر له يقتضي الانحياز التام لجانب من هذا التراث، وإلغاء الجانب المقابل له، ومن هنا نجد البلدان التي تأخذ بمذهب معين تؤكد مذهبها، وتنشر المتون والشروح حوله، وتلغي لصالحه تراث الفرق الإسلامية الأخرى. وفي بلد آخر نجد الانتصار للمذهب السلفي والترويج لكتب ابن تيمية، ومَنْ سار على نهجه من علماء الحنابلة، في الوقت الذي يصل إلغاء التصوف عندهم، إلى حد الحظر والمنع، ومخاصمة دور النشر العربية التي تطبع كتب الصوفية. ولا يقف الأمر عند حَدِّ الحكومات وجماعات المصلحة، بل يتعدى منطق الإلغاء والتغييب إلى أفراد الناس، سواء من المتخصصين أو عوام الخَلْق، فبعض الذين تخصَّصوا في دراستهم وتعمَّقوا في بحث تراث فرقة أو شخصية كبيرة في التراث، نراهم ينحازون تمامًا إلى ما درسوه، ويهدرُون لصالحه كلَّ ما لا يوافقه. وقد يصل الإلغاء والتغييب عندهم إلى حَدٍّ مَرَضيٍّ، مثاله هذا الأستاذ الذي ظَنَّ أنه المتحدث الوحيد باسم ابن رشد، فإذا به ينهمك في الخلاف، ويَلْعن كل أعلام التراث المختلفين مع ابن رشد، بل يُعْلن الأستاذ في محفل ثقافي كبير، صائحًا على مسمع من الجميع: لا يوجد أمامنا طريقٌ إلا ابن رشد، وليذهب الغزالي وابن تيمية إلى الجحيم!

وعلى مستوى عوامِّ الناس، يرفض ذهن الواحد منهم الاعتراف بثراء التراث، فيتخيل عهود الخلفاء الأوائل في دول الإسلام، عهودًا نقية طاهرة من كل الشوائب. فإذا واجه وعيه المتواضع صورًا مناقضة لما استقر بذهنه.. صورًا عن اختلاف وتناحر الأئمة، أو مجون القدماء وإمعان بعضهم في الفحش، أو منحط الأعمال التي قام بها عديدٌ من الحكام؛ أخذته الأزمة وأصرَّ على إلغاء وتغييب كل ما يكدر الصورة الهنية، التي لا توجد إلا في خياله الخاص.

وتراثنا لا يزال مجهولًا، بحكم اغترابنا عنه؛ لأن التراث العربي الإسلامي الذي ظل ممتدًا في الزمان والمكان مَرَّ بمنحنيات كثيرة، وارتفع وانخفض في معدلات التحضر، ولم يعرف ثبات الأحوال، وإن كان لم ينقطع. حتى جاءت الحملةُ الفرنسية، ومن بعدها استعمار بلدان العرب والمسلمين؛ فلويت أعناق الأجيال الجديدة بقوة، بعيدًا عن تراثها المتصل، ووجِّهت نحو سياق الحضارة الغربية

المعاصرة. فكان ما كان من تقسيمٍ لدول الإسلام، وفقًا لأغراض الغرب، وكان ما هو كائنٌ من تحقير التراث، فصار عند هؤلاء، ليس مجهولًا فحسب، وإنما هو مذمومٌ مكروهٌ مرتبطٌ بالتخلُّف الحضاري.

وتراثنا لايزال مجهولًا، بحكم انعدام الخطة المنهجية للتعريف به؛ إذ بعد انقضاء الفترة النشطة فى نشر التراث، حيث كانت مطابع بولاق الرائدة تخرج أمهات الكتب التراثية من مصر، ودائرة المعارف العثمانية من حيدر آباد، والجمعيات العلمية العربية والاستشراقية من المدن الأوروبية، وحيث (كان) أعلام الرجال المتحمسين للتراث ونشره؛ صار نشر التراث اليوم عملًا تجاريًا لدى دور النشر، دعائيًا لدى أصحاب الأغراض، غثًّا لدى المرتزقة من متأخرى المحقِّقين. وهناك، بالطبع، استثناءات قليلة من ذلك، لكن الغالب الأعم هو فوضويات نشر التراث، وانعدام الجهة التى تنظم عملية الاهتمام بالتراث فهرسةً ونشرًا ودراسةً. ولكَمْ ناديتُ طيلة السنوات العشرين الماضية، بإنشاء هيئة عربية أو مصرية للتراث، تتولى هذه المهام.. ناديتُ حتى جَفَّ حلقي وكَلَّ القلم، ثم اكتشفت أننى أصرخُ فى بئر قديم، فسكتُّ.

من هنا صار التراث مجهولًا، ومن هنا اخترتُ عنوان الكتاب.. فهل سيظل التراث على حاله؟ إذا كانت الإجابة التى نتمنَّاها بالنفى؛ فالواجب علينا تبديد حالة الجهالة العامة بالتراث، بأن نطلَّ على (المخطوطات) التى هى المخزون الهائل للتراث العربى.. ومن هنا جاء العنوان الجانبى: إطلالة على عالم المخطوطات.

والإطلالة على المخطوطات تعنى أن نتعرَّف على الكثير من ذخائر التراث العربى المنزوى فى الخزانات الخطية، لعلنا من بعد ذلك، نُقْبِل على تحقيقه ونشره، فتزيد نسبة المعروف من تراثنا، ويقلُّ المجهول. وتعنى أن نعى التراث وعيًا موضوعيًا علميًا، ونتمكن من (قراءة) التراث قراءةً صحيحة، تكشف عن حقيقة تكوين العقلية العربية الإسلامية، وتتلمس ملامحَ شخصيتنا الحضارية على نحو دقيق، لا يركن إلى إصدار الأحكام الإطلاقية العامة استنادًا إلى وقائع جزئية.

وبذلك يتأسس الوعى المعاصر، بناءً على رؤية (الماضى) على نحو متكامل، فيكون هذا الوعى مقدمةً لفهم الحاضر وقاعدةً لاستشراف المستقبل. وتعنى الإطلالة على المخطوطات أن ندرك كَمَّ الثراء والتنوع فى تراثنا، وأنه من غير الصائب إلغاء جانب منه، لصالح جانب مقابل. فكل الجوانب التراثية، محكومة بسياقٍ تاريخىٍّ واحد، أبرز هذا وذاك معًا، وفقًا لشروط تاريخية خاصة. فلولا الغزالى لما كان ابن رُشد، ولو لم يكن (تهافت الفلاسفة) ما كان (تهافت التهافت) وبدون مدرسة ابن عربى لا يكون فكر ابن تيمية. وبعيدًا عن وجود المعتزلة، ما كانت الأشعرية لتوجد قطُّ. وهكذا نعرف أن التراث السابق كان يمتد عبر الزمان متساندًا، ومؤسسًا على نحو عضوىٍّ متكامل، داخل بناء معرفى خاص به، محكوم بالتاريخ. وبهذا، نتحرر من أوهام الجهالة بالتراث، ونتأكد من استحالة الفصل بين كون ابن رشد فيلسوفًا عقلانيًا، وكونه فقيهًا مالكيًا، بل قاضى قضاة المالكية فى عصره. وندرك أن نَصيب ابن سينا والفارابى وابن رشد من العقلانية، وهُم الفلاسفة، لا يقل عن نصيب الصوفية من أمثال السهروردى وابن سبعين. ونرى حقيقة أن (الماضى) أنتج متون الفقه ورقائق الزهد، فى الوقت ذاته الذى أنتج فيه ماجن الشعر وساقط الأغنيات، وأن الإسهام العلمى العربى لا يقل فى حجمه أو أهميته عن الجانب الدينى واللغوى والأدبى. فالكل وُجد معًا، والكُلُّ لا يمكن إغفال بعضه لصالح البعض الآخر، والكل لن يتكرر فى مقبل الأيام. فما كان كان، ولن نفيد منه، إلا بمقدار ما يؤدى إلى فهم ما هو كائن، والتخطيط لما نرجو أن يكون.

و أخيرًا، فالإطلالة على المخطوطات قد تفضى إلى تخطى الهوة التى أدت إلى اغتراب وعينا المعاصر.. وقد تُطلعنا على نهج سليمٍ، للتعامل مع الحضارة الغربية المعاصرة، مستفيدين من تجارب الأُمم.. وقد تدعونا، يومًا، للمبادرة إلى إنشاء هيئة قومية للتراث!



وكانت فكرةُ هذا الكتاب قد بدأت عندى، منذ سنوات، حين طلبت منى إحدى الجرائد العربية، كتابة مقال يومى فى التراث. فكتبت مجموعة من مقالات

التعريف بالمخطوطات، لاقت قبولًا طيبًا، وصارت من بعد ذلك نهجًا سار عليه غيرى. وفى تلك المقالات القصيرة، كنت أكتفى بالتعريف بالمخطوطة الواحدة والإلماح إلى أهميتها. وفى أثناء الكتابة، كانت تثور فى ذهنى قضايا كثيرة، تتعلق بهذه المخطوطة أو تلك. فقمت بتدوين تلك النقاط، وما يدور حولها من أفكار ووجهات نظر. ثم أعدت الكتابة بعد حين، لتكون فصول هذا الكتاب الذى يقع فى ثلاثين فصلًا.. قد يطول كل فصل منها أو يقصر، بحسب مقتضيات التعريف بالنص المخطوط ومؤلفه، وما يدور حولهما من أفكار. ومع أن جملة فصول الكتاب، تسعى لإلقاء نظرة عامة على التراث، من خلال استعراض مخطوطاتٍ من شتى العلوم والفنون، إلا أن النصوص العلمية، أعنى العلوم الطبيعية كالطب والفلك والكيمياء، سنراها أكثر من مخطوطات المعارف الدينية والأدب والتصوف. وليس فى الأمر انحيازٌ أو إهدارٌ وإلغاء، وإنما هى محاولة لاستعادة (التوازن) لأن الاهتمام ينصبُّ دوما على التراث الدينى والأدبى، دون التراث العلمى؛ مع أننا فى عصر العلم! من هنا كانت عنايتنا أزيدَ بالتراث العلمى العربى، متمثلا فى هذا القدر من المخطوطات والموضوعات التى تناولتها فصول الكتاب.. وبعض هذه الفصول تتعرض لأمورٍ مهمة لم تُطرح من قبل، من خلال نصوص علمية عربية لم يكتب عنها من قبل سطرٌ واحدٌ؛ فبقيتْ قرونًا طوالًا.. مجهولًا.

وعلى ذكر (المجهول) نشير إلى أن بعض المخطوطات التى تناولتها الفصول، هى لمؤلفين مجهولين. وفى التراث العربى كثيرٌ من المخطوطات مجهولة المؤلف. وفى تراثنا، عديدٌ من المواقف الرائعة والأقوال البديعة مجهولة الصاحب. ولكم تفكرتُ فى هؤلاء المجهولين، الذين كان أثرهم فى بعض الأحيان أبلغ من المشهورين. ففى خضم الوقائع التراثية الكثيرة عن شجاعة الأبطال وروائع الأعمال، أرى من أكثر المسلمين شجاعةً فى التاريخ، ذلك الرجل (المجهول) الذى وقف فى المسجد، أمام أشهر سفاح فى تاريخنا: الحجَّاج بن يوسف الثقفى، وكان الحجَّاج آنذاك يُلقى إحدى خُطبه الرهيبة المتوعِّدة، فأنهاها بما معناه أنه سيفعل ما يريد، رغم أنف أىِّ معارض! فقام الرجل المجهول، وقال له: أنا مرغمٌ أنفه.

وفى سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، الخليفة المهيب الذى أعزَّ الله الإسلام به، وكانت هجرته علانيةً أيام كان المسلمون يتسللون من مكة إلى المدينة؛ أنه كان فى المسجد يلقى خُطبةً ينهى فيها الناس عن المغالاة فى المهور، فردَّتْ عليه امرأةٌ مجهولة، وأوردت الآيات القرآنية الدالة على عدم تقييد المهور بمقدار: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا﴾ فإذا بالخليفة يسلِّم بالأمر، قائلًا: **ويحك يا عمر، كل الناس أفقه منك!** أو قال: **أصابت المرأة وأخطأ عمر!**

وفى تاريخ الزهد والتصوف ما لا حصر له من أقوال وأشعار بديعة مجهولة المؤلف. وفى التاريخ الفكرى، عددٌ كبير من الكتب التى أثَّرت تأثيرًا كبيرًا من دون أن يُعرف مؤلفها، مثل كتاب أثولوجيا (الربوبية) الشهير. بل إن أشهر موسوعة فلسفية، ولعلها أول عمل من نوعه فى تاريخ الإسلام (رسائل إخوان الصفا وخِلَّان الوفا) لم يُعرف حتى اليوم مؤلفوها المجهولون. وهكذا الحال فيما لاحصر له من أمثلة لأعمال وأقوال وأفعال ساهمت بشكل فَعَّال فى صياغة تراثنا، وهى لأُناس لم نعرفهم.. فلله در هؤلاء المجهولين!

وفصول الكتاب مرتَّبة على حسب التسلسل الألفبائى لعناوين المؤلفات الثلاثين التى نعرض لها، وأغلبها مؤلفات مخطوطة لم تنشر من قبل. وفيها عدد ضئيلٌ من المؤلفات، نُشرت قديمًا فى طبعات محدودة اختفت مع الأيام، وصارت فى حكم المخطوط.

وبعد.. فما هذا الكتاب إلا دعوةً للقارئ العام؛ كى يتعرَّف على الجوانب الرحيبة فى التراث، وللمثقف المعاصر كى يتفكر فى القضايا المطروحة بين الثنايا، وللمحققين الجدد كى يقبلوا على نشر نصوص تراثية جيدة، وللدارسين المتخصصين كى يتعمقوا فيما ورد هنا من موضوعات.

# الفصل الأول

## (مخطوطة طبية)

# بُسْتَانُ الأَطِبَّاءِ وَرَوْضَةُ الأَلِبَّاءِ

## لابْنِ المُطْرَانِ

للطِّبِّ العربى الإسلامى تاريخه الطويل المجيد الذى امتد طيلة عشرة قرون من الزمان أو يزيد. وقد كان للعرب قبل الإسلام، بعض المعارف والخبرات الطبية[1]، لكن النهضة العلمية الكبيرة فى مجال الطب، حدثت بعد حركة الترجمة والنقل حيث نشطت عملية التعريب، وانتقلت علوم الأوائل، الهند واليونان[2]، إلى اللغة العربية. فكانت فاتحةً لإسهامٍ عظيمٍ قام فى مجال الطب، وفى غيره من مجالات العلوم المختلفة.

ومنذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بدأت المؤلفات الطبية العربية فى الظهور بكثرة، وتوالت أعمال الأطباء العرب فى كافة التخصُّصات الطبية: حفظ الصحة، المعالجات، الطب النظرى، منافع الأعضاء، الكحالة (طب العيون)، عمل اليد (الجراحة)، طب الأطفال.. كما نشطت حركة التأليف فى العلوم القريبة من الطب، كالصيدلة.

وفى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى، كانت حصيلة الخبرة الطبية العربية قد اتسعت وتنوَّعت، فانعكس ذلك على التأليف الطبى، وظهر آنذاك

---

(1) يقول صاعد الأندلسى: كانت العرب فى صدر الإسلام لا تعنى بشىء من العلم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب، فإنها كانت موجودةً عند أفراد منهم، غير منكرة عند جماهيرهم، لحاجة الناس طُرًا إليها. (طبقات الأمم، نشرة لويس شيخو- بيروت 1912، ص 47). ويقول ابن خلدون: وللبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارث عن مشايخ الحى وعجائزه.. وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث ابن كلدة وغيره (المقدمة، المطبعة الأزهرية 1349 هـ، ص 414).

(2) بخصوص انتقال الطب الشرقى واليونانى إلى العالم الإسلامى، راجع:
- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، لابن أبى أصيبعة.
- دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، للدكتور ماهر عبدالقادر محمد.
- من الإسكندرية إلى بغداد، للدكتور ماكس مايرهوف (وهى مقالة بالألمانية، ترجمها الدكتور عبدالرحمن بدوى فى كتابه: التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية).

فنٌ جديد من التصنيف الطبى العربى، هو المجاميع الطبية أو (الكنانيش) الجامعة بين الفوائد الطبية المختلفة، فيما يشبه المذكرات المختصرة، حيث يورد صاحب (الكُنَّاش) ما يراه مفيدًا منها.

وتعد مخطوطة ابن المطران: بُستان الأطباء وروضة الألباء، واحدةً من أكثر المجاميع الطبية (الكنانيش) طرافةً وتشويقًا، وهى تبدأ بما يلى: قال جامعُ هذا الكتاب، أبو نصر أسعد بن إلياس، ابن المطران... إنى جامع فى كتابى هذا، مذاكر ممَّا أطالعه، وأسمعه من الشيوخ، وأنسخه من الكتب الطبية. وقد وسمته ببُستان الأطباء وروضة الألباء، وجزَّأتُه جزأين، وابتدأت به وأنا أسأل الله عَزَّ وجَلَّ المعونة على إتمامه، وأسأل قارئه أن يكون مُغضيًا لا منتقدًا، سامعًا لقول من يقول: رحم الله من قرأ فأخذ من كل شيء أحسنه.. ثم يبدأ ابن المطران بوضع قاعدة علمية عامة، فيقول:

ينبغي للطبيب أن يكون، إذا قدم على مداواة قومٍ فى بلد، أن ينظر فى وضع المدينة، ومزاج الهواء المحيط بها، والمياه الجارية فيها، والتدبير (الغذاء) الذى يستعمله قومٌ دون قوم. فإن هذه هى الأصول، ثم من بعدها النظر فى سائر الشرائط.



والمؤلف، موفق الدين ابن المُطران، واحدٌ من أشهر الأطباء فى القرن السادس الهجرى. أصله من دمشق، وبها تعلَّم الطب على يد الطبيب الشهير: أمين الدولة ابن التلميذ[1]، ثم مارس العلاج فى البيمارستان (المستشفى) الكبير بدمشق، حتى وفاته سنة 585 هجرية. وقد ترك ابن المطران إلى جانب بستان الأطباء مجموعة أخرى من المؤلفات، منها: المقالة الناصرية فى التدابير الصحية، آداب طب الملوك، كتاب على مذهب دعوة الأطباء، لابن بطلان (أى على طريقته).. وكل هذه المؤلفات

(1) بخصوص ترجمة ابن التلميذ (المتوفى 560 هجرية) يمكن الرجوع إلى: عيون الأنباء ص 259، وفيات الأعيان 252/2، معجم الأدباء 276/19، معجم المؤلفين 138/13، شذرات الذهب 190/4، هدية العارفين 505/2، Brockelmann(S) I، 891.

لاتزال مخطوطة، لم يُنشر منها شيء إلى اليوم، على الرغم من مكانة صاحبها المرموقة فى تاريخ الطب العربى[1].



والكتاب ملىء بالمعلومات الطبية، والطرائف العلاجية، وتراجم الأطباء السابقين على ابن المطران. وفيه أيضًا ما لا حصر له من أقوال الحكماء، وتعريفات المصطلحات، والحكايات الشائقة. فمن ذلك الفقرات التالية:

تنبيه. ينبغى أن تعلم أن اليرقان الأصفر إنما يحدث فى الأكثر عن ضعف القوة الدافعة التى فى الكبد. وذاك أنها إذا ضعفت، لم تدفع المرار؛ فيبقى مع الدم ويسير معه إلى سائر البدن، فيعرض اليرقان.

توقيف. أفلاطون يسمى الحرارة الغريزية: النار الإلهية، وذكره فى (محاورة) طيماوس، فى الكلام عن تولُّد الشعر.

تنبيه. إذا أردت أن تغسل السرطانات بماء الرماد، فلا ينبغى أن يكون الرماد الذى يؤخذ ماؤه إلا رماد خشب التين أو البلوط، لا غير.

تنبيه. لا تتشاغل بمداواة مرض، دون إزالة سببه؛ وإلا فلن تستفيد شيئًا.

توقيف. قال جالينوس فى كتاب إبيديميا:[2] السرسَام معناه اختلاط: الذهن الدائم مع الحمى.

إشارة. متى تَفقَّدت علامات الصداع، أو داويته بمداواة أنواع الصداع فلم ينجح علاجك، فانظره فى وضع عظام الرأس، فإنها كثيرًا ما تكون مسفطة

(1) بخصوص ابن المطران ومؤلفاته، يمكن الرجوع إلى:
- ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (بيروت 1965 ) ص 651.
- أحمد عيسى: معجم الأطباء (دار الرائد العربى، بيروت) ص 135.
- حاجى خليفة: كشف الظنون ( دار الفكر، بيروت) ص 243.
- عمر كحالة: معجم المؤلفين (دار إحياء التراث العربى، بيروت) 245/2.

(2) الإشارة إلى شرح جالينوس على كتاب إبيديميا Epidemeces لأبقراط، وهو كتاب معروف عند الأطباء العرب بعنوان آخر هو: كتاب المرض الوافد ( الحميات).

أو حادة أو مستطيلة. فإذا رأيت ذلك، فاعلم أنها هى سبب الصداع. وكثيرًا ما تُحدث هذه الأوضاع سيلان المواد من الأذنين أو من العينين.

حكاية لروفس فى كتابه فى شرى (شراء) المماليك، قال: أتيت مرةً بغلام، فوجدت في رأسه نقصانًا من العظام في الجانب الأيمن منه، نحوًا من الثلث من جملة رأسه، وكان موضع النقصان من رأسه لينًا تحت المجسَّة، حتى يتبين منه بعض الشرايين في ذلك الموضع. وكان به هوج، وكان لا يملك حركة رجله اليسرى.

نكتة. قال جالينوس فى كتاب تشريح الرحم، إن رحم المرأة الحامل أعظم ما يكون من الأرحام. ورحم المرأة التي لم تحمل بعد، أصغر منها. ورحم المرأة التى لم تُجَامع كثيرًا أصغر. ورحم المرأة التى تُجَامع كثيرًا، أكبر.

نكتة. العروق غير الضوارب، تأتى الرحم من العرقين المنحدرين على الصلب. ومنشأ الضوارب من أوريطى، المار على الصلب أيضًا. وأوريطى، هو الذى تسميه العرب الأبْهر.

إشارة. إن أحببتَ أن تشقّ عن قلب حيوان، لبحث حال نبض القلب والعروق الناشئة منه، عيانا. فينبغى أن تفعل ذلك، فى بيت يكون هواؤه حارًا. فإنه إن لقى القلبَ الهواءُ البارد، تلف الحيوان بسرعة، ولم يبق النبض على مجرى طبيعته، ويحدث اختلاف وتشويش كثير. فينبغى أن يكون ذلك الفعل فى حَمَّام أو بيت يشبه به.

حكاية من الكتاب المذكور الجوامع: اتفق لنا أن عليلًا، كان فى صدره ناصورٌ، كان بلغ إلى العظم الذى فى وسط قَصِّه. فلما التمسنا مداواته، كشفنا عن عظم القَصِّ جميع ما يحيط به من الأجسام. فوجدنا القصَّ، قد أصابه فساد الجوهر، فاضطرنا ذلك إلى قَطْعه. وكان الموضع الفاسد من القَصِّ، هو الذى عليه مُستقر غلاف القلب. وهو الموضع الذى من عادتنا التشريح فيه، للكشف عن غلاف القلب. فلما رأينا ذلك توقفنا شديدًا فى انتزاع العظم الذى كان قد فَسَدَ. وقد كانت عنايتنا إنما هى باستبقاء الغشاء المغشى له من الداخل، وحفظ سلامته. غير أنا لم نجد هذا الغشاء

سليمًا . . فكنا ننظر إلى القلب ، نظرًا بيِّنا ، كمثل ما نراه إذا كشفنا عنه بالتعمُّد في عمل التشريح . وسلم ذلك الغلام ، ونبت اللحم في ذلك الموضع الذى قطع له من القَصِّ ، حتى امتلأ واتصل بعضه ببعض ، وصار يقوم مِنْ سَتْرِ القلب وتغطيته ، بمثل ما كان يقوم به من قبل ذلك ، رأس غلاف القلب . والغلام أفلت . فإنه لم يحدث هناك من العلَّة شيء ، أكثر مما يكون في كل يوم من الخُرَّاجات التى تثقب الصدر . ومع هذا ، فليس يأتى من قبل غلاف القلب خاصة ، شيءٌ من الإشراف على التلف ، كما يأتى من قِبَلِ باقى أجزائه .

. . وتلك الفقرات السابقة ، كلها ، نقلناها من موضع واحد من المخطوطة . وهى توضح لنا طبيعة الكتاب ومضمونه ، وما يتميز به من طرافة وتشويق ، وحشد للمعارف الطبية السائدة آنذاك . وإذا تصفحنا بقية المخطوط ، فسوف نجد المزيد مما يجعلنا نعرف كثيرًا عن الطب العربى ، واتساع معرفة الأطباء العرب القدامى ، بالتشريح والجراحة وخواص الأدوية وطبائع الأمراض وسبل الشفاء .

ولا تزال تلك المخطوطة ، مثل غالبية المخطوطات التى سنتعرَّض لها في فصول هذا الكتاب ، تنتظر اليوم الذى تمتد فيه يد التحقيق إليها ، لتخرج منشورة على القراء المعاصرين . ولعله من المناسب هنا ، أن نختتم هذا الفصل ، بإشارة إلى أن هناك عدة نسخ مخطوطة من (بستان الأطباء) محفوظة بمكتبات : رامبور ، بغداد . وقد اعتمدنا هنا ، على مخطوطة طهران (مكتبة شوراى ملى) وتوجد منها نسخة ميكروفيلمية بمعهد المخطوطات العربية ، بالقاهرة .

بستان الأطباء



غلاف المخطوطة

نسخة شوراى ملى (طهران) رقم 85628



كتاب بستان الأطباء أبو نصر سعد بن الياس ابن المطران

بسم الله الرحمن الرحيم

قال جامع هذا الكتاب أبو نصر أسعد بن

الياس بن المطران نضّر الله روحه إني جامع في كتابي

هذا ما ذكرته مما طالعته وسمعته من الشيوخ وانتخبته

من الكتب الطبية وقد سميته بستان الأطباء

وروضة الألباء وجعلته جزءين وابتدأت بعد ما

أسأل الله عز وجل المعونة على إتمامه وأسأل قارئه

أن يكون منصفاً لا متعسفاً فإن هذا القول من قول

رجل اقتصر قراءته فأخذ من كل شيء أحسنه ثم ينتقل للطبيب

الورقة الأولى من المخطوطة

ان يكون انا قدم على مداواة قوم في بلدان ينظر

في وضع المدينة ومزاج الهوى المحيط بها والمياه الجارية

فيها والتدبير الخاص الذي يستعمله قوما دون قوم

فان هذه هي الاصول ثم بعدها النظر في سائر الشرائط

تمثيل ظريف الطبيعة كالمدعي والعلة كالخصم والعلامات

كالشهود والقارورة والنبض كالبينة ويوم البحران

كيوم القضاء والمريض كالمتوكل والمتطبب كالقاضي اسم

اليرقان مشتق من اسم طائر هو في اللون يكون موجودا

كثيرا في شدة الحر ماوا بين القبور والخراب في الاكثر فكشفه

العلة فان اصحاب اليرقان يدعون المتطببين

مرارة الصفراء غلبت على ابدانهم جميعا وعلى حواسهم

فاذا ورد عليهم اخر في الفم ولا في الحاسة انا والكامن

في الحاسة من ذلك الخلط المر لان غلبتها للبدن

فيسبق الذوق فاحس المر لا تزول ملاقي وسابق

الورقة الثانية

# الفصل الثانى

# (مخطوطة فلكية)

# تَحْرِيرُ المَجِسْطِى

للطُّوسِى

فى كتابه الشهير ، الفهرست ، يتحدث ابن النديم عن الفلكى السكندرى العظيم ، كلوديوس بطليموس ، فيقول: هو صاحب كتاب المجسطى. . وهو أول من عمل الأسطرلاب الكُرّى والآلات النجومية والمقاييس والأرصاد. ثم يتحدث ابن النديم عن المجسطى، فيقول: وهذا الكتاب ثلاث عشرة مقالة، وأول من عنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية، يحيى بن خالد بن برمك ، ففسّره جماعة، فلم يُتقنوه. . وقد قيل، إن الحجاج بن مطر نقله إلى العربية أيضًا. ونقله إسحاق بن حنين نقلا غير مُرْضٍ، لأن إصلاحه الأول أجود[1].



والمجسطى هو أشهر كتب الفلك عند اليونان والمسلمين، وكان الوزير يحيى البرمكى، كما أشار ابن النديم، هو الذى أمر بترجمته عن الأصل اليونانى الذى كان عنوانه: التصنيف العظيم فى الحساب Megal Syntaxis Mathematike ومن كلمة Megal استمد العرب كلمة مجسطى، وجعلوها عنوانًا للنسخة العربية.

وعن بطليموس وكتابه المجسطى، يقول الدكتور عبد الرحمن مرحبا: كان بطليموس عالمًا فى الرياضيات والفلك والجغرافيا والعلوم الطبيعية، وأهم ما أقلقه هو حركات الكواكب (المتحيِّرة) فهى تتقدّم على الشمس أحيانًا، وتتأخّر عنها أحيانًا أخرى. كما يختلف ترتيبها، بعضها بالنسبة إلى بعض، من وقت إلى آخر. وتتغير مواقعها فى السماء، بين الحين والحين، بالقياس إلى النجوم الثابتة. ولتفسير هذه الظاهرة، وتعليل ما فيها من حيرةٍ وتشويش؛ جاء بطليموس بنظرية أفلاك التدوير. فالأفلاك الكبيرة، تقع على محيطها مراكزُ الأفلاك الصغيرة. وبعبارة أخرى،

(1) ابن النديم: الفهرست، تحقيق رضا المازندرانى ( دار المسيرة 1988 ) ص 327.

فإن كُلًّا من الكواكب السيارة (التائهة أو المتحيرة) يتحرَّك فى مدارٍ (فلك أو محيط) خاصٍ به. وهذه المدارات بعضها أكبر من بعض، ولكل مدار من هذه المدارات مركزه الخاص به. وجميع الكواكب، بما فيها الشمس، تدور حول الأرض؛ فالأرض هى مركز العالم. وبهذه النظرية، ظَنَّ بطليموس أنه فسَّر حيرة الكواكب السيارة. والحَقُّ أنه عَقَّد علم الفلك، وزاد فى مشاكله وصعوباته، دون أن يفسر شيئًا. وقد دُوِّنت هذه الأفكار جميعًا، فى كتاب بطليموس المعروف بالمجسطى..
وظل المجسطى، المرجع الأول والأخير لعلم الفلك القديم كله، ولم يفقد سيطرته على الأذهان إلا عندما قَلَبَ كوبرنيقوس علم الفلك رأسًا على عقب[1].

والمجسطى مليءٌ بالأرصاد الفلكية لأجرام السماء، وهو كتابٌ معقَّدٌ جدًا، نظرًا لتعقيد نظام الرصد الذى سار عليه بطليموس. ولهذا احتاج الكتاب من العلماء العرب، جهودًا طويلة فى ترجمته وتحريره، فقام عدة مترجمين بنقله من اليونانية والسريانية، وقام غيرهم بتنقيح الترجمة وإصلاح لفظها، حتى يتسنى للفلكيين الاستفادة منها.

ولكن المجسطى ظل بعد ترجمته بحاجة إلى ما كان يسميه العرب (التحرير) وهو لفظٌ، يُقصد به المراجعة والتدقيق وإصلاح الأخطاء. ولقد اعتنى بتحرير المجسطى جماعةٌ من الفلكيين العرب، فمن هؤلاء: جابر بن الأفلح الإشبيلى المتوفى 540 هجرية، فى كتابه: إصلاح المجسطى. وعبد الرحمن بن عمر الصوفى المتوفى 376 هجريةَ، فى كتابه: صور الكواكب الثمانية والأربعين. وأورد عليه ابن الهيثم ملاحظات علمية دقيقة فى كتابه: الشكوك على بطليموس. أما أشهر تصحيحٍ وإصلاحٍ لهذا الكتاب، فهو ما قام به العلاَّمة نصير الدين الطُّوسى فى كتابه: تحرير المجسطى. وهو الكتاب الذى نتوقف فيما يلى عند مخطوطته، بعد إلقاء بعض الضوء على العَلاَّمة الطوسى، صاحب التحرير؛ لنتعرف إلى شخصيةٍ مهمة لها مكانتها المتميزة. ليس فى تاريخ العلم العربى فحسب، بل أيضا فى تاريخ العلم الإنسانى على وجه العموم.

---

(1) د/ عبد الرحمن مرحبا: الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب (منشورات عويدات، بيروت 1988) ص174.

هو العلاَّمة المحقِّق، نصير الدين أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى، نسبة إلى مدينة طوس الفارسية. وهو صاحب المؤلَّفات المتعدِّدة، فى العقيدة والأخلاق والمنطق والفلسفة والرياضيات والفلك.. عاش حياةً درامية، وكانت وفاته بعد عُمر حافل بالتقلُّبات، سنة 672 هجرية[1].

وهناك اختلاف بين المؤرخين، حول التفاصيل الخاصة بوقائع حياة الطوسى، وحقيقة انتمائه العقائدى، وموقفه من سقوط بغداد سنة 656 هجرية على يد المغول، وصحبته لقائدهم هولاكو.. وغير ذلك من تفاصيل خلوته، أو اعتقاله، بقلعة (أَلَموت) معقل الشيعة الإسماعيلية. وهى تفصيلات يضيق المقام هنا عن ذكرها، والدخول فى تناقضاتها العديدة. وما يهمنا الآن، هو إلقاء الضوء على الجهد العلمى الكبير لهذه الشخصية المرموقة علمياً.

تجلَّت جهود الطوسى العلمية فى أمرين أساسيين: الأول بناؤه لأكبر مرصد فلكى فى القرون الوسطى، وهو مرصد (مراغة) الذى يعد أول مجمع فلكى علمى فى تاريخ الإسلام. وقد تكلَّف هذا المرصد أموالاً طائلة، استطاع الطوسى تدبيرها عن طريق إقناع هولاكو بأهمية بناء المرصد لمراقبة النجوم، والتنبؤ منها على أحوال المستقبل. وكان هولاكو يؤمن بالتنجيم، ويعتقد فى المنجمين ،فاستغل الطوسى هذا الأمر ليصل إلى غرضه العلمى.

واحتوى هذا المرصد على أعظم الآلات الفلكية اللازمة للرصد التى صمَّمها الطوسى، وأشرف على صنعها بنفسه. كما ألحق بالمرصد مكتبة ضخمة، كانت

(1) هناك عديد من التراجم لنصير الدين الطوسى، أشهرها وأوفاها ترجمته الواردة فى: أعيان الشيعة، للعاملى. ومن الدراسات المعاصرة، الجيدة، حوله :

- عبد الأمير الأعسم: الفيلسوف نصير الدين الطوسى (دار الأندلس، بيروت 1980).
- عارف تامر: نصير الدين الطوسى فى مرابع ابن سينا (مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت 1983).
- شتروتمان: مادة «الطوسى» بدائرة المعارف الإسلامية.

وقد قام د. عباس سليمان، بعمل دراسة عن جهود الطوسى فى مجال العقيدة وعلم الكلام، نال بها درجة الدكتوراه من جامعة الإسكندرية (1990) ويمكن الرجوع إلى عرضنا النقدى لهذه الرسالة، بمجلة معهد المخطوطات العربية (القاهرة، يوليو 1991، المجلد 35 ) ص 163: 195.

تضم أكثر من أربعمائة ألف كتاب، استطاع الطوسى أن ينقذها من التدمير على يد المغول الذين كانوا يكرهون الكتب. كما جمع الطوسى فى هذا المرصد، نخبةً من كبار علماء الفلك المسلمين، من أمثال ابن الفوطى، وفخر الدين المراغى، وابن البواب البغدادى، ومؤيد الدين العرضى، ومُحيى الدين المغربى، وغيرهم كثير من الفلكيين الذين حملوا راية هذا العلم.

والجهد العلمى الآخر لنصير الدين الطوسى، هو ذلك العدد الكبير من (التحريرات) التى قام بها على أمهات كتب العلم اليونانى القديم، فاستطاع ببحوثه العلمية المبتكرة، أن يُعيد كتابة العلوم القديمة من خلال تلك المجموعة الكبيرة من المؤلفات، مثل: تحرير كتاب ظاهرات الفلك لأُقليدس، تحرير كتاب ثاوذوسيوس فى حركة الأيام والليالى، تحرير كتاب أرسطارخس فى جرم الشمس والقمر، تحرير كتاب الطلوع والغروب لأوطولوقس، تحرير كتاب أبسقلاوس فى المطالع، تحرير كتاب المساكن لثاوذوسيوس، تحرير كتاب الأكر.. إلخ.

هذا فى علم الفلك، أما فى الرياضيات فقد كتب الطوسى: تحرير أصول الهندسة لأُقليدس، تحرير كتاب مساحة الأشكال لبنى موسى بن شاكر، تحرير كتاب مُعطيات الهندسة، تحرير كتاب الكُرة والأسطوانة لأرشميدس، تحرير كتاب الكرة المتحركة لأوطولوقس.. وغير ذلك.

وتحرير المجسطى، كما يقول أشهر مؤرخى العلم المعاصرين، جورج سارتون: تدل على عبقرية الطوسى وطول باعه فى الفلك، والانتقادات التى وجّهها الطوسى إلى بطليموس، كانت هى الأساس للنظرية الفلكية المعاصرة كما قدّمها كوبرنيقوس.

وقد أعاد الطوسى فى تحريره صياغةَ كتاب المجسطى، وفقًا للأرصاد الفلكية التى قام بها نفسه، فصحّح الأخطاء التى وقع فيها بطليموس. خاصةً أن الطوسى كان قد توصل إلى تصوُّر نظام فلكى، أبسط كثيرًا من نظام بطليموس المعقّد، مما سهل له التوصل إلى نتائج أدق.. غير أنه لم يستطع التصريح بأن الشمس، هى

مركز المجموعة، وأن الأرض تدور حولها. أو هو بالأحرى لم يجرؤ على إقامة البرهان الرياضي على تلك الحقيقة العلمية، التي كانت معروفة بشكل (غير رسمي) عند العرب! بل عبَّر عنها المتنبي، الشاعر الشهير في بعض أبياته.



وتبدأ المخطوطة التي بين أيدينا ـ وهي واحدةٌ من عدة مخطوطات لا تزال باقية إلى اليوم[1]، بما يلي ـ الحمد لله مبدأ كل مبدأ وغاية كل غاية، ومفيض كل خيرٍ ووليُّ كل هداية.. وبعد، فقد كنت برهةً من الزمان، عازمًا على أن أحرر لنفسي ولسائر طلبة العلم من الإخوان، كتاب المجسطي المنسوب إلى بطليموس الذي هو الدستور العظيم لأصحاب صناعة الهيئة والتنجيم. تحريرًا لا تفوته مقاصد ذلك الكتاب، حتى في ترتيب الفصول، وأبواب الحساب، ورسوم الجداول وأوضاع الأشكال.. بشرط الإيجاز والاحتراز عن الإسهاب والتكرار.

وقد أهدى الطوسي هذا الكتاب إلى: حسام الدين بن الحسن السيواسي، وجعله في ثلاث عشرة مقالة، ووضع فيه 196 شكلًا هندسيًا، يشرح فيها نظرياته الفلكية ونتائج رصده لأجرام السماء.

وعلى الرغم من وجود عشرات من النسخ الخطية لتحرير المجسطي، ووجود عشرات الشروح عليه؛ إلا أنه لم يُنشر نشرةً علمية دقيقة، لا هو، ولا أحد الشروح الكثيرة عليه. وكان عباس سليمان ينوى تحقيق هذا الكتاب ونشره، بعد طول احتجابه طيلة القرون الماضية؛ مع أنه لا خبرة له بالفلك والرياضيات.

(1) بخصوص النسخ الخطية من تحرير المجسطي، يمكن الرجوع إلى الحصر الشامل الممتع الذي قام به عباس سليمان في رسالته سابقة الذكر. وانظر أيضًا:

- Brockelmann: Gieschichte der Arabieschen Litteratur (Lieden) 1/924,925.

الصفحة الأولى من كتاب تحرير المجسطي

(مخطوطة مكتبة أحمد الثالث رقم 18/3453)

كتبت بتاريخ 678 هجرية

صفحة من المخطوطة

# الفصل الثالث

## (مخطــوطــة فنــون عســكريــة)

## تُحفَةُ المُجَاهِدِين فِي العَمَل بِالمَيَادِين

للطَّرَابُلْسِــي

لم ينل التاريخُ العسكرى للمسلمين ما يستحقه من عناية الباحثين المعاصرين، مع أن العرب المسلمين كانت لهم فتوحات عسكرية، عمَّت العالم القديم حتى دان لهم. وربما يرجع هذا الإهمال، إلى أن الأنظار تتجه إلى الغرب المتقدم اليوم فى هذا المجال، وربما لأن مادة البحث فى تاريخنا العسكرى، غير متوفرة للباحثين. وربما لأن المعاصرين لا يرون فى مثل هذا الجانب من تاريخنا نفعًا كبيرًا.

ومهما كانت الأسباب الداعية إلى إهمال هذا الجانب المهم من التاريخ العربى الإسلامى، فهى أسبابٌ واهيةٌ لا تبرِّر هذا الإهمال ولا تشفع لأصحابه. فإذا كانت الأنظار اليوم، تتجه إلى التقنيات الغربية المتقدمة فى المجال العسكرى، فما الضرر فى الإحاطة أيضًا بالأساليب العربية والإسلامية فى هذا المجال. خاصةً أن الغرب ذاته يهتم بتلك النواحى التى يهملها أهلها.

أما ندرة المادة المتوفرة فى مجال العسكرية العربية الإسلامية، فهو أمر غير صحيح بالمرة؛ إذ إن هناك الكثير من هذه المادة فى كتب السير والطبقات وفتوح البلدان، بالإضافة إلى قدر هائل من المخطوطات التى لم تُنشر[1]. وأخيرًا، فإذا كان المعاصرون لا يرون نفعًا فى بحث هذا الجانب، من الحضارة العربية الإسلامية؛ فهم إذن فى وَهْم عظيم! فمن وجوه النفع فى تلك البحوث، تأسيسُ المعرفة الدقيقة بتاريخ العرب والمسلمين، وإثباتُ الدور العربى الإسلامى فى تطوُّر العسكرية العالمية، وتفسير الكثير من الوقائع الخاصة بالمواقع الحربية، وتعليل الانتصارات والهزائم، وبالتالى فهم فترات الازدهار والانكسار.. إلى جانب رفع معنويات

(1) انظرْ قائمة هذه المخطوطات، فى عرضنا لمخطوطة: تفريج الكروب فى تدبير الحروب (الفصل بعد القادم).

المعاصرين، بإطلاعهم على مآثر أجدادهم فى هذا المجال، ومعرفة ما استفادته أوروبا من العرب، فى بناء نهضتها الحديثة قبل بضعة قرون.

وهناك بحوث قليلة فى التاريخ العسكرى الإسلامي، لا يتعدى الجيد منها عدد أصابع اليدين. أما المخطوطات العربية المنشورة في هذا المجال، فلا أعرف منها إلا مخطوطةً واحدة هى كتاب: الأنيق فى المنجنيق، لابن أرنبغا الزردكاش. وقد حققها د. إحسان هندى، ونشرها معهد المخطوطات العربية، أيامَ كان بالكويت.



مخطوطة (تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين) واحدةٌ من أهم النصوص العسكرية المهملة فى تراثنا. مؤلفها هو الأمير المملوكى، لاجين بن عبد الله الذهبى الحسامى، المعروف بالطرابلسى، عاش فى قلب الزمن المملوكى بمصر، وتوفى سنة 738 هجرية.

ولا نكاد نعرف الكثير عن هذا المؤلِّف، وإن كان اسمه وألقابه وأُسلوب كتابته، وغير ذلك من الشواهد الواردة فى المخطوطة؛ دالًا على أنه واحدٌ من المماليك الكبار الذين تولوا مهام الجندية فى مصر إبَّان القرن الثامن الهجرى. ولقب الحُسامى هو مبالغة فى الوصف، اعتاد المؤلفون والكُتَّاب فى العصر المملوكى إطلاقه على كل مملوك يحمل اسم حُسام الدين[1].

ويبدو أن حُسام الدين الطرابلسى، كانت له ذريةٌ من المشتغلين بأمور الحرب والقتال. ففى كتابه «تاريخ الأدب العربى» يذكر لنا بروكلمان مؤلفًا باسم: محمد بن لاجين الحسامى الطرابلسى الرَّمَّاح، المتوفى 780 هجرية[2]. ويظهر من اسمه وتاريخ وفاته، أنه أحد أبناء حُسام الدين الطرابلسى، كما يظهر من لقب (الرُّمَّاح) أنه كان مشتغلًا بفنون الرُّمح والرمى بالنشاب، وهى من الفنون

(1) بخصوص الألقاب المملوكية، يمكن الرجوع إلى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، للقلقشندى.
(2) Geschichte der arabischen 1/905.

العسكرية المهمة آنذاك. وقد ألَّف محمد بن لاجين، كتابًا على نفس منوال كتاب والده؛ إذ تحمل مخطوطته عنوان: بغية القاصدين بالعمل في الميادين، وله أيضًا كتاب آخر مخطوط يحمل عنوان: بنود الرمح في الفروسية برسم الجهاد[1].



يبدأ الطرابلسي (تحفة المجاهدين) بقوله: الحمد لله الذى أعلى قدر من اتَّصف بالشجاعة واشتهر، وأعلى رتبة من جعل الفضل له بضاعة وجعل عُقبى الصبر الظفر؛ القوى الذى أعان على الحروب وأهوالها، والمُصَافَّات وتبيُّن أحوالها. وأعظم أجر الجهاد، وفرضه على العباد، ونصر أهل الحق على أهل العناد. نحمده على ما أنعم به من النصر على الأعداء، ورفع منازل الشهداء[2]. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، القادر القاهر، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صاحب الوجه الزاهى الزاهر، والنور الباهى الباهر.. وبعد، فإن للحروب لوازم، لابد للمُتَّصف بالشجاعة منها، وجوازم لا يُستغنى عنها. وقد ضُمِّن فى هذا الكتاب، ما يجب لمتعاطى الحرب من الوقوف عليه ومعرفة رسمه، ومعرفة كيفيته وفهمه، والامتثال لمرسومه والاتسام برسمه. وخبرة ما تضمَّنه من إقبال وإدبار، وإيراد وإصدار، وكَرٍّ وفَرٍّ.. و شرحنا فيه ما يجب الوقوف عليه عند حده، وأن يجعله الشجاع عمدته حال هزله وجده... إلخ.

والمخطوطة صغيرة الحجم، تقع بعضُ نسخها فى 24 صفحة، والبعض الآخر فى أكثر من ذلك. لكن ما يميز المخطوطة فى نسخها المختلفة، هو تلك الرسوم والأشكال التوضيحية التى تعرف اليوم باسم: الرسم الكروكى. وفيها يوضح المؤلِّف عمليات التعبئة العسكرية، وطرق المبارزة والاقتحام، وأساليب الهجوم

---

(1) توجد من هذا الكتاب المخطوطات التالية: مكتبة الفاتح (تركيا) رقم 3509، مكتبة رامبور (الهند) رقم 3524، المكتبة الأحمدية (حلب) رقم 1372، مكتبة نور عثمانية (تركيا) رقم 2294، مكتبة أحمد الثالث (تركيا) رقم 2129.

(2) الذى يتأمل فى المخطوطات العربية، يكتشف أن الحمدلة تلعب دورًا فى الكشف عن طبيعة محتوى المخطوطة، فلكل فنٍّ من الفنون صيغة تناسبه من حمد الله.. بل تلعب الحمدلة بصيغتها الخاصة دورها فى الكشف عن المؤلفين فى حالة عدم ذكرهم بالمخطوطة؛ إذ لكل مؤلف صيغة خاصة به. ومن النادر جدًّا، أن نجد كتابين فيهما (الحمدلة) ذاتها.

والتقهقر. مستفيدًا فى ذلك كله، من الخبرة التى امتاز بها المماليك فى هذا الزمان المليء بالحروب والمواقع العسكرية.

وهناك عددٌ كبير من مخطوطات: تحفة المجاهدين؛ ذكر بروكلمان أرقامها فى المكتبة الوطنية بباريس، والمتحف العراقى ببغداد، بالإضافة إلى ثلاث نسخ بمكتبات تركيا[1]. وفى معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، سبع نسخ نفيسة من المخطوطة[2]، كلها مزدانة بالرسوم والأشكال التوضيحية.

وقد اعتمدنا هنا، على واحدة من هذه النسخ الخطية. وهى المحفوظة فى مكتبة نور عثمانية (تركيا) تحت رقم 2294، كتب المخطوط سنة 800 هجرية: محمد بن تمراز، بخط واضحٍ؛ وتضم هذه النسخة كتاب: تحفة المجاهدين، وكتاب: الفروسية برسم الجهاد، الذى ذكرنا من قبل أنه من مؤلفات الرَّمَّاح، محمد بن حسام الدين، ابن المؤلِّف.

والمخطوطة التى تضم الكتابين، نسخةٌ خزائنية، مكتوبة بخط الثلث، برسم الخزانة العالية المولوية الأميرية الكبيرية المجاهدية العضدية السيفية. وهى مكتبة بهادر الشهابى، مقدم المماليك السلطانية الملكية الظاهرية. ولم تُنشر هذه المخطوطة فى كتابٍ مستقل، وإنما قام د. محمد عيسى صالحية، بنشرها نشرةً محدودة بمجلة معهد المخطوطات العربية أيامَ كانت تصدر بالكويت (عدد يوليو - ديسمبر 1984) وقد قدم لها المحقق بمقدمة مفيدة، جاء فيها:

اعتاد سلاطين المماليك أن يشاهدوا المماليك الفرسان، وهم يتمرنون على فنون الفروسية فى المدارس الحربية المعروفة بالطباق.. وقد دأب سلاطين المماليك على المحافظة على أجناد حلقاتهم فى حالة تدريب دائم؛ لأنهم قلب الجيش المملوكى، وقد عالجتْ كتبُ الفروسية طرق التعليم وأوقاته وفنونه. ويبدو أن التدريب على الفروسية يفتتح بإتقان علم البنود (الرماح) من حيث جودتها وطريقة اللعب

(1) Geschichte 2/135.

(2) فهرس المخطوطات المصوَّرة (معهد المخطوطات العربية، القاهرة 1964) الجزء الرابع، ص 10 وما بعدها.

بها والتصويب والإرسال وغيرها. فإذا أتقن الفارس علم البنود، انتقل إلى علم الميادين، فيتعلم كيف يقابل الخصم ويجاوله بإقبال وإدبار.. وقد أشار الأقصرائى إلى ذلك في كتابه: فضل الجهاد، إذ جاء فى ورقة 57: أول ما يريد المتعلم تعليمه بعد علم البنود وإتقانها هو علم الميادين، لتتمرن أعضاؤه الدخول والخروج مع الفرسان، والانعطاف والكسرات يمنة وشمالاً ومقبلاً ومدبراً، ويعلم مقامه مع معلّمه، ومقامه مع غيره؛ فيصير بصيراً بذلك.

غلاف المخطوطة
نسخة مكتبة نور عثمانية

بسم الله الرحمن الرحيم ٥ وبه توفيقي ۞

الحمد لله الذي أعلى قدر من اتصف بالشجاعة واشتهر

وأعلى رتبة من جعل الفضل له بضاعة وجعل عقبى

الصبر الظفر ۞ القوي الذي أعان على الحروب

وأهوالها ۞ والمصافات في بين أحوالها ۞ وأعظم

أجر الجهاد ۞ وفرضه على أ[illegible] ۞ ونصر أهل

الحق على أهل العناد ۞ نحمده على ما أنعم به من

النصر على الأعداء ۞ ورفع منازل الشهداء ۞

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القادر

القاهر ۞ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صاحب

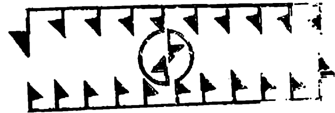
الوجه

الورقة الأولى من المخطوطة

ترتيب الصفوف

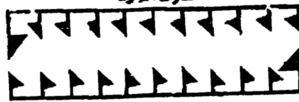
ويقف مكانه ويخرج الجميع واحد بعد واحد الى أن
يفرغ الجميع يفعلون ذلك مرتين وهذا ترتيبهم ٥

صفوف المبارزه



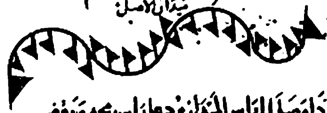
فاذا انتهوا في المبارزه وقفوا على ترتيبهم ثم يسوقون على بعضهم
البعض وكل ينظر الى غريمه الى راس ثم يرجعوا الى أن يتوسطون
الميدان وهم معترضون بالرماح فاذا تقاربوا اركزوا رماحهم
وخدم بعضهم بعضا وهذا ترتيبهم ٥

صفوف الدخول



فاذا اكملوا ذلك خرج احد المقدمين يعمل قطارا ويدور جوانب
الميدان واصحابه متتابعون والمقدم الاخر تابع صاحبه الى
أن يصلوا راس الميدان وهذا ترتيبهم ٥

ميدان الاصل



فاذا وصل الى راس الميدان يعود على راس رمحه ويقف
ويأخذ اصحابه الى جانبه صفا بعدان يدورون عليه حلقة

صفا

صورة الاستعداد للحرب

# الفصل الرابع

# (مخطـوطـة طبيــة)

## ((التَّصرِيفُ لمنْ عَجَزَ عَنِ التَّـأْلِيفِ))

للزَّهـْراوِى

لم تقم حضارةٌ إنسانية، إلا وكان للطب نصيبٌ فيها؛ ذلك لأن حالة الحضارة، ترتفع بقيمة الإنسان وتلبى، مطالبه الملحة؛ ومن هذه المطالب، الحاجة إلى التداوى من الأمراض والأوجاع المختلفة. ولهذا ظهرت المعارف الطبية المتنوعة المنازع والأشكال، فى حضارات الصين والهند وفارس ومصر واليونان.

وكانت للحضارة العربية الإسلامية، إسهاماتها الكبرى فى مجال الطب؛ حيث برع من المسلمين طائفةٌ من الأطباء الذين طوَّروا أصول الطب وفروعه، حتى وصلوا إلى غاية الدقة العلمية المتاحة فى زمانهم. فمن هؤلاء الأطباء، على اختلاف أزمانهم: الشيخ الرئيس أبو على (ابن سينا) والطبيب الماهر أبو بكر(الرازى) والعلَّامة علاء الدين (ابن النفيس).. ومنهم أيضًا، أبو القاسم الزهراوى.

نشأ أبو القاسم الزهراوى فى بلاد الأندلس. وهو ينتسب إلى بلدة هناك تسمى: الزهراء، وقد أمضى حياته مشتغلًا بالطب والجراحة، حتى وفاته سنة 404 هجرية، بعد حياة طويلة اقترب فيها عمره من السبعين عامًا[1]. يصفه أشهر مؤرخى الطب العربى، ابن أبى أصيبعة، بأنه كان طبيبًا فاضلًا، خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج، وله تصانيف مشهورة فى صناعة الطب، أفضلها كتابه الكبير: التصريف لمن عجز عن التأليف، وهو أكبر تصانيفه، وهو كتاب تامٌّ فى معناه[2].

وموسوعة التصريف، عملٌ علميٌّ ضخمٌ، يقع فى ثلاثين جزءًا. بعضها مخصَّص للطب، وبعضها الآخر للصيدلة، وبعضها الأخير للجراحة. وقد كان الإسهام الأكبر للزهراوى، فى مجال الجراحة تحديدًا. فعلى الرغم من أن الجراحة كانت قبله تعانى

---

(1) انظرْ ترجمته فى: بغية الملتمس للضبى ص 271، الصلة لابن بشكوال 166/1، جذوة المقتبس للحميدى ص 195، كشف الظنون لحاجى خليفة ص 411، Brockelmann 1/239
(2) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ص 501.

من قلة الشأن، ويُنظر إلى الجراحين على أنهم أقل مرتبة من الأطباء، وهى نظرة موروثة عن الحضارات السابقة للإسلام، إلا أن مجيء الزهراوى أعطى للجراحة مكانها المتميز بين فروع الطب. ولنتصفح (التصريف) حيث نقرأ فى بداية الجزء الخاص بالجراحة، وهى التى أطلق عليها الأطباء العرب اسم «عمل اليد»، ما يلى:

لما أكملتُ هذا الكتاب، وبلغتُ فيه الغاية من وضوحه وبيانه؛ رأيتُ أن أكمله لكم، بهذه المقالة التى هى جزء العمل باليد. لأن العمل باليد، مخسّةٌ فى بلدنا. وفى زماننا، معدومٌ ألبتةَ، حتى كاد يندرس (يختفى) علمه، وينقطع أثره.

وهكذا ينعى الزهراوى حال الجراحة والجراحين فى زمانه، ويأسف لهوان أمرها. ومن ثَمَّ، يحرص هو على تتويج موسوعته الطبية، بمقالة فى الجراحة وفنونها، وأدوات الجراحين. وهو ما كان له أكبر الأثر فى الارتفاع بشأن هذا الفن العلاجى، ليس عند العرب والمسلمين فحسب، بل أيضًا عند الأوروبيين الذين تتلمذوا على (التصريف) خاصةً، بعدما ترجمه إلى اللاتينية جيرارد الكريمونى، وجعله بعنوان Medical Vade Mecani[1] فأتاح لأوروبا أن تستفيد من إنجازٍ علميٍّ عربى، كانت آنذاك فى أشد الحاجة إليه. وقد قام جيرارد الكريمونى بترجمة الكتاب سنة 1519 ميلادية، فى بداية العملية الكبرى لترجمة العلم العربى، وهى العملية التى قامت بها عدة مجامع علمية فى أوروبا، لتنطلق بعد ذلك إلى آفاق علمية رحيبة، بينما يذوى العلم فى ديار الإسلام.

وقد ازدانت مخطوطة التصريف، بما لا حصر له من رسوم الأدوات الجراحية التى طوّرها الزهراوى، أو ابتدعها ابتداعًا. وفى وسع القارئ أن يتأمل فى النماذج التى صوّرناها هنا من المخطوطة، ليرى دقة هذه الآلات الجراحية. وهذه النماذج، مصورة من مخطوطة التصريف الموجودة فى الهند، بمكتبة خدابخش بتنه تحت رقم 2146. وهى نسخة خطية نفيسة، يرجع تاريخ كتابتها إلى سنة 584 هجرية[2]. وقد نبّه الزهراوى الجرّاحين إلى أهمية آلات الجراحة، قائلًا: اعلمْ أن

---

(1) د. حسان حلاق: تاريخ العلوم عند العرب (مكتبة كريدية إخوان، بيروت 1991) ص 174.

(2) هناك نماذج أخرى مصورة من مخطوطة التصريف، موجودة فى ملحق كتاب زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب (الترجمة العربية ص 569) والعنوان الأصلى لهذا الكتاب: شمس الله تشرق على الغرب!

هذه الآلات كلما كثرت أنواعها، وكانت معدّة عند الصانع؛ كانت أسرع لعمله، وأرفع عند الناس لقدره.

ومن لطائف إسهامات الزهراوى الجراحية، أنه كان يعقّم آلاته قبل إجراء العمليات الجراحية بمادة (الصفراء) وهى المادة التى أثبت الطب المعاصر، أنها تقلّل من وجود البكتريا على تلك الآلات. ومن لطائف أعماله أيضًا، أنه لم يقتصر على إجراء العمليات بهدف علاج الأمراض فقط؛ بل أجرى أيضًا عديدًا من الجراحات التجميلية التى كانت آنذاك ترفًا.

وقد اهتم الزهراوى بالأمراض التى لا تزال تحيّر الأطباء، مثل مرض السرطان. وفى (التصريف) نقرأ النص التالى الذى يعترف فيه الزهراوى بخطورة هذا المرض إذا استفحل، ويصف الجراحة اللازمة لاستئصاله إن كان فى بدء أمره. وهو أيضًا ينتبه إلى علاقة الورم السرطانى بالدم، قائلًا ما نصُّه :

ذكر الأوائل أنه متى كان السرطان فى موضع لا يمكن استئصاله كله، لا سيما متى قَدُم وعَظُم؛ فلا ينبغى للطبيب أن يقربه. فإنى ما استطعت أن أُبرئ منه أحدًا، ولا رأيتُ الغير.. أما إذا كان مركزه حيث يمكن إخراجه، كالذى فى الثدى أو فى الفخذ، ونحوهما من الأعضاء؛ ولا سيما إذا كان مبتدئًا صغيرًا، فالعمل فيه، أن نُسهل العليل مرات من السوداء، ثم نفصده إن كان فى العروق امتلاء من دم، ثم ننصب المريض نُصْبَةً نتمكن فيها من العمل، ثم نلقى السنانير التى تصلح له، ثم نقوّره من كل جهة بعد التخدير. ونترك الدم يخرج ولا نقطعه، حتى لا يبقى من الدم شىء فى أصول الورم.. واترك الدم الغليظ يسيل كله، بيدك أو بما أمكنك من الآلات. فإن عرض فى أثناء عملك نزفُ دمٍ عظيم، من قطع شريانٍ أو وريد؛ فَاكوِ العرق حتى ينقطع الدم، ثم عالجه بسائر العقاقير. وهذا الوصف لجراحة السرطان الخبيث، ظل لقرون عديدة تالية على عصر الزهراوى، هو الطريقة التى يحاصر بها الأطباء، العرب والأوروبيون، هذا الداء الذى لم يستطع الأطباء تخليص البشر منه، حتى اليوم.

ولم تكن الجراحة، هى الإسهام الوحيد والجديد فى التصريف. ففى الكتاب إسهامٌ على مستوى الصيدلة، يشير إليه د. عبد الرحمن مرحبا، بقوله: وأهم أجزاء أو مقالات

الكتاب من الناحية الصيدلانية، هما المقالتان الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون. ففى المقالة الثامنة والعشرين، بحث الزهراوى تحضير العقاقير المعدنية والنباتية والحيوانية وتنقيتها وتصفيتها. وهى أشهر مقالة صيدلانية كُتبت فى الأندلس، وقد نُقلت إلى اللغة اللاتينية بعنوان Liber Servitoris وطُبعت فى مدينة البندقية سنة 1471. وأما المقالة التاسعة والعشرون، فقد قسَّمها المؤلِّف خمسة أبواب ذكر فيها ما يلى:

أولًا: تسمية العقاقير بخمس لغات هى اليونانية والسريانية والفارسية والعربية والبربرية.

ثانيًا: أسماء الأدوات والأجهزة الكيميائية والصيدلانية.

ثالثًا: أبدال الأدوية المفردة مع الكلام على بعض مصادرها.

رابعًا: أعمار الأدوية المفردة والمركبة.

خامسًا: شرح أسماء الأكيال والأوزان مرتَّبة بحسب حروف المعجم.

والزهراوى هو أول مَن استعمل الفحم فى ترويق شراب العسل البسيط، كما أنه أول مَنْ استعمل قوالب خاصة لصنع الأقراص الدوائية[1]. ومنذ سنوات، قد حقق د. يحيي خراط هذا الجزء الصيدلانى من التصريف، فى رسالته للدكتوراه بمعهد حلب لتاريخ العلوم. غير أن النص المحقق، للأسف، لم ينشر حتى اليوم.

ولكى نشير إلى فضل الزهراوى وأهمية كتاب التصريف، يكفى أن نشير إلى ريادته، وأولياته، فى النقاط الآتية:

(1) كان الزهراوى أول مَنْ جعل الجراحة قسمًا خاصًا من أقسام الطب، وتخصُصًا رئيسًا لتخصصاته المعروفة آنذاك.

(2) كان الزهراوى أول مَنْ قام بربط شرايين الدم، لإيقاف النزيف. وهو اكتشاف علمى كبير، ينسبونه اليوم إلى الجراح الفرنسى الشهير إمبرواز بارى ؛ مع أنه جاء بعد الزهراوى بستة قرون.

(3) كان الزهراوى أول من أجرى للنساء عملية استئصال المثانة، عن طريق المهبل. وهى عملية دقيقة، تحتاج إلى براعة كبيرة.

---

(1) د/ عبد الرحمن مرحبا: الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب، ص 302.

(4) وهو أول من انتبه إلى دور الوراثة فى الاستعداد للنزيف. وذلك حين لاحظ حدوث النزيف فى أفراد أسرة واحدة، كان قد عالجهم بالكى، فنزفوا جميعًا على غير المعتاد.

(5) وهو أول من نجح فى إجراء العملية الجراحية المعروفة باسم Trachiomic أو: شَق القصبة الهوائية، وذلك حين اضطر لإجراء تلك الجراحة الخطيرة على خادمه.

(6) وهو أول من لفت أنظار الأطباء إلى ضرورة فتح حيِّز فى رباط الجبس الخاص بالكسور المفتوحة، وبيَّن للأطباء طريقة عمل هذه الفتحة الضرورية.

(7) وهو أول مبتكرٍ لعديدٍ من الأدوات الجراحية، التى كثيرًا ما استخدمها من بعده الجرَّاحون والكحَّالون (أطباء العيون) فوصَف هذه الآلات ورسمها فى موسوعته. وقد كان يقوم بصنع تلك الآلات بمساعدة العمال المهرة فى سبك المعادن، ويُشرف بنفسه على مراحل تصنيع كل آلةٍ جراحيةٍ منها.

(8) وكان الزهراوى شديد الاهتمام بالتهاب المفاصل، وبالسُّلِّ الذى يصيب فقرات الظهر. وهى الحالة المرضية التى يُنسب اكتشافها، ظلمًا، للطبيب الإنجليزى برسيفال بوت! ولا تزال إلى اليوم تُعرف لدى الأطباء، باسم: داء بوت.. مع أن الزهراوى سابق على بوت، بسبعة قرون.

وبعد، فقد كان الزهراوى لحظةً مجيدةً فى تراثنا العلمى. ولعله من الواجب علينا اليوم، ونحن نحاول تعويض ما فاتنا من العلم والمعرفة؛ أن نرد للرجل اعتباره، ونعترف بفضله الذى لم يعترف به الأوروبيون. وردُّ اعتبار الزهراوى والاعتراف بفضله، يعنى أن نستكمل المسيرة العلمية الإنسانية، فنضيف إليها كما أضاف. وأن يحظى كتابه (التصريف) بعنايتنا، باعتباره صفحةً مهمة من تاريخ العلوم العربية؛ فنقوم بنشر مخطوطاته على الناس فى طبعة محقَّقةٍ تليق بمكانة الزهراوى ومكانة التصريف[1].

---

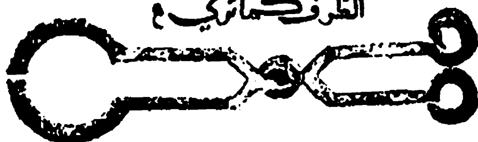
(1) للزهراوى كتاب آخر غير التصريف، لا يزال هو الآخر مخطوطًا ! وعنوانه: مقالة فى العمل باليد (كحالة: معجم المؤلفين 105/4).



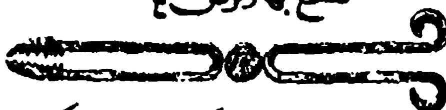

نماذج لآلات جراحية

(من مخطوطة مكتبة خدابخش رقم 2146)

وهذه صورة المشداخ الذي يشدخ به راس الجنين يشبه المقص له اسنان في الطرف كما ترى



وقد تصنع مستطيلة كالكلاليب على هذه الصورة كما ترى له اسنان كاسنان المنشار تقطع بها وترض



اعلم ان هذه الالات كلما كثرت انواعها وكانت معدة لدى الصانع كانت اسرع لعمله وارفع عند الناس لقدره فلا تستحقر

نماذج أخرى

# الفصل الخامس

# (مخطوطة فنون عسكرية)

## ((تَفْرِيجُ الكُرُوبِ فِي تَدْبِيرِ الحُرُوبِ))

لمؤلف مجهول

في الفصل قبل السابق، عند عرضنا لمخطوطة حسام الدين لاجين الطرابلسي: تحفة المجاهدين في العمل بالميادين، تحدثنا عن أهمية الالتفات إلى التاريخ الحربي والعسكري للعرب، ونشر مخطوطاته التي لقيت منا الإهمال.

وفي ابتداء الكلام عن مخطوطة: تفريج الكروب، التي نستعرض فيما يلي محتواها؛ أرى من الواجب أن نتوقف قليلاً عند بعض المخطوطات العسكرية المهملة، لنلقي الضوء عليها. خاصةً تلك المخطوطات التي تم تأليفها في العصر المملوكي، الذي دُوِّنت فيه (تفريج الكروب) لمؤلفها المجهول. وفي ذلك، نقول:

شهد النصف الأول من العصر المملوكي، القرنان السابع والثامن الهجريان، نهضةً كبيرة في شتى المجالات، ومن بينها مجال الفنون الحربية والفروسية. وكانت للعسكرية المصرية المملوكية في القرن السابع الهجري، انتصاراتها المعروفة على الصليبيين والمغول، التي مهّدت السبيل أمام مرحلة الاستقرار الأمني في مصر والشام. وهو الاستقرار الذي أثمر الكثير من الإنجازات، في ميادين المعرفة العلمية والعمارة والتنظيم الإداري وإحياء التراث العربي الإسلامي، من بعد سقوط بغداد سنة 656 هجرية[1].

وفي إطار الاهتمام المملوكي بالأمور العسكرية وفنون القتال، وُضعت عدة مؤلفات في هذا الباب. فمن ذلك كتاب: الأدلة الرسمية في التعابئ الحربية، لمحمد بن منكلي الناصري الذي كان نقيب الجيش في زمن السلطان الأشرف شعبان (764 - 778 هجرية) وفيه يقول المؤلِّف: والسبب الداعي لهذا التأليف أمور، أحدها: ليعلم

---

(1) بخصوص ذلك، يمكن الرجوع إلى:
د. سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك (دار النهضة العربية، بيروت).

أن فى العسكر الإسلامى مَنْ له عناية من ربه تعالى بخدمة أولى الجدّ والاجتهاد[1].. إلخ. وقد ذكر ابن منكلى فى أثناء كتابه هذا، بعض أسماء كتبه الأخرى فى فنون الحرب، مثل: المنهل العذب لورود أهل الحرب، الرسالة المرضية فى صناعة الجندية، الكشف والبيان[2].

وفى مجال الرماية وضع عبد الله بن ميمون، كتاب: الإفادة والتبصير لكل رامٍ مبتدئ أو ماهرٍ نحرير، بالسهم الطويل والقصير. فقال فى مقدمته، ما نصه: جعل سبحانه الرمى نكاية العدو، واستطاعةَ القوة فى الغزو، ووعد من رمى بسهم فى سبيله بدرجة فى الجنة.. ولما كان الجهاد من أعظم العبادات، وكان فرضٌ بيّنٌ فيما قيل، دعانى ذلك إلى تأليف كتاب فى الرماية عن القوس بالعربية، لا بالطويل فيُمَلُّ ولا بالمختصر فيخلُّ[3].

وفى هذه العلوم العسكرية، يكتب مُرضى بن على الطرطوسى: تبصرة أرباب الألباب، فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء، ونشر أعلام الإعلام فى العدد والآلات المُعينة على لقاء الأعداء[4].. ويكتب الحسن السنجارى: هداية الرامى إلى الأغراض والمرامى[5].. ويكتب محمد بن لاجين: الفروسية برسم الجهاد، وما أعدّ الله للمجاهدين من العباد.. وغير ذلك الكثير، مما يضيق المقام هنا عن ذكره كله.

وقد استفاد العسكريون المسلمون فى تأسيس معارفهم الحربية، من كل المصادر السابقة عليهم. فها هو محمد بن منكلى يقول فى كتابه (الحيل فى الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب) ما نصُّه: هذا كتاب الحيل فى الحروب.. من حِكَم ذى القرنين الإسكندر بن فيلبس اليونانى، وُجِدَ فى ديماس بالإسكندرية، بين حجرين مطبقين أحدهما على الآخر، مكتوبًا باليونانية، فتُرجم بالعربية. وهذا الكتاب فى

---

(1) محمد بن منكلى: الأدلة الرسمية (مخطوطة أياصوفيا، اسطنبول رقم 2875) الورقة الثانية.
(2) راجع: فهرس معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، الجزء الرابع، ص 3.
(3) عبد الله بن ميمون: الإفادة والتبصير (مخطوطة كوبريلى زاده، اسطنبول رقم 1213) الورقة الأولى.
(4) توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة أحمد الثالث، اسطنبول، تحت رقم 2114.
(5) توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة أحمد الثالث، اسطنبول، تحت رقم 2305.

جميع أبوابه، يُحتاج إليه فى أنواع الحرب من الحيل والمكر والخديعة ومخادعة العدو والاحتراس من مكره وعمل الآلات والسلاح . . . إلخ[1].

وقد ازداد هذا الحرص على تحصيل العلوم الحربية، والعناية بإجادتها وتطويرها؛ نظرًا للرباط الدائم الذى كانت مصر فيه آنذاك. بالإضافة إلى تشجيع الحكام للفروسية، لمصلحتهم العامة والخاصة. ولم يقف هذا التشجيع عند حد الحكام، بل تعداه إلى رجال العلم والدين. فها هو السيوطى، وهو الفقيه والعالم الجليل، يُفرد للفروسية كتابًا بعنوان: تحفة الأحباب فى الرمى بالنشاب. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المؤلفات العسكرية التى ذكرناها، وغيرها كثيرٌ مما لم نذكره؛ لا تزال حتى اليوم مخطوطةً لم تُنشر[2].



ومخطوطة (تفريج الكروب)، وضعها مؤلفها المجهول، للملك الناصر فرج بن برقوق، الذى تولى الحكم من سنة 801 إلى سنة 808 هجرية. وهى تبدأ بقول المؤلف:

الحمد لله مؤيِّد الإسلام من سلطانه الناصر بعزيز نصره، ومُرغم أنف الخارج عن طاعته بتعجيل هلاكه وردِّ كيده فى نحره، ومُريه من مصارع أعدائه ما يتّعظ به العاقل ويعده المتأمِّل من عجائب دهره. . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة يتوارثها عظماء الملوك كابرًا عن كابر، ويُوصى بها على الدوام أبدًا الأولُ منهم الآخر. . وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله المخصوص بالتأييد عن تتابع الدهر، والمنصور بالرعب المؤثِّر فى قلوب أهل الكفر على مسيرة شهر[3]. . إلخ.

ومع أن المؤلِّف وضع كتابه فى السنوات الأولى من القرن التاسع الهجرى، وهى فترة ضعف واضطراب، فإن المؤلِّف يُضفى على السلطان من الألقاب،

(1) محمد بن منكلى: الحيل فى الحروب (مخطوطة أحمد الثالث، رقم 3469) الورقة الثانية.
(2) المخطوطات التى أوردناها هنا، وغيرها كثير من المخطوطات العسكرية، توجد منها مصورات ميكروفيلمية بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة. أما مخطوطة السيوطى (تحفة الأحباب) فقد رأيت منها نسخة جيدة بالمكتبة المركزية لجامعة الإسكندرية.
(3) الإشارة هنا للحديث الشريف: نصرت بالرعب مسيرة شهر. (أخرجه السيوطى بلفظ قريب، عن ابن عباس وأبى هريرة وغيرهما (انظر: الجامع الكبير، المجلد السادس، ص 732، 733).

ما لم يحمله من قبله السلاطين العظام! وهى ظاهرة معروفة فى التاريخ، فكلما ازداد التأخر وساد التخلف؛ لجأ الحكام إلى تعويض عجزهم بإضفاء الألقاب على أنفسهم، وشجعوا الناس على التملق لهم، عوضًا عن تهافت سلطانهم على البلاد والعباد. وفى المخطوطة التى بأيدينا، نرى المؤلف يعدد ألقاب فرج بن برقوق، فيقول:

وبعد، فلما كان السلطان الأعظم، الملك الناصر، العالم العادل المجاهد المرابط المتاعر، المؤيد المظفر المنصور، زين الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيى العدل في العالمين، وارث ملك ملوك العرب والعجم والترك، ظل الله فى أرضه، القائم بسنته وفرضه، إسكندر الزمان، مملك أصحاب الأسرة والتيجان، واهب الأقاليم والأمصار، مبيد الطغاة والكفار، حامى الحرمين، جائز القبلتين، جامع كلمة الإيمان، ناشر لواء العدل والإحسان، سيد ملوك الزمان، إمام المتقين، قسيم أمير المؤمنين، أبو السعادات فرج بن السلطان الشهيد الملك الظاهر أبو سعيد بن برقوق.

وتزداد دهشتنا، بعد هذه الألقاب كلها، حين نعلم أن فرج بن برقوق كان من أسوأ الحكام فى تاريخ مصر، المملوكي وغير المملوكي! وقد تولى السلطنة بعد مقتل أبيه، لمدة سبع سنوات، ولم يكن قد أتم عشر سنين من عمره. وقد توقف ابن حجر العسقلانى عنده، فى كتابه: ذيل الدرر الكامنة، فلم يذكر عنه إلا الآتى: ذكر من مات سنة خمس عشرة (815 هجرية): فرج بن برقوق، الناصر بن الظاهر، بدمشق.[1] مما جعل محقق الكتاب، يعلق على الأمر فى هامش الصفحة بقوله:

هكذا اكتفى شيخ الإسلام، بذكر اسم السلطان، ولم يذكر شيئًا من سيرته، وهو السلطان. وكذلك فعل فى الإنباء (إنباء الغمر بأنباء العمر 80/7) فلم تزد ترجمته هناك على أربعة أسطر. وفى (الضوء اللامع) يقول السخاوى:

فرج بن برقوق.. ولد سنة 791 فى وسط فتنة يلبغا الناصرى ومنطاش، فسماه أبوه بلغاق! ثم سماه فرجًا. فكان اسمه الحقيقى، هو الأول.. استقر فى المملكة بعهد من

(1) ابن حجر العسقلانى: ذيل الدرر الكامنة، تحقيق د. عدنان درويش (نشرة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة 1992) ص 222.

أبيه، فى شوال سَنَة 801، وسِنُّه دون عشر سنين، واختلف مماليك أبيه عليه كثيرًا.. وخُلع فى غضون مملكته، سنة 808 بأخيه المنصور عبد العزيز، نحو شهرين، ثم أُعيد فى جمادى الآخرة من نفس السنة، وأمسك أخاه فحبسه ثم قتله.. واعتُقل سنة 815، واستفتوا العلماء فأفتوا بوجوب قتله، لما كان يرتكبه من المحرمات والمظالم والفتك العظيم، فقُتل، ودُفن بمقابر دمشق. وكان سلطانًا مهيبًا، فارسًا كريمًا، فتاكًا، ظالمًا، جبارًا، منهمكًا على الخمر واللذات، طامعًا فى أموال الرعايا[1].



ونعود للمخطوطة، لنرى مؤلفها المجهول وهو يقول فى مقدمتها عن نفسه: وكنت ممن نظر فى كتب التاريخ على اختلافها، وتدبر وقائع الحروب منها على تباين أصنافها.. فدعانى ذلك إلى أن أخدم خزانته الشريفة (يقصد خزانة كتب فرج بن برقوق) بكتابٍ أضعه فى تدبير الحروب وترتيبها، ومعرفة أحوال القتال وتقديرها، ليهتدى بذلك من يقف عليه من أُمرائه الأنجاب وقواد عساكره.. إلخ.

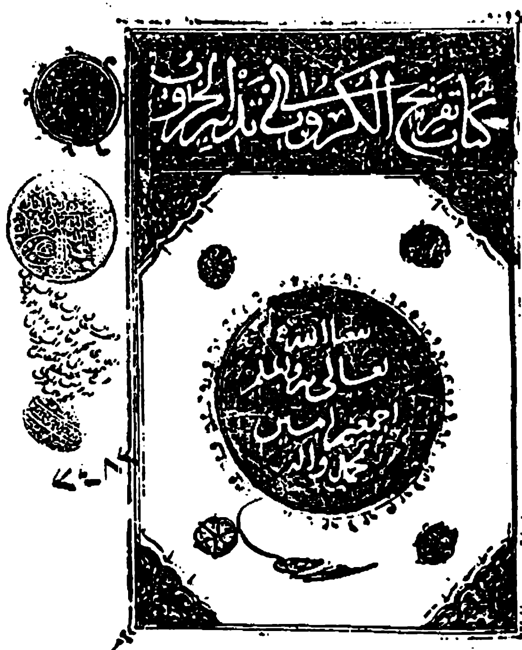
ولدينا نسخة خطية جيدة من: (تفريج الكروب). وهى مخطوطة نفيسة، خزائنية، مكتوبة بخط الثلث الجميل، مشكولة بالكامل، تقع فى 152 ورقة. وناسخها هو: أبو الفضل بن عبدالوهاب السنباطى، وهى محفوظة فى مكتبة الفاتح بإسطنبول، تحت رقم 3483، وهى ليست النسخة الوحيدة، فمن المرجح أن تكون هناك نسخٌ أخرى من (تفريج الكروب) موزعة على الخزانات الخطية العتيقة، فى مكتبات العالم شرقًا وغربًا.

وتنتهى المخطوطة من استعراض الفنون الحربية المختلفة، بجملة نصائح عامة للسلطان وأمير الجند، فتقول مثلًا: وعليه أن لا يُناهض عدوه ولا يناجزه للقتال، إلا عند الضرورة والحاجة إلى الدفع عن نفسه. ولا يُقاتل، ما وجد إلى الحيلة والخديعة سبيلًا (وهى قاعدة ميكيافيللية) وعليه بالمطاولة والمدافعة، وإن دام الحصار. ويغتنم اليوم والساعة واللحظة، لتتهيأ له الحيلة. وينتظر حوادث الزمان، وما يقع من الفرج. وقد أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، أن النصر مع الصبر.

(1) السخاوى: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (منشورات دار الحياة، بيروت) 168/6.

وبالجملة، فإنه يجب عليه أن يملك قلوب الرعية، بالعدل والإحسان. فإنه ليس غاية مراد الرعية، إلا ذلك. ومن عان العدل والإحسان، كانت رعيته من أنصح الجند له، لطمأنينة قلوبهم إليه. وربما ضبطوا مكانهم، إذا غاب عنهم جُند الملك، إلى حين حضور مَنْ يثق به الملك من المندوبين لذلك. والله أعلم، وبه التوفيق وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ومن الواضح أن فرج بن برقوق، لم يستمع إلى تلك النصائح الخاصة برعاية الرعية -كما لا يستمع أغلب الحكام - فلقى مصيره المشئوم، وهو فى الرابعة والعشرين من عمره. واستحق بذلك نقمة معاصريه عليه، والصفات المذمومة التى ذكرها عنه السخاوى، وكلام العسقلانى عنه بصيغة التجهيل والتهميش.. ولم تنفعه تلك الألقاب الخدّاعة، التى أغدقها عليه مؤلّف مخطوطة التفريج.




مخطوطة كتاب تفريج الكروب (نسخة مكتبة الفاتح باسطنبول)
وتظهر عليها الأختام السلطانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤيد الإسلام من سلطانه

الناصر بعزيز نصره ومرغم أنف

الخارج عن طاعته بتخيل ملاكه

ورد كيده في نحره ومريه من

مصارع أعدائه ما يتعظ به العاقل ويعده

المتأمل من عجائب دهره ومسعد جده

العالي بإبادة عداة الطغاة المارقين

والله غالب على أمره على أن

الصفحة الأولى من المخطوطة

نجومها ولا يتغير على مر الزمان

إن شاء الله تعالى رحمها وسلم تسليما كثيرا

وبعد فلما كان السلطان الأعظم

الملك الناصر العالم العادل المجاهد

المرابط المثاغر المؤيد المظفر المنصور

زين الدنيا والدين سلطان الإسلام

والمسلمين محيي العدل في العالمين

وارث ملك ملوك العرب والعجم

والترك ظل الله في أرضه القايم

صفحة من المخطوطة

(يرد فيها ذكر السلطان وألقابه الكثيرة)

لذالك، والله أعلم وبه التوفيق،
وعليه التكلان ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم،
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
[illegible]
[illegible]

الورقة الأخيرة من المخطوطة
(وفيها اسم الناسخ)

# الفصل السادس

# (مخطـوطـة كيميائيـة)

## جَـامِـعُ الأَسْـرَارِ

للطُّـغْـرَائِـى

صاحب هذه المخطوطة، هو فخرُ الكُتّاب، أبو إسماعيل الحسين بن على بن محمد ابن عبدالصمد، الأستاذ الوزير، الطُغْرَائي. ولد سنة 453 هجرية بأصبهان، وكانت وفاته الدرامية سنة 515 هجرية، وقد تخطى الستين من عمره. ولقب الطُغْرَائي مستمد من كلمة (طُغْرَاء) وهى الطُرَّةُ التى كانت تُكتب فوق الرسائل متضمنة البسملة، حيث كان الطُغْرَائي يقوم برسمها وكتابتها بخطِّه الذى عُدَّ آيةً فى الجمال[1].

وقامت شهرة الطغرائى أساسًا، على كونه صاحب القصيدة المشهورة المسماة لامية العجم[2]، التى يقول مطلعها (من بحر البسيط):

أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَانَتْنِي عَنِ الخَطَلِ
وَحِلْيَةُ الفَضْلِ زَانَتْنِي عَنِ العَطَلِ

وهى من أشهر القصائد العربية، تزيد أبياتها على الستين بيتًا، كلها مفعمة بالحكمة.. ومن أجود أبياتها قوله:

---

(1) أفاضت كتب المؤرخين والمترجمين فى سيرة الطغرائى، لكونه شاعرًا ورجل سياسة، وليس لكونه كيميائيا! ولذلك نجد سيرته مبسوطة في:
معجم الأدباء لياقوت الحموى 10 / 56، وفيات الأعيان لابن خلكان 1 / 200، تاريخ الإسلام للذهبى 4 / 213، سير أعلام النبلاء للذهبى 19/ 454، الوافى بالوفيات للصفدى 14 /431، شذرات الذهب لابن العماد 4 / 41، مرآة الجنان لليافعى 3/ 210، البداية والنهاية لابن كثير 12 / 190، مفتاح السعادة لطاشكبرى زاده 1/ 197، روضات الجنات للخوانسارى 248، نزهة الجليس للموسوى 2 / 118، أعيان الشيعة للعاملى 27 / 76، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى 5 / 220، كشف الظنون لحاجى خليفة 68/ 394 / 534 / 672 / 798 / 821 / 838 / 1537 / 1755/ معجم المؤلفين لكحالة 4 / 36.. وأيضًا:
De Slane , catalogue des manuscrtis arabes 473.
Brockelmann: Geschte der arabischen Litterature (Sup.) 1/244.

(2) سُميت القصيدة بذلك، قياسًا على قصيدة (لامية العرب) للشَنْفَرى، التى يقول مطلعها:
أقيموا بنى أمى صدور مطيِّكم ... فإنى إلى قومٍ سواكم لأميلُ

يَـا وَارِدًا سُـؤْرَ عَـيْـشٍ كُـلُّـهُ كَـــدَرٌ
أَنْفَقْتَ صَـــفْـوَكَ فِـــي أَيَّامِـكَ الأُوَلِ

فِيمَ اقْتِحَامُكَ لُجَّ البَحْرِ تَرْكَبُهُ
وَأَنْـتَ يَكْفِيكَ مِنْهُ مَصَّةُ الوَشَلِ

مُلْكُ القَنَاعَةِ لاَ يُخْشَى عَلَيهِ وَلاَ
يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الأَنْــصَارِ والخَوَلِ

تَرْجُو البَقَاءَ بِــدَارٍ لاَثُبَاتَ لَهَـا
فَهَلْ سَمِـعْـتَ بِظِلٍّ غَيْـرِ مُنْتَــقِــلِ

وَيَا خَبِـيرًا عَلَى الأَسْــرَارِ مُطَّلِـعًـا
اصمُتْ فَفِي الصَّمْتِ مَنْجَاةٌ مِــنَ الزَّلَلِ

وقد قام صلاح الدين الصفدى، بوضع شرحٍ مطوّل على هذه القصيدة، وهو مطبوع معها فى مجلدين. وللطغرائى ديوانٌ شعرىٌ كامل، جمعه بعض أحفاده بعد وفاته بزمن. وأبياته الشعرية جيدة المعنى، بليغة اللفظ. ومن رقيق شعره قوله فى بعض الأبيات (من بحر الكامل):

يَا قَلْبُ مَالَكَ وَالهَوَى مِنْ بَعْدِ مَـا
طَــابَ السُّــلُـوُّ وَأَقْــصَـرَ العُشَّـاقُ

أَوَ مَابَدَا لَــكَ فِي الإِفَــاقَـةِ وَالأُلَـــى
نَـازَعْـتَـهُـمْ كَـأْسَ الـغَـرَامِ أَفَـاقُـوا

مَـرِضَ النَّســيمُ وَصَـحَّ وَالـــدَّاءُ الَّـذِي
تَشْــــكُوه لاَ يُرْأَى لَـــهُ إِفْــرَاقُ[1]

(1) بخصوص الطغرائى شاعراً، يمكن الرجوع إلى :
د. على جواد الطاهر: الطغرائى حياته وشعره ولاميته (منشورات مكتبة النهضة، بغداد 1963).

وتوفى الطغرائى مقتولًا بأمر السلطان محمود السلجوقى؛ إذ كان الطغرائى وزيرًا لأخيه مسعود، فاقتتل الأخوان، وانتصر السلطان محمود، وأُخذ الطغرائي أسيرًا. وتروى المصادر التاريخية أن السلطان محمود لما عزم على قتل الطغرائى؛ أمر به أن يُشَدّ إلى شجرة، وأن يقف أمامه جماعةٌ بالسهام، وأن يقف إنسانٌ خلف الشجرة، ليكتب ما يقوله الطغرائى وهو ينتظر لحظة الموت. وعندما توجهت السهامُ ناحية الطغرائى، أنشد (من الكامل):

وَلَقَدْ أَقُولُ لِمَنْ يُسَدِّدُ سَهْمَهُ
نَحْوِى وأَطْرَافُ المَنيَّةِ شُرَّعُ
وَالموتُ فِى لَحْظَاتِ أَحْورَ طَرْفُهُ
دُونِى وَقَلْبِى دُونَهُ يَتَقَطَّعُ
باللهِ فَتِّشْ عَن فُؤَادِى هَلْ يُرَى
فيه لِغَيْرِ هَوَى الأَحِبَّةِ مَوْضِعُ

وهنا رَقَّ السُّلطان وأمر بإطلاق سراحه. لكن الوزير (السميرمى) ظَلَّ يُغرى السلطان بقتله، ويؤكِّد له أن الطُّغْرَائى مُلْحِدٌ، ولابدَّ من قتله؛ فاستجاب السلطان. ولقى الوزير السميرمى جزاء فعلته؛ إذ قتله أحد عبيد الطغرائى، بعد عامٍ واحد، ثأرًا لسيده.

* * *

وحديثنا التالى عن (الطغرائى) ليس بوصفه شاعرًا مجيدًا، وإنما من حيث كونه واحدًا من أشهر الكيميائيين العرب، أو كما كانوا يسمون قديمًا: أهل الصنعة[1]. إذ كان الطغرائى، حسبما يشير الذهبى فى (سير أعلام النبلاء) ذا باع طويل فى هذه الصنعة[2].

---

(1) بخصوص الطغرائى كيميائيًا، يمكن الرجوع إلى :
د. فاضل أحمد الطائى: أعلام العرب فى الكيمياء (الألف كتاب الثانى، 1986).
(2) الذهبى: سير أعلام النبلاء 19 / 454.

وضع الطغرائى عدة مؤلفات فى الكيمياء، كلها لا تزال مخطوطة؛ منها: مصابيح الحكمة ومفاتيح الرحمة، كتاب الرد على ابن سينا فى إبطال الكيمياء، حقائق الاستشهاد والإرشاد للأولاد، رسالة إلى مارية بنت سايه الملكى القبطى فى الكيمياء، قصيدة بالفارسية وشرحها بالعربية فى الكيمياء.. وله أيضًا: جامع الأسرار.

وهناك عدة عناوين لهذا الكتاب الأخير؛ فبعض المؤرخين يذكره بعنوان: جامع الأسرار وتراكيب الأنوار فى الإكسير. وعلى الغلاف الخارجى للمخطوطة التى بين أيدينا، نرى عنوان: جامع الأسرار. وفى الورقة الأخيرة منها نرى عنوان: التقريب فى معرفة سر التركيب.. ولعل هذا العنوان الأخير، هو عنوان الجزء الثانى من الكتاب الذى يقع فى جزأين. وعلى أىِّ الأحوال، فإن (جامع الأسرار) كتابٌ مشهورٌ للطغرائى، بقطع النظر عن تلك الاختلافات فى صيغ عنوانه، إذ كثيرًا ما يقع الاختلاف فى عناوين المخطوطات. وهناك من المؤلفات العربية القديمة، ما يكون له أكثر من عنوان! ويرجع ذلك فى بعض الأحيان إلى رغبة المؤلِّف، وأحيانا إلى تصرُّف النُّسَّاخ.

ولدينا نسختان خطِّيتان من: جامع الأسرار، بدار الكتب المصرية بالقاهرة، إحداهما محفوظة هناك تحت رقم 731/ طبيعة، والأخرى محفوظة تحت رقم 169/ طبيعة. وقد اعتمدنا هنا على هذه النسخة الثانية.

تدخل بنا المخطوطة إلى عالم طريف، هو عالم (الصنعة) أو محاولة تحويل المعادن الخسيسة كالنحاس والحديد إلى الذهب والفضة. وقد كانت لتلك المحاولة أكبر الأثر فى تطور علم الكيمياء. فعبر قرون طوال ومحاولات لا حصر لها، للوصول إلى هذه الغاية البعيدة؛ توصَّل العلماءُ المشتغلون بالصنعة إلى معرفة الكثير عن تركيب العناصر، وتفاعلاتها الكيميائية، وخصائص المركَّبات.

تبدأ المخطوطة بقول الطُّغْرَائى: الحمد لله ذى الآلاء، يُؤتى الحكمة من يشاء، وبعدُ، زيَّنك الله بالتقوى، وجمع لك خيرات الدنيا والآخرة. فقد انتهى إلىَّ أنك قد أخذت برأى جمهورٍ من العوام، وكثيرٍ من الخواص؛ فى إنكار الصنعة

الشريفة المُنجية من مسكنة الدنيا، المُعيذة أهلها المتحققين لها من الظلم والشر ومقابح الأخلاق، التي تدعو إليها الحاجة ومخافة الفقر والتكذيب بالحكمة.. حتى كدتَ تلحق بطبقة المقلّدين في إنكار دعاويهم، والإكثار لما شرعوا في ذكره من تدابيرهم وأعمالهم، وتُخرج أقاويلهم من أقسام العلوم، وتطردها جملةً من حيز الإمكان إلى حيز الامتناع، وأنك لا تتحاشى من أن تشتم أصحابها.

وبعد هذا التقديم إلى قارئه المفترض، يقول الطغرائى مؤكّدًا إمكانية تحويل العناصر الخسيسة إلى شريفة، ومحذّرًا من إشاعة هذا العلم فيمَنْ هم ليسوا أهله: فإن سَهّل الله تعالى لك الوقوف على ما جمعته لك فى هذه الرسالة، فاشكر الله عليه. ولا تُطلع على هذه الرسالة إلا مَنْ وثقت بعقله ودينه، وصحة رأيه فى الباقية (الآخرة) على الفانية (الدنيا) وكان ممَّنْ قال الله تعالى فيه وفى أمثاله ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين﴾.

ثم يقول ما نصُّه: وأبتدئ فأقول: إن الذين من قبلنا، تكلّموا فى شرف هذه الصناعة. وصنَّف فيها ابن زكريا (الرازى) تصنيفًا مفردًا، فى جملة كتبه الاثنى عشر. فإذا صَحَّ للعاقل، وجود هذه الصناعة إما عيانًا، فهو أشفى للنفوس وأذهب للشكوك، وإما بالقياس والحَدْس الصحيح، وتلك رتبة الحكماء والعلماء. فلا شك عنده فى شرفها وحُسن معونتها، على صلاح المَعاد والمَعاش جميعًا. أما المعاش، فلأنها وجهٌ يكفى الوجوه كلها. وأما المعاد، فلأنها رزقٌ حلال هو قوت الأنبياء وطعمة الأولياء ومنية الأتقياء. وهو ممَّا مَنَّ الله تعالى به على سليمان بن داود، عليه السلام، حيث قال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

ويشير الطُّغْرَائى إلى أن هذا اللون من المعرفة قديم. لكن الناس أهملوه ولم ينتبهوا له؛ لأن الاشتغال به يقتضى أمورًا. منها على حد قوله: إن صاحب هذه الحكمة، الذى يصل إليها باستنباطه يجب أن يكون متدربًا بسائر أوضاع الحكماء واصطلاحاتهم فى استعمال عباراتهم. ويستفيد من مزاولة هذه الصنعة

(1) سورة ص، آية 39.

وممارسة أعمالها، مشاهدة أعمال الطبيعة وأسرار الخليقة التى ذكرها الحكيم بلبناس فى كتابه، فذهل عنها السواد الأعظم حتى ظَنَّ كثيرٌ من أفاضل القدماء والمحدثين المعاصرين، أنها لغوٌ وهذيان، ولم يفطنوا لها مع ارتفاع طبقتهم فى سائر العلوم.

والحكيم (بليناس) المذكور في هذه الفقرة، هو الشخصية الهرمسية شبه الأسطورية، التي ينسب إليها كتابٌ عجيب عنوانه: سرُّ الخليقة وصنعة الطبيعة. ويقال إنه من ترجمة ساجيوس الراسعينى، القس؛ وقد عرضنا له تفصيلًا فى كتابنا (المخطوطات الألفية) اعتمادًا على نسخته الألفية النادرة، المحفوظة بجامعة أوبسالا بالسويد.

ونعود لمخطوطة الطُّغْرَائى، حيث يفيض بعد ذلك فى بيان العمليات الكيميائية المعقدة، الرامية إلى تحويل المعادن. لكنه يجعل لكل مادة رمزًا معينًا لا يعرفه إلا هو وبعض تلاميذه، حفاظًا على أسرار هذه الصناعة. وقد صرح الطُّغْرَائى فى مرات عديدة، بأنه تمكَّن من تحويل المعادن إلى ذهب وفضة! ومن أشعاره الموحية بذلك (من الطويل):

وَلَوْلاَ مُلُـوكُ الجَـوْرِ أَصْبَحْتُ وَالحَصَا
لَـــدَىَّ إِذَا مَـا شِـــئْتُ دُرٌّ وَيَاقُوتُ

وينتهى الطغرائى من كتابه، إلى قوله: فهذه نهاية ما امتد خاطرى إليه وعملته بيدى، فاتَّقِ الله أيها الطالب، ودع عنك المراء والمخالفة والمفاخرة، إن كنت أدركت شيئًا مما تطلب. واستعمل مع ذلك الصمت والوقار، فإنَّك بذلك تدعو إلى صيانة نفسك وعلمك. وإن أنت طلبت المراء، واتبعت مكابرة أهل الجهل، وأظهرت لهم شيئًا من علمك؛ فلا تلومنَّ غير نفسك. والله يخلف عليك فى نفسك بخير، فإن الملوك وغيرهم من العوام، إذا وصلوا إلى شىء من ذلك، لم يحبوا أن يكون لهم شريكٌ ولا شبيهٌ فيما علموا. وتحملهم الغيرة وشره الدنيا، على إتلاف كل مَنْ ساواهم أو علم علمهم، حتى لا يكون لهم مساوٍ ولا مُشَاكل. إلا الحكيم

الكامل، فإنه إذا رأى رجلًا من أهل الحكمة، لم يغيِّره ذلك شيئًا؛ وكان يشتهى لو أن مثله عددٌ كبير. والحكيم يرى نفسه دون الغاية، وأنَّ فوق علمه علمًا؛ فهو يتواضع. والجاهل يرى إذا بلغ اليسير، أنه قد بلغ الكثير وأنه لا غاية بعده. والحكيم لعلمه أن فوق علمه علمًا، فهو أبدًا متواضعٌ لتلك الزيادة. والجاهل يظنُّ بنفسه أنه قد بلغ الغاية، فهو متكبِّرٌ أبدًا. . فانظرْ يا أخي كَمْ بين العالم والجاهل، والمتواضع والمتكبر، والكاتم لسره والفاضح له. وحسبنا الله ونعم الوكيل. تم الجزء الثاني من الكتاب المضنون به على العامة وعلى غير أهله، وهو الموسوم بـ «التقريب في معرفة سر التركيب».

الأسرار للطغرائي

مخطوطة الأسرار في صناعة الكيمياء

(نسخة دار الكتب المصرية رقم 169)

الورقة الأخيرة من المخطوطة

# الفصل السابع

## (مخطـوطـة صـوفيـــة)

## ((جَلَاءُ الخَاطِرِ فِي البَاطِنِ والظَّاهِرِ))

للجِيلَانِــي

الإمام عبد القادر الجيلانى واحدٌ من كبار الأولياء فى تاريخ الإسلام، حظى بمكانة مرموقة عند معاصريه والمتأخرين عليه، حتى يومنا هذا[1]، وكان ابن تيمية يدعوه: شيخ الإسلام. كان مولد الجيلانى بناحية (جيلان) التى يُنسب إليها، سنة 490 هجرية، وكانت وفاته ببغداد سنة 561 هجرية. وقد ترك مجموعة من المؤلفات، أشهرها كتاب (الغُنية لطالبى طريق الحق) وهو عملٌ لطيف ذو نزعة موسوعية وضعه الإمام، حسبما يقول فى ديباجته: استجابةً لبعض الأصحاب الراغبين فى معرفة الآداب الشرعية من الفرائض والسُنن والهيئات، ومعرفة الصانع عز وجل بالآيات والعلامات، ثم الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية، ومعرفة أخلاق الصالحين[2].

وقد نالت (الغنية) كل الاهتمام، فتناقلها النُّسَّاخ، ثم توالت طبعاتها، فنُشرت فى مصر والسعودية والعراق عدَّة مرات، وتُرجمت إلى التركية على يد سليمان جلبى فى كتاب بعنوان: عمدة الصالحين فى ترجمة غنية الطالبين، وصدرت فى جزأين سنة 1304 هجرية عن المطبعة العثمانية فى اسطنبول. كما صدرت فى بغداد سنة 1988 ميلادية، طبعة محققة من (الغنية) فى ثلاثة مجلدات، قام بها فرج توفيق الوليد.

وللإمام ديوان شعر، جمعناه من مجموعة أصول متفرقة، وأصدرناه محقَّقًا قبل سنوات طوال. والديوان يضم أشعار الإمام ومقالاته الذوقية، وكان ذلك متفرقًا، فجاءت طبعتنا المحققة لتجمعه فى كتاب واحد[3]. وبالإضافة إلى (الغُنية) و(الديوان) كانت للإمام الجيلانى مجالس وعظ وإرشاد وتعليم، ظلَّ مواظبًا عليها

---

(1) بخصوص الإمام عبد القادر الجيلانى، سيرته وترجماته، انظر الفصل السابع والعشرين من هذا الكتاب، حيث نتناول مخطوطة: مختصر غبطة الناظر فى ترجمة الشيخ عبد القادر، لابن حجر العسقلانى.

(2) الإمام الجيلانى: الغنية، ص 48.

(3) صدر الديوان بالقاهرة (مؤسسة أخبار اليوم) سنة 1991.

فترةً طويلة. وقد جُمعت هذه المجالس في ثلاثة مجاميع؛ الأول (فتوح الغيب) ويضم 78 مجلسًا في كتاب واحد، وضع عليه ابن تيمية شرحًا لطيفًا[1]. والثاني يُعرف بعنوان (الفتح الرباني والفيض الرحماني) وفيه نص المجالس التي بدأت يوم الأحد الثالث من شوال سنة 545 هجرية، وانتهت أول رجب سنة 546 هجرية، وهو مطبوعٌ عدة طبعات صدرت عن مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة.

أما المجموع الثالث من مجالس الإمام، فهو المخطوط الذي نتوقَّف عنده الآن. وهو الأثر الوحيد من آثار الإمام الجيلاني، الذي ظلَّ إلى اليوم مخطوطًا لم يُنشر. وهو مجموعٌ تحت عنوان: جلاء الخاطر في الباطن والظاهر. ويبتدئ من المجلس المنعقد يوم الجمعة التاسع من رجب، وينتهي في بعض النسخ، بمجلس يوم الرابع والعشرين من رمضان سنة 546 هجرية.. مما يعني أنه استكمالٌ لما ورد من المجالس في: الفتح الرباني.

وقد ظل (جلاء الخاطر) مخطوطًا، رغم وفرة مخطوطاته التي ذكر بعضها المستشرقُ الألماني كارل بروكلمان، في كتابه: تاريخ الأدب العربي. وتوجد منه، علاوة على ذلك، نسخةٌ خطيةٌ جيدة بمكتبة السليمانية باسطنبول، ونسخةٌ ثانية بمكتبة الحضرة القادرية ببغداد، ونسخةٌ ثالثةٌ بمكتبة جامعة القاهرة. وسوف نعتمد فيما يلي، على النسخة الأخيرة، حيث نقرأ من كلام الإمام[2]:

يا غلام، إيَّاك والحسد فإنه بئس القرين. وهو الذي خرَّب بيت إبليس وأهلكه، وجعله من أهل النار، جعله ملعونَ الحقُّ عزَّ وجلَّ وملائكته وأنبيائه وخلقه. كيف يحسن بالعاقل أن يحسد، وقد سمع قوله تعالى: ﴿قسمنا بينهم معيشتهم﴾ وقوله تعالى ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وقول بعض العلماء: لله در الحسد، ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله. الحاسدُ معادي الله، فلا تنازعوه في فعله في خلقه، فيقصمكم.

---

(1) نشره الدكتور محمد رشاد سالم في: جامع رسائل ابن تيمية (مطبعة المدني – جدة) المجلد الثاني.
(2) الورقة الثانية من: جلاء الخاطر، وما بعدها.

ثم يقول الإمام:

إني زاهدٌ في كلامي، وفيكم، وما في بيوتكم من بضائعكم وأموالكم وهداياكم. فما دمتُ على هذا، تنتفعون بكلامي إن شاء الله. مادام عين المتكلم في عمائمكم وقمصانكم وجيوبكم، لا تنتفعون بكلامه. ما دام يثرد على دخانكم، ويطمع فيكم، لا تنتفعون بكلامه. يكون كلامه قشرًا فارغًا لا لُبَّ فيه (فهو) عظمٌ بلا لحم، مرارةٌ بلا حلاوة، صورٌ بلا معنى. كلامُ الطامع لا يخلو من مداهنة، ولا يمكنه المخالفة. الطامع فارغ، كالطمع، كلها فارغة: الطاء والميم والعين.. فيا عباد الله، اصدقوا، وقد أفلحتم. الصادق لا يرجع، الصادق في توحيد الله تعالى، لا يرجع بقول نفسه وهواه وشيطانه. الصادق في محبة الله عز وجل ورسوله والصالحين من عباده، لا يرجع بقول منافق ممقوت مخذول، الصادق يعرف الصادق، والكاذب يعرف الكاذب.

ثم يخاطب الإمام أهلَ العلم، فيقول:

يا عالم، لو كان عندك ثمرة العلم وبركته، لما سعيتَ إلى باب السلاطين في حظوظ نفسك وشهواتها. العالم لا رجلان له، يسعى بهما إلى أبواب الخلق. والزاهد لا يدان له، يأخذ بهما أموال الناس. والمحب لله لا عينان له، ينظر بهما إلى غيره (تعالى) المحبُّ الصادقُ لو لقى الخلق كلهم، ما حَلاَ له النظر إليهم. لا ينظر إلى غير محبوبه. ولا تكبر في عينى رأسه الدنيا. ولا تكبر في عينيْ قلبه الأُخرى. ولا يكبر في عينىْ سرِّه، غير المولى.. زِعَاقُ المنافق من لسانه ورأسه، وزعاقُ الصادق من قلبه وسرِّه. قلبه على باب ربه عز وجل، وسرُّه داخلٌ عليه، لا يزال يصرخ على الباب حتى يدخل الدار.

ثم يقول الإمام:

أنت كَذَّابٌ والله في جميع أحوالك. ما تعرف الطريق إلى باب الله عَزَّ وجَلَّ، كيف تدلُّ عليه؟ أنت أعمى، كيف تقود غيرك؟ قد أعماك هواك، وطبعك، ومتابعتك لنفسك، ومحبتك لدنياك ورياستك وشهواتك. ويحك، تحبُّ البقاء في الدنيا، وهو شيء لا يقع بيدك. متى تُهدى إلى باب ربك عز وجل ؟ متى تقدَّم

الآخرة على الدنيا؟ متى تُقدِّم الخالق على الخلق؟ متى تُقدِّم الصلاة على دكانك وأرباحك؟ متى تُقدِّم السائل على نفسك ؟ . . أنت في هوس باطل، علانية بلا سر . . تقدَّم إليَّ، ما دامت المعاصي على ظاهرك، قبل أن تصل إلى قلبك فتصير مصرًا، ثم ينتقل الإصرارُ فيصير كُفرًا، تدارك الأمر، احفظ باليسير الكثير، تدارك ما دام الحبل طرفه بيدك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولو عاد في اليوم سبعين مرة.

* * *

وقد كانت كلمات الإمام الجيلاني، سيلًا ربانيًا يغسل القلوب من أدرانها الدنيوية. وآتت مواعظه ثمارها. يقول ابن العماد، وهو يعدد فضائل الإمام: تاب على يده معظم أهل بغداد، وأسلم معظم اليهود والنصارى[1].

(1) ابن العماد: شذرات الذهب (مكتبة القدس، القاهرة 1350 هـ) 199/4.

مخطوطة جلاء الخاطر فى الباطن والظاهر
(مخطوطة جامعة القاهرة رقم 15741/ تصوف)

ركباناً ووردوا عطاشاً، المتقون يحشرون زمراً والمجرمون يساقون سوقاً
رحم الله عبداً ذكر هذا اليوم وزاحم المتقين اليوم حتى يحشر معهم في ذلك اليوم
يا تاركاً التقوى، يوم القيامة يحشر المتقون الى الرحمن وفداً ركباناً والملائكة حولهم
تتصور اعمالهم صوراً، يركبون النجب فيكون نجيبه عمله وخلعته وعمامته
عمله، الاعمال تتصور صوراً مليحة وصوراً قبيحة، مفتاح التقوى التوبة
والثبات عليها مفتاح القرب من الله عز وجل، هي اصل كل خير وفرعه
ولهذا لا يفتر الصالحون عنها في جميع احوالهم، توبوا يا مذنبين يا عصاة
صالحوا ربكم عز وجل بواسطة التوبة، هذا القلب لا يصلح للحق عز وجل
وفيه ذرة من الدنيا وطفل واحد من الخلق، فان اردتم صحبته
فاخرجوا هولاء كلاهما من قلوبكم وهذا لا يعسر كم فانكم اذا اتصلتم
اتتكم الدنيا والخلق وانتم معهم على بابه، هذا شيء مجرب قد جربه
الزاهدون التاركون الورعون، يا غلام عليك باخلاص العمل
لله عز وجل في صلاتك وصيامك وحجك وزكاتك وجميع افعالك،
اتخذ عنده عهداً قبل وصولك اليه، ما هذا العهد توحيداً واخلاصاً
سنة وجماعة صبراً وشكراً وتفويضاً والخلق رفضاً وله طلباً ومن غيره
اعراضاً وعليه اقبالاً بقلبك وسرك، فلا جرم يعطيك في الدنيا
قرباً وفي الكل زهداً وله حباً واليه شوقاً، وفي الآخرة يعطيك
من قربه ونعمه ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر
والسلام

قوله توحيداً بدل من عهداً المنصوب قبله



الورقة الأخيرة من المخطوطة

# الفصل الثامن

## (مخطـوطـة أدبيـة)

## ((جَمْهَرَةُ الإِسْلَامِ ذَاتُ النَّثْرِ والنِّظامِ))

للشَّيْزَرِي

في الفترة التى خضعت فيها البلدانُ العربية والإسلامية، لسيطرة المستعمر الغربى تسربت ذخائرُ التراث العربى المخطوط من بلادنا إلى مكتبات البلاد الاستعمارية، واستقرت نوادر المخطوطات العربية فى مكتبات البلاد الأوروبية إلى اليوم؛ ومن هذه المخطوطات النادرة: جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، للشَّيْزرى.

مؤلِّف هذه المخطوطة، هو أمين الدولة أبو الغنائم مسلم بن محمود الشَّيْزرى[1]. أحد أدباء العرب الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى، ببلاد اليمن[2]. والمخطوطة عبارة عن مختارات أدبية من (النثر) والشعر (النظم) العربى، جمعها الشَّيْزرى وانتقاها من التراث السابق عليه. والقيمة الحقيقية لهذه المخطوطة، تتمثل فى احتفاظها ببعض النصوص والقصائد التى تعدُّ أصولها اليوم ضائعة، أو فى حكم المفقود، ولم نعرفها إلا من خلال هذه: الجمهرة. وكان المستشرقون، لا الباحثون العرب، هم الذين انتبهوا إلى أهمية هذه المخطوطة، التى لا توجد منها نسخةٌ أخرى فى العالم. ونسختها الوحيدة التى سوف نعتمد عليها فيما يأتى، محفوظة اليوم فى مكتبة جامعة ليدن، بهولندا. وتقع فى جزأين.

يقول الشَّيْزرى فى المقدمة: إن الجماهير الأولية دوِّنت وجمعت من أشعار الجاهلية، نظمًا بلا نثر، وقصائد عارية من كل خبرٍ وذكر. وقد جمعتُ بينهما فى هذا الكتاب، من محاسن فنون الآداب، ستة عشر كتابًا. فى كل كتاب عشرةُ أبواب، خمسةٌ نظم وخمسةٌ نثر. فالجميع مائة وستون بابًا، نصفها نظمٌ ونصفها نثرٌ؛ من حديثٍ نبوى وخطبةٍ ورسالةٍ وحكايةٍ من كل نوع. وكلهم إسلاميون

(1) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 298/1، كشف الظنون لحاجى خليفة 1125 معجم المؤلفين لكحالة 233/12 Brockelmann I/460.

(2) ذكر عمر كحالة فى معجمه، أن وفاة الشيزرى كانت سنة 626 هجرية.

مُجيدون محقّقون. . وقد سميته جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، وربما أتى باب النثر من جنس باب النظم فى معناه، فيكون تأكيدًا له وقوةً فى المعنى. وربما أتى بابُ النظم من فن، والنثر من فن آخر، فيكون زيادة فى العدد.

وأول كُتُب الجمهرة فى (المدح) وقد استهلّه الشَّيْزرى بقصيدة الأعشى فى مدح النبى. وهى قصيدةٌ من بحر الطويل، مطلعها:

أَلَمْ تَغْتَمِـــضْ عَيْنَــاكَ لَيْلَــكَ أَرْمَــدا
وَبِــــتَّ كَمَا بَــــاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدا

وراح الشَّيْزرى يورد كُلَّ بيت، ثم يعقّب عليه بشرحٍ مفصل. ليبدأ من بعد ذلك فى ذكر بعض الأخبار النبوية والأحاديث الشريفة فى فضل اسم محمد وأحمد، ويورد مختارات شعرية فى فضل آل البيت والصحابة.

ومن النصوص الطريفة التى وردت بالمخطوطـة تلك الخطبة الشهيرة التى ارتجلها واصلُ بن عطاء، فى مجلس الخليفة عمر بن عبد العزيز. وكان واصل يلثغ فى حرف الراء، فإذا به يتجنب جميع الألفاظ التى يرد فيها هذا الحرف، قائلًا: الحمد لله أهل الحمد. . الذى ملأت كل شىء عظمته، ووسع كل شىء خلقه، ونفذ فى كل شىء علمه، ومضى فى كل شىء حُكمه، فلا يعجزه شىء طلبه، ولاتخفى عليه خافيةٌ. . ومَن اهتدى ألهمه الله هداه، وآتاه تقواه. فاجعل همّك فى الباقى عليك ولك، لا فى الدنيا العزوف عنك، وقَوِّ أمَلَك فى الباقية دون الفانية، وليكن عملك لله لا الناس. . وأوصيكم إخوانى جميعًا، ونفسى، بتقوى الله وحده، و لزوم طاعته والخيفة من عقابه، وتتّقوه حَقَّ تُقاته. . فالله الله، عباد الله، فى أنفسكم. قبل أن لا ينفع نفسًا إيمانُها، ولم تكن آمنت من قبل الندامة. فكم ثَمّ من عينٍ باكية لا ينقطع دمعها، وأذنٍ مصموخةٍ لا يؤوب سمعها، وقدمٍ مسحوبٍ بها، وقلبٍ معلّق بنياطه، ومنادٍ لا يُجاب نداؤه، وداعٍ لا يسمع دعاؤه، وحُجّةٍ لا ينتفع بها أهلها. ثم الخلود إما فى جنات النعيم أو العذاب الأليم الذى جعله الله نكالًا لمن عصى. أعوذ بالله من سخطه، وبعفوه من عقابه. إنه سميع عليم، ذلك أهدى سبيلًا. . وصلى الله على سيدنا

محمد وعلى آله وسلم، وتجاوز عَنَّا وعنكم، وعفا لنا ولكم عما سلف منا ومنكم وجميع المؤمنين، إنه سميع الدعاء. وهى خطبةٌ طويلة، أوردها الشَّيْزرى كاملةً، ولم يرد فيها حرفُ الراء مطلقًا، مثلمَا الأمر فى بقية خطب واصل بن عطاء الأُخرى[1].

وفى كتاب (العتاب) نقرأ هذه القصيدة للحسين بن على بن محمد القُمِّى (من بحر الطويل) وهو يعاتب جَيَّاشًا باليمن :

أَذَاعَ لِسَـــانِى مَـــا تَجِـنُّ الأَضَـــالعُ
وأَعْرَبْـــنَ عَمَّا فِى الضَّمِـــيرِ المَدَامِـــعُ

وَمَـــا أَنَـــا بِالْجَلْـــدِ الفُؤَادِ عَلَى الجَفَا
وإنْ كُنْـــتُ جَلْـــدًا والخُطُوبُ قَوَارِعُ

وقَدْ كُنْـــــتُ أَرْجُـــو أَنْ أَكُونَ مُشَفَّعًا
لَدَيْـــكَ، فَهَـــلْ لِى عِنْدَكَ اليَوْمَ شَافِعُ

فَأَصْبَحْتُ أُغْضِى الطرفَ فِى كُلِّ مَجْلِسٍ
وأَكْتُـــمُ أَمْـــرِى وهْوَ فِى النَّـــاسِ ذَائِعُ

أُسَـــايِرُ مَـــنْ سَايَرْتَ وَالخَطْوُ قَـاصِرٌ
وَأَلحَـــظُ مَنْ لاَحَظْـــتَ وَالطَّرفُ خَاضِعُ

وَأُظْهِـرُ بِشْـــرًا لِلْجَلِيـــسِ وَغِبْـــطَـةً
وبَيْـنَ حَشَـــايَاىَ الشِّـــفَارُ القَـــوَاطِـعُ

---

(1) واصل بن عطاء، هو مؤسس فرقة المعتزلة الشهيرة بمنهجها العقلى فى تناول قضايا العقيدة. يقول الذهبى فى كتابه (سير أعلام النبلاء 464/5 ): واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، رأسا الاعتزال، طرده الحسن (البصرى) عن مجلسه لما قال: الفاسق لا مؤمن ولا كافر. . مات سنة 131 هجرية.
انظر المزيد من ترجمانه فى: معجم الأدباء 243/19، وفيات الأعيان 7/6، شذرات الذهب 182/1. . إلخ.

أُعَلِّلُ نفْسِي كُلَّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ
لأَنْظُرَ فِي الوَقْتَيْنِ مَا أَنْتَ صَانِعُ

وَمَا أَنْتَ إلاَّ البَدْرُ، أَظْلَمَ مَنْزِلِي
وَكُلُّ مَكَانٍ نُورُه فِيهِ سَاطِعُ

أَتَرْضَى وَحَاشَا المَجْدُ أَنْ يَشْبَعَ الوَرَى
جَمِيعًا، وَيُمْسِي ضَيْفُكُمْ وَهْوَ جَائِعُ

ومن الأبيات الشعرية البليغة، فى العتاب، قول أبى بكر محمد المعروف بابن اللبّانة من قصيدة طويلة (من بحر الكامل):

ضَحِكَ الرَّبِيعُ بِحَيْثُ تَبْكِي الأَرْبُعُ
لَمَّا بَكَى لِلْغَيْثِ فِيهَا مَدْمَعُ

وَعَلَى فُرُوعِ الأَيْكِ شَادٍ يَحْتَوِي
طَرَبًا لآخَرَ تَحْتَوِيهِ الأَضْلُعُ

يَا أَيُّهَا البَدْرُ الَّذِي قَدْ كَانَ لِي
حَوْلَيْهِ فِي أُفُقِ السَّعَادَةِ مَطْلَعُ

وَالرَّوْضَةُ الغَنَّاءُ كُنْتُ أَرُودُهَا
وَالْيَوْمَ عَنْ شَمْسِي شَذَاهَا أُمْنَعُ

مَا كَانَ أَرْفَعَ مَوْضِعِي إِذْ كَانَ لِي
فِي جَانِبِ العَلْيَاءِ عِنْدَكَ مَوْضِعُ

أَيَّامَ أَطْلُبُ مَا أَشَاءُ فَيَنْقَضِي
وَزَمَانَ أَدْعُو مَا أَشَاءُ فَأُسْمَعُ

عَهْدٌ مَضَى عَقِبَ الصِّبَا لَكِنَّهُ
عَهْدٌ إِذَا مَا شَاءَ وَصْلُكَ يَرْجِعُ

ولم يفت الشَّيْزرى أن يتوقَّف عند الرجز، فنراه يعقد عشرة أبواب فى الأراجيز التى صاغ فيها علماءُ العرب معارفهم. وفى هذه الأبواب، النصوص الكاملة للآتى: أُرجوزة فى نظائر القرآن للسَّرَّاج، أرجوزة فى الفرائض لابن المتقنة، أُرجوزة للمؤلِّف فى التاريخ، أرجوزة عبد الله بن رؤبة المعروف بالعَجَّاج.. وفى هذا الجزء من المخطوطة، وضع الشَّيْزرى (رسالة أفلاطون فى وصف النساء) وهى حسبما يذكر من ترجمة الحكيم أبى بكر الرازى[1]! ومما جاء فى هذه الرسالة:

اعلمْ أن اعتدال الخلقةِ دليلٌ على صحةٍ فى الطبيعة، وبُعْد عن الآفة واعتدالٍ فى المزاج.. فأما الطويلة جدًّا والقصيرة جدًّا، فليست حالتهما سواءً. فالطويلة جدًّا، التى ليس بها سِمَنٌ، فَتورٌ، ضعيفةُ الشهوة، قليلةُ الولد، بطيئةُ الإنزال. وأما القصيرة جدًّا، التى لا هزال بها ولا سِمَن، فولودٌ.. وأما الحمراء فأشدُّ منها وأقل ماءً، وأما السمراء فمعتدلة.

بعد أن تفصِّل الرسالة هذه الأمور، يضع أفلاطون رأيه فى النساء قائلًا: واعلمْ أن النساء.. الصبرُ عنهنَّ مرفوعٌ والجزعُ عليهنَّ غالبٌ، لسخف العقول وقلَّة التجارب، وقلة النظر فى العواقب. وإنما ساعتهن، هى التى هُنَّ فيها.. والعاقلةُ منهن مخدوعةٌ، فلاطفْها واخدعها. ولا يكون للرجال وصلةٌ إليها، وإن صغر شأنهم وحقر أمرهم. فإن المرأة ليس من شأنها الاختيار، إنما هُنَّ لمن دنا منهن وتلطَّف لهواهُنَّ ؛ إلا مَنْ أدركته منهنَّ عصمةُ التقوى أو استحياءٌ. فاجعلْ أوثق الأشياء، بعد الاستعصام بالله ؛ أن تُخيفها بما تخاف.

(1) هو الطبيب الفيلسوف المشهور، أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (المتوفى سنة 313 هجرية) له فى الطب موسوعة الحاوى، وله فى الفلسفة آراء مهمة.

فإن استطعتَ أن تراه ولا يراها، فافعلْ.. واحذرْ ذوات التجارب من النساء، والبذيئات من الإماء. وعليك بالأبكار العزائز.. وتوخَّ رضاها، وأرها أن هواك هواها. وأنها أثيرةٌ عندك، وأحبُّ إليك من سواها. فإنك إذا فعلت هذا، صفا لك حُبُّها، وتعطَّف عليك قلبُها، والتمستْ هواك، وطلبتْ رضاك. واعلم أن المرأة كالصبى، يُرضيها اليسير.

ولا شك في أن نسبة هذه الرسالة لأفلاطون ليست ثابتة، والأرجح أنها لأحد حكماء اليونان. وبالطبع، فإن الكثير من الآراء الواردة فى الرسالة، يحتاج لمراجعةٍ وإعادة نظر. لكنها فى النهاية لا تخلو من طرافة، وتعبر عن وجهة نظرٍ قديمةٍ فى النساء، ويمكن أيضًا أن تكون معاصرة.

* * *

ثم يعقد الشَّيْزرى عشرة أبواب (فى الشكوى) منها القصائد الخمس التالية: قصيدة كتبها من الحبس، عبدُ الملك بن إدريس الأندلسى إلى ولده. قصيدة للسَّرى الرَّفَّاء، كتبها يشكو سرقة شعره. قصيدة للسُّلمى، يشكو حاله وسقطةً فى سُكره. قصيدة لعمارة اليمنى، يشكو إلى صلاح الدين الأيوبى. قصيدة فى الشكوى، لأبى إسحاق الصابئ[1]. وبين كل قصيدتين، وضع الشَّيْزرى رسالةً نثريةً من روائع أدب الشكوى.

ومن بعد ذلك تقابلنا نصوص (التهانى) الشعرية والنثرية. ثم يختم الشَّيْزرى مخطوطته، بنصوص المُثَلَّث والمخمَّس. والمُثَلَّث فى الشعر، هو الالتزام بحرف الرَّوِى، فى ثلاثة أشطر من بحرٍ عروضى كامل. وهو فى النثر، مراعاة الحرف الأخير، فى ثلاث عبارات متتالية. كما يظهر من قول الإمام على بن أبى طالب، فى إحدى خطبه التى ذكرها الشَّيْزرى: الحمد لله مُبتدئ حقائق الحمد، وأبدى سوابقه، ومستهل طرائقه، وموئل لواحقه. أحمده على مظاهر نعمه، وأثنى عليه لجلاله وكرمه، وأعوذ به من سطواته ونقمه.. إلخ.

---

(1) الصابئ نسبة إلى (الصابئة) وهى فرقة قديمة بجنوب العراق، كانت تعبد الكواكب.

وأما التخميس، فهو يسير على منوال التثليث، ولكن أشطره الشعرية خمسة. وكذلك عباراته المسجوعة، على العدد ذاته.. وفى عصر الشّيزرى والعصور اللاحقة عليه، وحتى وقت قريب شغف الشعراء بتخميس وتثليث القصائد المشهورة، وهناك مالاحصر له من الأمثلة على ذلك، فى كتب الأدب.

وبعد، فها هو مخطوطٌ فريد فى الأدب العربى، لا يزال ينتظر أن تمتد إليه أيدى المحققين، فتنشره على الناس مطبوعًا مضبوطًا محقَّقًا، حتى يمكن أن نتعرف على المزيد من روائع تراثنا العربى، ونقرأ تلك المختارات الأدبية التى جمعها الشّيزرى من التراث الممتد قبله خلال ستة قرون من تاريخ الأدب العربى[1].

---

(1) قام باحث مصرى منذ سنوات، بنيل درجة الماجستير من قسم اللغة العربية بكلية الآداب (جامعة طنطا) عن تحقيق الجزء الأول من مخطوطة الشيزرى. ولم ينشر هذا الجزء المحقق، فيما أعلم حتى الآن. ولا يزال الجزء الثانى من الكتاب، ينتظر التحقيق والنشر والدراسة.
وأثناء المراجعة الأخيرة لهذه الطبعة، رأيتُ نشرةً للكتاب فى عدة أجزاء، ولم يسمح الوقت بالنظر فيها لمعرفة جودة التحقيق ومستوى النشر.

الجزء الأول من جمهرة الإسلام

ذات النثر والنظام

تأليف الشيخ الكاتب ... أبي القاسم مسلم بن محمود الشيزري

الكتاب الأول في المدح

الكتاب الثاني في الغزل

الكتاب الثالث في الأخبار

الكتاب الرابع في الرثاء

الكتاب الخامس في الهجاء

الكتاب السادس في الزهد

الكتاب السابع في العتاب

الكتاب الثامن في المجون

الجزء الأول من المخطوطة

(نسخة ليدن الفريدة)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين

# الكتاب التاسع في الأراجيز

عشرة أبواب [illegible]

قال مؤلف الكتاب مسلم بن محمود الشيزري فقد أودعت هذا الكتاب عشرة أبواب
كل باب منها علم قائم بذاته [illegible] الأول في نظائر القرآن الثاني في
ذكر [illegible] الثالث أرجوزة في علم القراءات [illegible]
المعروف [illegible] الرابع [illegible] في وصف الشتاء
للناشئ [illegible]
[illegible]
السادس [illegible] السابع [illegible]
[illegible] الثامن في منافع [illegible] الكتاب [illegible]
[illegible] التاسع أرجوزة [illegible] في علم اللغة العربية [illegible]
العاشر في [illegible] الرازي وهذا الباب [illegible]
[illegible] والإعانة عليه بما هو منسوب إليه

## الباب الأول في نظائر القرآن

لأبي جعفر بن أحمد السراج القاري

قال مؤلف الكتاب مسلم بن محمود الشيزري حدثنا شيخنا الشريف [illegible]
أبي البركات [illegible] في منزلي [illegible]
[illegible]
[illegible] المعروف بابن [illegible] قال [illegible]
[illegible] السراج القاري [illegible] أرجوزة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
تطير بات [illegible]

الباب الرابع رسالة افلاطون في وصف النسا

ورقة من المخطوطة

(رسالة أفلاطون في وصف النساء)

# الفصل التاسع

## (مخطـوطـة فلكيـة)

## ((الدَّرَجَـاتُ المعْـرُوفَـةُ))

لِبَنِي مُوسَى بن شَاكِر

عنوان هذه المخطوطة المحفوظة بمكتبة نور عثمانية، تحت رقم 2800؛ جاء على الصفحة الأولى منها، كالتالي: كتاب الدُرَجات المعروفة لبنى موسى بن شاكر، فى طبائع البروج، منقولاً من حكماء الهند وكتبهم المصحّحة، ومعرفة المواليد فى درجاتها وطبائع الكواكب السبعة وخواصها، والحكم على ذلك درجة درجة على التمام والكمال.

والكتاب كما نرى، يحمل عنوانًا طويلًا؛ هو بالأحرى بيانٌ لما تشتمل عليه المخطوطة من موضوعات. وهو ليس من تأليف شخص واحد، بل ثلاثة من الإخوة، هم بنو موسى الذين كانوا من أشهر الأُسر العربية فى مجال العلم. فلنتوقف أولًا عند هذه الأسرة العلمية:

عرف التراث العربى العديد من الأسر التى اشتغل أفرادها بالعلم، وكانوا يشكّلون فيما بينهم ما يشبه المدرسة الواحدة. فمنهم أسرة بَخْتَيَشُوع، الذين كان جدهم (جبريل) طبيباً للخلفاء العباسيين، ثم صار أولاده وأحفاده من بعدهم، يمثلون حلقات متصلة من مشاهير الأطباء العرب ببغداد، فى زمانهم. وفى الجانب الآخر من العالم العربى الإسلامى، الأندلس، نجد فى القرن السادس الهجرى أسرةً طبيةً أخرى، هم (بنو زُهْر) الذين اشتغلوا أيضًا بالطب، وكان منهم مشاهير الأطباء فى زمانهم. وفى العراق، فى القرن الثالث الهجرى، كانت هناك جماعة (العِبَاديين) الذين اشتهرت منهم فى مجال الترجمة أسرةُ حنين بن إسحاق، وابنه إسحاق، وابن أُخته حُبيش بن الأعسم. وقد قامت هذه الأسرة أيام خلافة المأمون بنقل ما لا حصر له من التراث العلمى اليونانى إلى اللغة العربية، وكان المأمون يزن لهم كُلَّ كتاب يترجمونه بالذهب، تشجيعًا منه للعلم. وفى مصر، فى القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين، عاشت أسرة (القوصونى) التى امتاز بعض أفرادها بالنبوغ فى مجال الطب، وصار أحدهم (محمد القوصونى) رئيسًا للأطباء بعاصمة الخلافة الإسلامية، الآستانة.

وأما أسرة موسى بن شاكر، فقد تخصصت فى الهندسة وعلم الحيل (الميكانيكا) والمساحة والفلك والفيزياء. وكان رب هذه الأسرة، موسى، المتوفى على أرجح الأقوال سنة 259 هجرية؛ من منجمى المأمون وندمائه. وقيل إنه كان فى بداية أمره قاطعًا للطريق، مغيرًا على القوافل بالليل، ومتظاهرًا بالتقوى وملازمة المسجد فى النهار(1). ويبدو أنه اهتدى على يد الخليفة المأمون، ثم صار من خلصائه. وقد عهد موسى بأولاده الثلاثة إلى المأمون، وأوصاه برعايتهم حين حضره الموت المبكر. فقام المأمون برعاية أبناء موسى بن شاكر: محمد وأحمد والحسن؛ فخرجوا كما تقول المصادر التاريخية(2)، نهايةً فى علومهم، بل صار موسى وبنوه، من رواد الإسهام العربى فى مجال العلوم؛ إذ برعوا فى الأرصاد الفلكية والهندسة. وتركوا مجموعة من المؤلفات والترجمات التى نالت شهرةً كبيرة، منها: كتاب الحيل (مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة)، كتاب حركة الفلك، كتاب الآلات الحربية، كتاب الشكل المدور المستطيل(3). ولهم أيضًا كتاب مشهور، ترجمه جيرارد الكريمونى إلى اللاتينية فى مطلع الحضارة الأوروبية الحديثة، بعنوان: كتاب الإخوة الثلاثة

---

(1) هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص 113.

(2) أسهبت زيجريد هونكه فى كتابها: شمس العرب (الترجمة العربية، ص 111: 211) فى الكلام عن بنى موسى بن شاكر، بأسلوب أدبى شائق. أما عن موسى بن شاكر وأبنائه فى المصادر العربية، فيمكن الرجوع إلى: الفهرست لابن النديم ص 330، أخبار الحكماء للقفطى ص 208.. وقد نقل القفطى كلام ابن النديم، وزاد عليه أشياء فقال: موسى بن شاكر، مقدم فى علم الهندسة، هو وبنوه محمد بن موسى وأحمد أخوه والحسن أخوهما. وكانوا جميعًا متقدمين فى النوع الرياضى وهيئة الأفلاك وحركات النجوم. وكان موسى بن شاكر هذا، مشهورًا فى منجمى المأمون. وكان بنوه الثلاثة أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل. ولهم فى ذلك تأليف عجيبة، تعرف بحيل بنى موسى. وهى شريفة الأغراض، عظيمة الفائدة، مشهورة عند الناس. وهم ممن تناهى فى طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب، وقد أتعبوا نفوسهم فيها، وأنفذوا إلى بلاد الروم مَنْ أخرجها إليهم، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السنى (المكافأة المجزية) فأظهروا عجائب الحكمة.

(3) يقول ابن النديم فى الفهرست: لبنى موسى من الكتب، كتاب فى القرسطون (الميزان ذو العاتق)، كتاب الحيل لأحمد بن موسى، كتاب الشكل المدور المستطيل للحسن بن موسى، كتاب حركة الفلك الأولى مقالة لمحمد، كتاب المخروطات، كتاب ثلث (المثلث) لمحمد، كتاب الشكل الهندسى الذى بيَّن جالينوس أمره لمحمد، كتاب الجزء لمحمد، كتاب بيَّن فيه بطريق تعليمى ومذهب هندسى أنه ليس فى خارج كرة الكواكب الثابتة كرة تاسعة، لأحمد بن موسى، كتاب مساحة فى أولية العالم لمحمد، كتاب المسألة التى ألقاها على (سند بن على) أحمد بن موسى، كتاب على ماهية الكلام لمحمد، كتاب مسائل جرت بين سند وأحمد، كتاب مساحة الأكر، وقسمة الزوايا بثلاثة أقسام متساوية، ووضع مقدار بين مقدارين لتتوالى على قسمة واحدة.. (الفهرست ص 330).

فى الهندسة Trium Fratium de Geometria Liber وقد استخدمته أوروبا مدة طويلة، فأسهم فى تطور الهندسة الأوروبية[1].

وقد حصر المشتغلون بتاريخ العلم بعضًا من إسهامات بنى موسى بن شاكر فى العلوم؛ فكان من تلك الإسهامات: اختراع ساعة نحاسية دقيقة، اختراع تركيب ميكانيكى يسمح للأوعية أن تمتلئ تلقائيًا كلما فرغت، وضع نظرية ارتفاع المياه بالضغط، وهى النظرية التى لا تزال تستخدم حتى اليوم فى عمل النافورات، قياس محيط الأرض بدقة كبيرة، دراسة الأشكال الإهليلجية (الدوائر المتداخلة) وابتكار طرق لرسمها، تأسيس (علم طبقات الجو) لأول مرة فى التاريخ، تطوير (قانون هيرون) لمعرفة مساحة المثلث.. وفى كتب أبناء موسى بن شاكر، وصف دقيق للآلات الموسيقية الذاتية الحركة (الأتوماتيكية) كالناى، ووصفٌ لآلات صائتة تنطلق منها أصواتٌ معينة كلما ارتفع مستوى الماء فى الحقول إلى حد معين. إلى جانب مائة تركيب ميكانيكى من اختراعهم[2].

كما أسهم بنو موسى بن شاكر فى بناء الحضارة العلمية العربية، حين أرسلوا البعثات إلى بلاد الروم لإحضار كتب العلوم اليونانية، وكلفوا النقلة والمترجمين تعريبها، ويقال إنهم كانوا ينفقون على إحضار الكتب وترجمتها العربية خمسمائة دينار كل شهر.



وفى مخطوطة: الدرجات المعروفة، يقدِّم الإخوة الثلاثة نصًّا مهمًّا فى الفلك والرياضة، لم يلتفت إليه الباحثون فى تاريخ العلوم. وهم يبدأون المخطوطة بفقرة مهمة، نصُّها: إن القدماء من أهل اليونانية تسلَّموا علومهم التجريبية من الهند.. ولما نظرنا فى الكتب الموجودة إلى الآن، فى معرفة أحكام النجوم، وجدنا أكثرها حائدًا

(1) د. حسان حلاق: تاريخ العلوم عند العرب، ص 217.
(2) بخصوص الإسهامات العلمية لبنى موسى بن شاكر، راجع :
د. قدرى طوقان: تراث العرب العلمى ص 164.
د. محمد عبد الرحمن مرحبا: الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب ص 368.
د. أحمد عبد الحليم عطية: دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب 271.

عن الصواب، وعن ما سطره أولوهم. ووجدنا لقدمائهم كتبًا قد هجرها المتأخرون، لجهلهم كيفية استعمال ما فيها، وبُعدها عن أذهانهم. فتكلَّفنا التعب الشديد فى نقله إلى لغة العرب، واستعنَّا فى ذلك بأفضل ما وجدناه من الناقلين (المترجمين) فى زماننا، واجتهدنا فى تهذيب العبارة وإصلاحها.

وتكمن أهمية الفقرة السابقة، في تصحيحها للوهم السائد بين الباحثين، والاعتقاد بأن علوم العرب مستفادة كلها من علوم اليونان. لكن واقع الأمر أن العرب والمسلمين استفادوا كثيرًا، من حضارات الشرق (فارس، الهند) إلى جانب العلم اليوناني. واللافت للنظر في هذه الفقرة، أيضًا، أن بنى موسى بن شاكر انتبهوا إلى أن (العلوم التجريبية) بالذات، استفادها اليونانيون أصلًا من العلم الهندى. وهو أمرٌ يتسق مع طبيعة اليونان وفكرها النظرى، وعناية الهنود القدماء بالتطبيقات. ومعروفٌ أن العقلية اليونانية كانت تزدرى العلم التجريبى، وتراه أقل مرتبة من العلوم النظرية والفلسفية، بخلاف العقلية العلمية (الشرقية) التى أسهمت إسهامًا كبيرًا فى تأسيس المنهج التجريبى، بجهودٍ عربية خالصة، قبل أوروبا بقرون طوال.

وفى مقدمة المخطوطة، نكتشف أننا بصدد ثلاثة كتب، وليس كتابًا واحدًا. يقول الإخوة الثلاثة: ووجدنا لهم ثلاثة كتب، أحدها فى طبائع الدرج التى تسمى المتحيِّرة، كالمشترى والزهرة.. وهو هذا الكتاب. والثانى كتابٌ كبير، وهو اثنتا عشرة مقالة فى طبائع الدرج وخواصها، إذا دخلتها الكواكب العظيمة.. ووجدنا هذا الكتاب قد اختلَّ نظمه وتخلَّط وضعه، فأصلحناه إصلاحًا يشهد لنفسه. والكتاب الثالث فى كيفية حال البروج فى درج البروج، مع اتصالات الكواكب المتحيرة (السيارة).. وهذا الكتاب لم نجده كاملًا، وقد نقلنا ما وجدناه منه وأصلحناه.

نحن إذن أمام مخطوطة يحاول مؤلفوها وضع موسوعة فلكية، تهدف لإحياء العلم القديم (الهندى واليونانى) وتقديمه فى صورة منقَّحة محرَّرة من الأخطاء. وهم ينبِّهون القارئ فى بداية الموسوعة إلى أمر دقيق، حين يقولون: متى رأيت قضية من قضايا هذا الكتاب، لم تصح. فاعلم أن الراصد قد أخطأ فى الدرجة، إما

بنفسه أو بآلته التى رصد بها . . وهذا معنى جليلٌ فى نفسه، دقيقٌ فى نيله وإدراكه. وينبغى أن لا تهمله، فإنه هو الصناعة نفسها، وهو الذى يحتاج إلى العلم أولًا، ثم إلى الدربة. . والمقصود بالدربة هنا، هو معناها القديم: التجربة! ومن العبارات المأثورة فى تاريخ العلوم، قول جابر بن حيان: مَنْ كان دربًا، كان عالمًا حقًا.

ولا يخلو الكتاب من آثار علم التنجيم، الذى هو الشِّقُّ الآخر من علم الفلك عند القدماء. إذ كان للفلك عندهم أقسام، الأول هو علم الهيئة، وهو دراسة الأشكال والهيئات الفلكية. والثانى، علم الأرصاد الفلكية وعمل التقاويم والأزياج. والثالث علم التنجيم، وهو الاستدلال بأحوال البروج على وقائع الزمان. ولقد تخلَّص العقل الإنسانى شيئًا فشيئًا من علم التنجيم، وإن كان خلاصًا غير تام! أما الجانب الخاص بهيئة الأفلاك ورصدها، فهو الجانب الذى تطوَّر اليوم تطورًا كبيرًا، وصار من منجزات العلم المعاصر.

وقد توفَّر على دراسة مؤلفات بنى موسى بن شاكر، قديمًا، جماعةٌ من المستشرقين الغربيين، من أمثال دونالد هيل وفيدمان وهونكه، وغيرهم؛ فأكدوا أهمية هذه الأسرة فى تطوُّر العلوم الإنسانية. . أفلا يصحُّ اليوم، أن يتوفَّر بعض الباحثين العرب المعاصرين على بحث هذه الحلقة المُهِمَّة فى تاريخ العلم الإنسانى؟ وألا يجب أن يلتفت المُحَقِّقون العرب المعاصرون إلى كتبهم، فينشروها، أم أنهم ينتظرون محقِّقًا غربيًا يقدِّم لهم تراث أجدادهم؟



كتاب

الدرجات المعروفة ببني موسى بن
شاكر في طبائع البروج منقولا
من حكماء الهند لإبطال المنجمين ومعرفة
المواليد في درجات [illegible] الكواكب
السبعة [illegible] ذلك درجة
درجة إلى التمام بالكمال [illegible] والسلام

صفحة العنوان

(مخطوطة مكتبة نور عثمانية رقم 2800)

الورقة الأولى من المخطوطة

الورقة الأخيرة

# الفصل العاشر
# (مخطـوطـة أدبيـة)

## ((دِيـوَانُ ابْـنِ الصَّبَّـاغِ الجُـذَامِي))

لابْـنِ الصـباغ

صَبٌّ صَبَابَتُهُ شُهُودْ
وقَتْلُهُ فِيكُمْ مُبَاحْ
مُنَاهُ لَو أَسْعَفَ التَّمَنِّى
مِنْ كَاسِرِيهِ، جَبْرُ الجَنَاحْ

* * *

قَدْ فَاقَ فِى وَجْدِهِ الوُجُودا
وَلَجَّ فِى لُجَّةِ الغَرَامْ
فَصَارَ فِى حُبِّهِ فَرِيدَا
وَقَامَ فِيهِ أَعْلَى مَقَامْ
بِنَفْسِهِ جَدَّ أَنْ يَجُودا
فَلَا اعْتِرَاضَ وَلَا مَلَامْ

* * *

دَعُوهُ فَالنَّوْمُ لاَ يُفِيدُ
مَا أَنْ عَلَى مُغْرَمٍ جُنَاحْ
جَنَانُهُ بَاتَ فِيهِ يَجْنِى
فنونَ أَفْنَانِ الافْتِضَاحْ

* * *

لاَ تـبْعِــدُونى فَفِـى الـبُـعَادْ
وَالـصَّــدُّ مَــا يَـصْـدَعُ الـفُــؤَادْ
بـِكُــمْ وَحَــقِّ الـهَـوَى أُنَـــادْ
إِذْ لَـيْــسَ لِـى غَـيْـرُكُـمْ مُــرَادْ
وَلْـهَـــانُ أَشْـكُـــو بِـكُـلِّ وَادْ
مُـضْـنَــاكُـمْ بِــالْـبُـعَــادِ بَــادْ

* * *

لَــوْ مَــا عُــدْتُ بِالمنى السُّعُود
مَــا كَـــانَ لِــى عَـنْـكُـمْ بَـــرَاحْ
لَـكِـنْ مَـــا شِـئْـتُـمُـوهُ مِنِّى
هُـــوَ الـمــنى وَالاقْـتِـــرَاحْ
أَنْـفَـــاسُ رَيْـحَـانِـــهِ ارتـيَـــاحْ
نُمَّــتْ بِمَــا بِــى مِــنَ الــولــوعْ
قَـدْ حَــانَ فِـى حَيِّـكَ افْـتِـضَاحْ
وَخَـــدَّدَتْ خَـــدِّىَ الــدُّمُـــوعْ
فَيَا لِـسَـكْــرَانَ فِـيـكَ صَـــاحْ
أَشْــوَاقُـــهُ تُـلْـهِـبُ الـضُّـلُـوعْ

* * *

وَلاَ وُصُـــــــــولٌ وَلاَ وُرُود
يُـعِـيــدُ لَـيْـلِـى بِـكُـمْ صَـبَـاحْ

يا صَاحِ دَعْنِي وَخَلِّ عَنِّي
فَلَسْتُ أُصغي لِقَوْلِ لاَحْ

* * *

يَا حسْرتا قَدْ مَضَى وَوَلَّى
عُمْرى وَمَا مِنْكُمُ نَصِيبْ
أورثني الهَجْرُ مِنْكَ خَبْلا
فَصِرْتُ أُدْعَى وَلاَ أُجِيبْ
أَهْلًا بِذَاك السَّقَام أَهْلا
إذْ أَنْتَ يَا مُمْرِضِي الطَّبِيبْ

* * *

عُودُوا بِطيبِ الوِصَالِ عُودوا
فَلِي إِلَى ذَلِكَ ارتياحْ
(ولعل) قُرباً مِنْك يُدْنِي
مَنْ مَاتَ نُحِيِيه بانْشِراحْ

* * *

أَنَا بِمَا تَرْتَضِيهِ رَاضِ
إنْ كُنْتَ لِي العَوْنَ والرِّضى
فَإنْ تكُن فِي الجَمَالِ قَاضِ
فالكُفْرُ بِمَا شِئتَ فِي القَضَا

وَهَــــبْ لِـرَاجِـيـك كُـلَّ مَـاضٍ
فَــــلا يُـعَــــادُ الَّـــــذِى مَـضَـى

* * *

يَــا صَــاحِ قَــدْ جُــدِّدَتْ عُهـود
الوَصْــلِ تقــضَّـــى بالاصْــطِبَــاحْ
فَــــارْشُــفْ كُـــؤوسَ المُــنـى وغَـــنِّ
حَــيَّ عَـلَـى الـشُّـرْبِ يـا مِـــلاحْ

* * *

هذه الموشّحاتُ الرقيقة، لطيفةُ المعنى واللفظ. هي من شعر ابن الصَّبَّاغ الجُذَامي الأندلسي، صاحب الديوان المخطوط الذى نتوقّف عنده فيما يلى، لإلقاء بعض الضوء عليه وعلى مؤلفه.

اندرس كثيرٌ من آثار العرب فى الأندلس، وانطمس ذكره. ومن الكثير الذى اندرس وانطمس، سيرة الشاعر ابن الصَّبَّاغ الجذامي، صاحب هذا الديوان. حتى أننا اليوم لا نكاد نعرف عنه إلا أقل القليل. ولولا بقاءُ نسخةٍ مخطوطةٍ (وحيدةٍ) من ديوانه، بالإضافة إلى بعض أشعاره وأزجاله الواردة فى كتاب: أزهار الرياض، للمقرى؛ ما كُنَّا فى أيامنا هذه، قد عرفنا اسمه.

عاش أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى، فى الحقبة الأخيرة من دولة الموحِّدين، أيام الخليفة المرتضى، المقتول سنة 665 هجرية، على يد أعوان (أبى دبوس) الذى حَلَّ محله، وأعطى نفسه لقب: الواثق بالله. وهى ثقةٌ لم تدم طويلًا؛ إذ انطوت فى أيام أبى دبوس هذا، آخر صفحة من دولة الموحِّدين ! وقد وردت الإشارة إلى عصر ابن الصباغ، فى مقدمة ديوانه المخطوط، حيث يقول جامعه: لما تَمَّ اعتلاء سيدنا الخليفة المرتضى، حرَّكنى نسيمٌ لأن أجعل أهم وسائلى وأنجح أمورى؛ نقل شعر الشيخ الفقيه الصالح، أبى عبد الله محمد بن أحمد بن

الصبّاغ الجذامى، شرح الله تعالى صدره ونوّر بالصفاء فكره.. وكان جامع الديوان هذا، معاصرًا لابن الصباغ ؛ فهو يقول فى المقدمة:

وجميع ما رسمته في هذا الديوان، من نظامه. وما جمعته فيه، من حسن كلامه. فقد عهدته مرارًا بقراءتي عليه في مواطن جمة، وسمعته أيضًا منه بقراءته، وأملاه عليّ في أوراق منثورة.

والمخطوطة الوحيدة من ديوان ابن الصباغ محفوظة اليوم فى الخزانة الملكية المغربية بالرباط تحت رقم 109، وهى تقع فى 200 ورقة تقريبًا، مكتوبة بخط أندلسى[1]. والمخطوطة تبدأ بقصيدة فى مدح النبى ﷺ يقول البيت الأول منها :

أَذْكَتْ بِإِحْنَاءِ الضُّلُوعِ أُوَارا
وُرْقٌ تُرَجِّعُ شَدْوَهَا أَسْحَارا

وفى الديوان كثيرٌ من المدائح النبوية الرقيقة، المنظومة على بحور الشعر الستة عشر. وفيه عديدٌ من المقاطع الزجلية، والموشحات الأندلسية، والمُكَفِّرَات.. وكلمة (مُكفِّرَات) واحدة من مصطلحات التوشيح، يشرحها لنا ابن سناء الملك، بقوله: الموشحات يُعمل فيها ما يعمل فى أنواع الشعر، من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد. وما كان منها في الزهد، يقال له: المُكَفِّر، ولا يُعمل إلا على وزن موشّح معروف[2].. فهى نوعٌ من الإنابة إلى الله، والتكفير عن أبيات يكون الشاعر قد ألّفها فى زمن اللهو، فيتوب منها ويستغفر ربه بقصائد المكفرّات، أى يستغفر بالشعر عن الشعر! ومن مكفرات ابن الصباغ، ما أوردناه من موشّحات، في بداية هذا الفصل. ومنها أيضًا تلك الموشحة، التى يكفّر فيها عن كل بيت، بثلاثة أشطر يضيفها إليه، على النحو التالى:

---

(1) كان للدكتور محمد زكريا عنانى، فضل توجيه نظرى إلى هذه المخطوطة الفريدة، كما تفضل مشكورًا بتصويرها لى.

(2) ابن سناء الملك: دار الطراز فى عمل الموشحات، تحقيق د. جودت الركابى (دمشق 1949) ص 38.

شَجْوُ الوُرْقِ فِي الأَفْنَانِ غَدَاةَ النَّوى أَفْنَانِي

أَيَا نَائِحَ الأَفْنَانِ

بُكَاؤُكَ قَدْ أَشْجَانِي

وَسَهْمُ النَّوَى أَضْنَانِي

وَتَفْنَى وَكُلٌّ فَانٍ مُحَالٌ يَبْقَى إِلْفَانِ

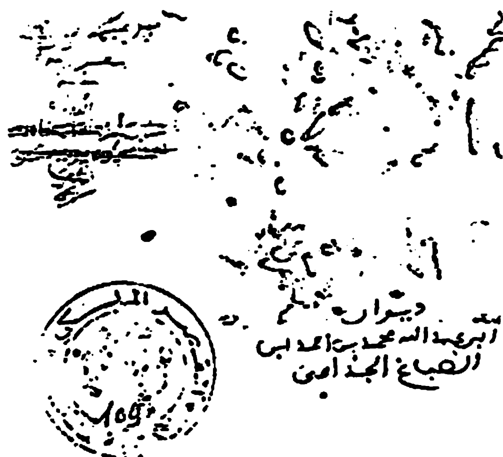
كَفْكِفْ دَمْعَكَ المَطْلُولاَ

وَاتْرُكْ نَدْبَكَ الطُّلُولاَ

وَزُرْ أَحْمَدَ الرَّسُولاَ

ولا يزال ديوان ابن الصباغ مخطوطًا، وقد حقق الدكتور أحمد السنوسي بعض أشعاره، ولكنها لم تصدر بعد. أما موشحات الديوان، فقد نشر بعضها د. محمد زكريا عناني[1]، تمهيدًا لإصدار الديوان كله في طبعة محققة تحقيقًا علميًا رصينًا.. وها نحن ننتظر.

(1) د. محمد زكريا عناني: ديوان الموشحات الأندلسية (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ) ص 149 وما بعدها. وقد أصدرت ديوان ابن الصباغ، ضمن سلسلة (تراثنا) التي كنت مشرفا عليها، وكانت (دار الأمين) بالقاهرة، تصدر كتبها.




عنوان الديوان
(مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط)

[illegible]

الصفحة الأولى

# الفصل الحادى عشر

## (مخطوطة كيميائية)

# دِيوان فِرْدَوْسِ الحِكْمَةِ

### لخَالِد بن يَزِيد

من أغرب الشخصيات فى التاريخ العربى الإسلامى، شخصيةُ الأمير الأُموى: خالد بن يزيد. وتأتى غرابة شخصيته من تضارب الروايات التاريخية حول تفاصيل حياته، وترشيحه لخلافة المسلمين، واشتغاله بالكيمياء فى هذا الوقت المبكر من تاريخ الحضارة الإسلامية.

هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، الأمير الأُموى القُرَشى. لم يحدِّد المؤرِّخون مولده بدقة، واختلفوا فى تحديد سنة وفاته، فجعلوها بين سنتى 82، 90 هجرية[1]. ولكنهم اتفقوا فى الثناء عليه، فذكر الذهبى عنه أقوالًا عدةً، تصفه بأنه: كان موصوفًا بالعلم، من صالحى القوم، يصوم الأعياد[2]، أجاز شاعرًا بمائة ألف درهم لقوله فيه:

سَأَلْتُ النَّدَى والجُودَ: حُرَّانِ أَنْتُمَا؟
فَقَالا جَمِيعًا: إِنَّنَا لَعَبِيدْ
فَقُلْتُ: فَمَنْ مَوْلَاكُما؟ فَتَطَاوَلا
عَلَىَّ وَقَالَا: خَالِدُ بنُ يَزِيدْ[3]

وذكر عنه الجاحظ أنه كان: خطيبًا، شاعرًا، فصيحًا، جيد الرأى، كثير

(1) انظر ترجمته فى: الفهرست لابن النديم ص 419، التاريخ الكبير لابن عساكر 116/5، وفيات الأعيان لابن خلكان 210/1، معجم الأدباء لياقوت الحموى 35/11، معجم المؤلفين لكحالة 98/4، البداية والنهاية لابن كثير 236/8، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى 221/1.. وغيرها.
(2) يقصد، أيام الجمعة والسبت والأحد. لأنها أعياد الأسبوع عند أهل الديانات الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام.
(3) الذهبى: سير أعلام النبلاء 382/4.

الأدب[1]. وفي كتاب الأغاني، نراه موصوفًا بكونه: من أكثر رجال قريش سخاءً وفصاحة[2]. كما اتفق المؤرخون على أن خالد بن يزيد، كان أول مَنْ ترجم كتب اليونان إلى اللغة العربية، وأنه اشتغل بالكيمياء، ووضع فيها بعض المؤلفات[3]. وقبل الحديث عن كيمياء خالد بن يزيد، نتوقف عند اثنتين من محاوراته روتهما عنه كتب التاريخ؛ لنتعرف إلى شيء من أخبار هذا الأمير الغامض:

**الحوارُ الأول**، جرى بين خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان. فقد كان خالد مرشَّحًا لتولِّي الخلافة، بعد وفاة أخيه معاوية بن يزيد. لكن عبد الملك قفز على الأمر، فتولَّى الخلافة، وتزوَّجَ أم خالد. فكان بين الرجلين ما كان، ومنه هذا الحوار الذي دار بينهما، يوم هدَّده عبد الملك بن مروان بالحرمان، فرد عليه خالد بقوله: أتهددني ويد الله فوقك مانعة، وعطاؤه دونك مبذول؟ قال له عبد الملك: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة (الآية) فقال خالد: وإذا أردنا أن نهلك قرية، أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا (الآية).. وعلى هذا النحو، كانت تدور الحوارات التي جرت بين الرجلين. ولم يتورَّع فيها عبد الملك بن مروان، عن الإشارة إلى أنه يُضاجع أم خالد، مما كان يكسر نفس الأخير. فقد احتد النقاش مرة بين خالد وعبد الملك بن مروان، فقال له الأخير: أتخالفني يا ابن الواسعة! فانسحب خالد من المجلس، ولما جاءته أمه تطيِّب خاطره، قال لها: لقد قال شيئًا هو أعلم مني به. ومع ذلك كان عبد الملك، في بعض الأحيان، يستجيب لأقوال خالد ويمرِّر حوارهما من دون صدام وتعيير. وأعتقد أن هذه العلاقة بين الرجلين في حاجة لدراسة تاريخية نفسية، تكشف لنا عن صفحة مهمة من صفحات تاريخنا الثقافي والسياسي.

أما **الحوار الثاني** فهو ما يرويه الخطيب البغدادي على لسان خالد نفسه، إذ يقول: كانت لي حاجة بالجزيرة، فخرجت إليها مستخفيًا، فبينما أسير بين أظهرهم،

---

(1) الجاحظ: البيان والتبيين (القاهرة 1367 هـ) 328/1.
(2) الأصفهاني: الأغاني (طبعة بولاق) 88/16.
(3) ابن النديم: الفهرست ص 419.

إذ أنا بشمامسة ورهبان. فقلت لهم: ما جمعكم هنا؟ فقالوا: إن شيخًا سَيَّاحًا نلقاه فى كل يوم مرة، فى مكانك هذا، فنعرض عليه ديننا، وننتهى منه إلى رأيه.. فقال خالد فى نفسه، إنه مَعْنِىٌّ بالحديث النبوى، ولعله إن استمع إلى هذا الشيخ، فقد يستفيد منه شيئًا، ولن يلحق به ضرر. فلما جاء هذا الشيخ النصرانى، قال لخالد: إنك لست من هؤلاء الرهبان، فأنت من أمة محمد. فقال: نعم. قال: من علمائهم أو من جهالهم؟ قال: لست من علمائهم أو من جُهَّالهم. قال: ألستم تزعمون فى كتابكم (القرآن الكريم) أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون! فقال خالد: إن لهذا مثلًا فى الدنيا. فقال: فما هو؟ قال: الصبى فى بطن أمه، يأتيه بالرزق الرحمنُ بكرةً وعشياً، ولا يبول ولا يتغوط.. هنا عرف الرجل أنه يحاور عالما ذا عقل راجح، فقال له: ألم تزعم بأنك لست من علمائهم؟ فتواضع خالد مؤكّدًا: بلى، ما أنا من علمائهم ولا من جهالهم[1].



ونأتى لمسألة اشتغال خالد بالكيمياء، حيث كان خالد بن يزيد له فضلٌ كبير على الحضارة الإسلامية، حين ابتدأ حركة الترجمة، أو أسهم مبكرًا فيها، باهتمامه بنقل كتب الطب والكيمياء من اليونانية إلى العربية. فقد كان خالد، وأمثاله من رواد الحضارة العربية الإسلامية، على وعى بأهمية العلم كتراث إنسانى. فأقبلوا على ترجمة العلم اليونانى السابق عليهم، وأتاحوا بذلك الفرصة أمام استكمال العرب لمسيرة العلم الإنسانى. والمهم هنا أن خالدًا وأمثاله من الحكام والأمراء الذين عُنوا بالترجمة لم يُقبلوا على كتب الأدب والفن اليونانى، بل اهتموا بتراث اليونان العلمى (الهندسة والفلك والميكانيكا والصيدلة والطب والكيمياء) فاهتموا بما يهمهم، وبما يخصُّ الإنسان على إطلاقه، لا اليونان خصوصًا. وكذلك كان الأمر فى تعاملهم الرشيد مع التراث الهندى القديم. فقد نقلوا عن الهند علوم الرياضة والطب، وتركوا لها الفنون والآداب. لأنها تخصُّ الهند بالذات. ومع ذلك، فنحن المعاصرين لا نعى هذا الدرس! ولازلنا منذ مطلع نهضتنا الحديثة نترجم عن الغرب

(1) د. فاضل الطائى: أعلام العرب فى الكيمياء ص 19.

الأدبَ والفنَّ والفلسفةَ، ولا نهتم بالعلوم. ونكتفى باستيراد التكنولوجيا والتطبيقات العلمية، دون محاولة التعرف إلى أسرارها.. وتلك على أى حال، قصةٌ أخرى خصصنا لها فصلًا فى كتابنا (المتواليات، بحوث فى المتصل التراثى/ المعاصر) فلنعد إلى خالد ومسألة الكيمياء.

يؤكد معظم المؤرخين أن خالدًا اشتغل بالكيمياء. ويقرر بعضهم أنه وضع فى ذلك عدة مؤلفات، لكن بعض كبار المؤرِّخين كالذهبى، يُنكر هذا الأمر. فى حين يرى الدارسون المعاصرون، والمستشرقون، أن تلك المؤلفات منسوبة إلى خالد بطريق الخطأ، أو هى من تأليف بعض المتأخرين عنه. غير أن مؤلفيها نسبوها إليه لتزداد قيمتها. ولا تزال هذه القضية بحاجة إلى دراسةٍ وتمحيص، وفحصٍ لهذه المؤلفات، ونقدها نقدًا علميًا دقيقًا، للحكم فى صحة نسبتها إليه.

وعن خالد بن يزيد ومؤلفاته يقول ابن النديم: الذى عنى بإخراج كتب القدماء فى الصنعة (الكيمياء) خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خطيبًا شاعرًا فصيحًا حازمًا ذا رأى. وهو أول مَنْ تُرْجِمَ له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء، وكان جوادًا (يقصد، فى الإنفاق على المترجمين) يقال إنه قيل له: لقد فعلت أكثر شُغلك فى طلب الصنعة (أى تحويل المعادن إلى الذهب والفضة) فقال خالد: ما أُطلب بذلك إلا أن أُغنى أصحابى وإخوانى، إنى طمعتُ فى الخلافة فاختُزلتْ دونى، فلم أجد منها عوضًا إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أُحوجُ أحدًا عرفنى يومًا أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبةً أو رهبةً. ويقال، والله أعلم، إنه صَحَّ له عمل الصناعة، وله فى ذلك عدة كتب ورسائل. وله شعرٌ كثير فى هذا المعنى، رأيت منه نحو خمسمائة ورقة. ورأيت من كتبه: كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير، كتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة[1].

ويعدُّ شعر خالد بن يزيد فى الصنعة، من أثبت مؤلفاته إليه وأصحها نسبةً له، نظرًا لقربها من عصره. وقد جُمع هذا الشعر فى ديوان، مخطوط، على ترتيب

---

(1) ابن النديم: الفهرست، ص 419.

القوافي، وفقًا للأبجدية. وجاء في مقدمته ما يلي: أعمد إلى تصنيف ديوان، أُفَهِّمُ به جماعةً من طلبة هذا العلم. ونحن نبتدئ بعون الله تعالى ونبيِّنه، ونكتب أشعاره. لأنه لم يسبقه سابقٌ ولا يتقدمه متقدمٌ، إلا كان مقصِّرًا عنه. لأنه لمْ يَسْلُكَ أقاويلهم ونظمها، وأتى بأمثالهم وأخبارهم، وفسَّر أرمازهم وشرح ألغازهم بأحسن لفظ وعبارة. وبالله التوفيق.

ويبدو أن جامع الديوان هو (غالب) خادم خالد بن يزيد. ففي مخطوطة الديوان، المحفوظة حاليًا بمكتبة كوبريلي زاده بإسطنبول، تحت عنوان: ديوان فردوس الحكمة لخالد بن يزيد (ورقمها هناك 924) جاء في المقدمة:

الحمد لله الذي بحمده نحمده.. وبعد فإني لم أزل بحمد الله، مُذ سَمَت همتي بالعلم، وعلقت نفسي بالفهم.. جمع ديوان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية.. وما جرى بينه وبين مُرْيانُس الراهب، وهو مما نسخته من كتاب غالب مولى خالد، وهو خادمه وأمينه وثقته.

ويقع الديوان في نسخة كوبريلي زاده، في 96 ورقة، الورقة صفحتان. وهو مكتوب سنة 1037 هجرية، بيد الشيخ محمد الميقاتي.. أما (مريانس) المذكور في مقدمة المخطوطة، فهو الراهب مارينوس السكندري، تلميذ الكيميائي السكندري الشهير: إسطفانوس. وقد كان مارينوس هذا، ناسكًا معتزلًا الناسَ في مدينة القدس. وحين سمع بأن خالد بن يزيد شغوفٌ بالكيمياء، ذهب إليه فوجده يصبو إلى صناعة الذهب بالذات! ويقال إن مارينوس نجح أمام خالد، في تحويل بعض المعادن إلى ذهب؛ وبعدها اختفى مارينوس[1].

وتبدأ مخطوطات الديوان، بأرجوزة همزية فيها الكثير من الرموز التي لا يعرف دلالتها غير المشتغلين بالكيمياء السحرية، في ذاك الزمان البعيد. تقول الأبيات الأولى الواردة في الديوان (من بحر الكامل):

(1) د/ غالب الطائي: أعلام العرب في الكيمياء ص 29.

يَـــا طَـــالِبًا بُـوريطسَ الحُكَماءِ

يَـا مُـنْطِـقًـا حَـقًّـا بِـغَـيـرِ خَـفَـاءِ

هُوَ زِئْبَقُ الشَّرْقِ الَّـذى هَتَفُوا بِهِ

فِـى كُتْبِهِم مِـنْ جُمْلَةِ الأَشْـيَـاءِ

سَمُّـوْهُ زَهْـرًا فِـى خَـفَـاءِ رُمـوزِهِـمْ

والجِـنُّ شُـغْـلاً أَغْـمَـضُ الأَسْمَـــاءِ

وَدَعُـوهُ أَنَّ الـنَّـارَ كَيْما يَصْدُفُوا

عَـنْ صَبْغِهِ بُخْـلاً عَـن الـبُـعَـدَاءِ

فَـإِذَا أَرَدْتَ مِثَالَهُ فَـاعْمِدْ إِلَى

جِسْـمِ النُّحَاسِ ونَـارِهِ الصَّفراءِ

فَامْزِجْهُمَا مَـزْجَ امْـرِءٍ ذِى حِكْمَةٍ

واحْـكِـمْ مُـزَاوَجَـــةَ الـهَـوا بِـالْمَـاءِ

واسْـحَـقْ مُرَكَّبكَ الـذِى أَزْوَجْـتَـهُ

حَـتَّـى تَـــرَاهُ كَـزُبْـــدَةٍ بَـيْـضَـاءِ

سَـحْـقًا يُفَتِّتُـــهُ ويَـهْتِـكُ جِسْمَهُ

مِـنْ بَــدءِ إِصْـبَـاحٍ إِلـى الإِمْـسَـاءِ

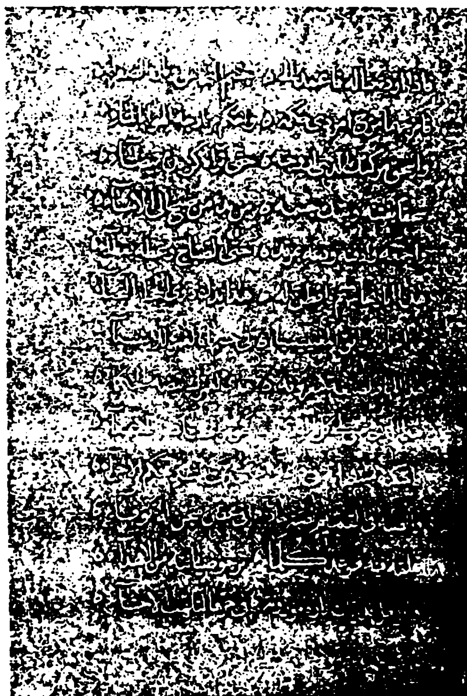
وَاجْمَعْه وَادْفِـنْـــهُ ودَعْـهُ بِمَرْقَـدٍ

حَتَـــى الصَّـبَـــاحِ وغَطِّـهِ بِغِطَاءِ

هَـــذَا خِـــمَارُ زَوَابِـــقِ المغنيسيـا

فِى جِسْـــمِهَا بِالغَـــمْرِ للأَشْـيَـاءِ

مخطوطة ديوان فردوس الحكمة
(القصيدة الأولى)



الورقة الثانية

# الفصل الثانى عشر

## (مخطــوطــة تــاريخيــة)

# الرَّوْضُ المغَرَّسُ فى فَضَائِل بَيْتِ المَقْدِس

للحُسَيْنِى

لمدينة القدس أسماءٌ كثيرة عُرفت بها خلال تاريخها الدرامى الطويل: أوروشاليم، أوروساليم، أورشليم، إيليا، القدس، بيت المقدس .. ويشار إليها أيضًا، بمدينة السلام! مع أنها لم تعرف السلام كثيرًا، لوقوعها دومًا فى قلب الصراع بين العرب الكنعانيين واليهود الوافدين عليهم، وبين اليهود الذين زعموا أن الرب وهبها لهم والمسيحيين الذين يرونها أرضًا مقدسة لهم، وبين المسلمين الذين ملكوا المدينة منذ بدء انتشار الإسلام والصليبيين الذين زحفوا إليها من البلاد الأوروبية إبّان العصور الوسطى، وبين الإسرائيليين المعاصرين وجيرانهم العرب المسلمين، وبين جيش إسرائيل الذى لايُقهر على ماكانوا يزعمون، وأطفال الحجارة الذين هبوا فى انتفاضة تتحدى الدبابات بالحصى.. وبين المصالح الدولية المتضاربة فى أيامنا هذه الكئيبة .

وللمدينة تاريخٌ إسلامىٌ يمتد من المعاهدة (العمرية) التى أبرمها الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، إلى معاهدة (أوسلو) للسلام التى أبرمتها أطرافٌ معاصرة لاتحترمها، ولا يحترم بعضهم بعضًا. وبحسب ما تدل عليه الشواهد التاريخية، فإن (مدينة السلام) لن تعرف السلام فى المستقبل القريب ولا البعيد، فاليهود يسعون لجعلها عاصمة أبدية لإسرائيل، والفلسطينيون يريدونها عاصمة أبدية لبلادهم المسلوبة. ولسوف تبقى المدينة لذلك عاصمة أبدية للنزاع، وللبكاء على المسجد الأقصى الأسير، والنحيب على كنيسة القيامة المجيدة، والحلم المستحيل لبناء هيكل سليمان من جديد .

ومن ألطف البحوث التراثية التى نُشرت مؤخرًا، كتابُ د. كامل جميل العسيلى، الذى صدر فى الأردن بعنوان : مخطوطات فضائل بيت المقدس.

ويضم هذا الكتاب دراسةً بيبليوجرافية مفصّلة عن النسخ الخطية التى تناولت فضائل القدس، مع مقدمة جاء فيها: إن مكانة بيت المقدس فى الإسلام تستند إلى مرتكزات ثلاثة رئيسية: الأول أن بيت المقدس هو البيت الذى بنته الأنبياء وعمَّرته، والدينُ الإسلامى جاء مصدِّقًا لنبوة الأنبياء الذين سبقوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، والذين عاش أكثرهم فى بيت المقدس وما حوله.. والثانى أن بيت المقدس هو القبلة الأولى التى اتجه إليها المسلمون بالصلاة، قبل أن يأمرهم الله بالتوجه نحو الكعبة.. والثالث أن بيت المقدس هو المكان الذى أُسرِى بمحمد صلى الله عليه وسلم إليه، ومنه كان معراجه[1].

ثم يعرض الكتاب لقرابة خمسين مخطوطة، ألفها العلماء على مدار قرون الإسلام. كصدى لاهتمام المسلمين بهذه المدينة، التى كانت دومًا مطمعًا لأهل الديانات، كُلٌّ منهم يودُّ الاستئثار بها.

ومجموعة المؤلفات العربية المفردة، فى فضائل بيت المقدس، كتبها كبارُ العلماء المسلمين. وهناك ثلاثة مؤلفات منها مجهولة المؤلف، لم يُستدل على أصحابها! وقد طُبع عددٌ محدودٌ جدًّا من هذه الكتب الخمسين، وأغلبها لا يزال إلى اليوم مخطوطا لم ينشر؛ فمن ذلك كتاب: الروض المغرس فى فضائل بيت المقدس، لتاج الدين عبد الوهاب بن عمر الحسينى.

يحدثنا السخاوى فى (الضوء اللامع) عن مؤلف هذه المخطوطة، الحسينى، فيقول إنه تاجُ الدين عبد الوهاب بن عمر بن الحسين بن محمد الحسينى الدمشقى الشافعى. ولد بعد سنة 800 هجرية بدمشق، وتوفى بمكة يوم الأحد، الثانى من جمادى الأولى سنة 875 هجرية، ودفن بالمعلاة[2].

ويبدو أن الشيخ عبد الوهاب الحسينى، كان من أسرة معروفة بالعلم والفضل. فالسخاوى يذكر أنه ابن أخت (قوام الدين) قاضى الحنفية بالشام، وابن (عمر

(1) د. العسيلى: مخطوطات فضائل بيت المقدس (عمان 1988) ص 15.
(2) السخاوى: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (مكتبة الحياة، بيروت) 106/5.

الشهاب) الحافظ. وأن أسرته من الأشراف الذين يرجع نسبهم إلى شهيد كربلاء الحسين بن على بن أبى طالب، ومن هنا جاء لقب: الحسينى.

وبين أفراد هذه الأسرة الشريفة، نشأ مؤلف المخطوطة (عبد الوهاب الحسينى) نشأةً دينية علمية. فبدأ بحفظ القرآن، ثم درس الفقه على يد علاء الدين بن سلام، وتقى الدين بن قاضى شُهبة. كما درس الفرائض على الشيخ الحوارى. ونزل القاهرة، فاستكمل دراسته لعلوم الدين على يد الشيخ القاياتى، وزامل السخاوى فى درسه على يد الحافظ المؤرِّخ، ابن حجر العسقلانى.

وعاد الشيخ عبد الوهاب إلى الشام، فقام بالتدريس فى المدرسة الأتَابكية. وتولِّى القضاء، وعهدوا إليه بالأوقاف. وقد ظل يتلطَّف، حسبما يقول السخاوى، لإعفائه من الإشراف على الأوقاف. حتى أُعفى وعفى، وانتهى إلى الانقطاع عن الناس للعبادة والتلاوة فى بيته بصالحية دمشق. وقد ترك مجموعةً من المؤلفات، منها: أوضح المسالك إلى معلم المناسك، الروض المغرس فى فضائل بيت المقدس.



تبدأ مخطوطة الروض المغرِّس، بمقدمةٍ يذكر فيها المؤلف مجموعة المصادر والمراجع التى اعتمد عليها فى كتابه، مثل: فضائل بيت المقدس لابن الجوزى، الجامع المستقصى فى فضائل المسجد الأقصى لابن عساكر، الأنس فى فضائل القدس للقاضى أمين الدين بن هبة الله، باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس لبرهان الدين الفزارى، إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى، تسهيل المقاصد لزوار المساجد للأقفهسى، فضائل الشام ودمشق لأبى الحسن بن شجاع الربعى، مُثير الغرام إلى زيارة الخليل عليه السلام للتدمرى، مسائل الأنس فى تهذيب الوارد إلى القدس لصلاح الدين العلائى.

ومن ناحية أخرى، اعتمد السيوطى فى كتابه الشهير (إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى) على كتاب الروض المغرَّس، وأثنى على مؤلفه قائلاً: ولقد أغنانى

بفوائده التى أهداها، عن الافتقار إلى الاطلاع على ما لأهل الصدر الأول، فمن بعدهم، من الكلام.

وتتوالى فصول (الروض المغرس) لتعرض من خلال سبعة وثلاثين فصلاً، الموضوعات التالية: أسماء المسجد الأقصى، وضع المسجد الأقصى، بناء داود عليه السلام، بناء سليمان، فضل بيت المقدس، شد الرحال إليه، فضل زيارته، فضل الصلاة فيه، تضاعف الحسنات والسيئات فيه، فضل الصدقة فيه، فضل الصيام فيه، فضل الأذان فيه، فضل الصخرة، ذكر الماء الذى يخرج من أصل الصخرة، تواضع الصخرة لله، ذكر السلسلة، ما يُستحب أن يُدعى به عند دخول الصخرة، الصلاة عن يمين الصخرة، مايكره من الصلاة على ظهر الصخرة، النهى عن اليمين عند الصخرة، فضل البلاطة السوداء، قيام عزرائيل وإسرافيل على الصخرة، الدعاء عند قبة المعراج، ما يُدعى به عند قُبَّة السلسلة، أبواب المسجد وسوره ومحاريبه، عين سلوان، النهى عن دخول الكنائس، ذكر البرك والعيون، فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس، ذكر بناء عبد الملك بن مروان، جامع لفضائل بيت المقدس، ذكر من دخله من الأنبياء، ذكر من دخله من أعيان الصحابة والتابعين، فروع تخص المسجد الأقصى، زيارة الخليل عليه السلام، ما قيل فى قبر سيدنا موسى، فضل الشام.

ولا تذكر المصادر من مخطوطات هذا الكتاب، إلا نسخةً وحيدةً أشار إليها بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى، وهى محفوظة بمكتبة الدولة ببرلين تحت رقم 6098. وعن تلك المخطوطة يقول د. العسيلى فى كتابه : وقد اطلعت على هذه المخطوطة، فوجدتها ناقصة مع الأسف. فهى تضم المقدمة وأربعة عشر فصلا فقط من فصول الكتاب، وهى تقع فى 30 ورقة (59 صفحة) من القطع المتوسط، أولها « الحمد لله المقدس عن الأشياء والنظائر، المحتجب عن الأبصار والنواظر، المنزَّه عن الحدوث بالزوال والأصوات والألفاظ والضمائر. وفى تقديرنا أن هذه النسخة، تضم نصف الكتاب تقريبا. وفى أثناء زيارتى لمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، فى المدينة المنورة، عثرت

على مخطوطة أخرى للروض المغرس. وهى مخطوطة كاملة، رقمها العام فى فهرس المكتبة 3860، ورقم تصنيفها 900/114، انتهى من نسخها أحمد بن محمد بن عبد الله النابلسى عام 873 هجرية (فى حياة المؤلف) والنسخة بخط معتاد، وفيها 348 صفحة[1].

أما نماذج المخطوطة التى نقدمها فيما يلى، فهى بحسب ما يظهر من كتاب د. العسيلى، من مخطوطة برلين. وهنا مفارقة، فإذا كان بيت المقدس اليوم أسيرًا فى يد إسرائيل؛ فإن مخطوطة الروض المغرس فى فضائل بيت المقدس، أسيرة فى يد ألمانيا!

(1) د/ العسيلى: مخطوطات فضائل بيت المقدس، ص 25، وبخصوص مخطوطات فضائل القدس عمومًا، يمكن الرجوع إلى مقالة الأستاذ عصام محمد الشنطى عن «فضائل بيت المقدس، للواسطى» وهى مخطوطة كان كاتب المقالة يقوم بتحقيقها، ثم فوجئ بنشرها فى إسرائيل على يد باحث يهودى! وقد أصدرت النشرة المحققة، وفيها سقطات وعليها مآخذ؛ الجامعة العبرية بالقدس المحتلة (انظر: مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد 36 الجزء الأول).
والجدير بالذكر، أن مخطوطة الواسطى هذه، مخطوطة وحيدة ظلت قابعة فى مكتبة جامع الجزار فى عكا دهرًا طويلًا، حتى امتدت يد اليهود فسطت عليها، ونقلتها إلى الجامعة العبرية. حدث هذا منذ أعوام، وعنه يقول الأستاذ عصام الشنطى فى مقالته: هذا السطو على المخطوطات العربية بالقوة، هو سبب من أسباب تغريب التراث العربى وبعثرة مخطوطاته، فى غير العالم العربى والإسلامى.

الروض المغرس في فضائل البيت المقدس

تأليف شيخنا الشيخ الإمام قاضي القضاة

مخطوطة الروض المغرّس

(صفحة الغلاف)

الورقة الأولى

[illegible]

الورقة الثانية

# الفصل الثالث عشر

## (مخطـوطـة أدبيــة)

# الرَّوْضة الغَنَّـاء في أصول الغِنَاء

لمؤلف مجهول

فى عالم المخطوطات، كثيرٌ من النصوص (مجهولة المؤلف). ويرجع السبب فى ذلك، إلى عدة أمور؛ منها أن بعض المؤلفات لم يشتهر مؤلفوها بين معاصريهم، حتى إذا توالت الأزمنة، ظل النساخ يتناقلون تلك المؤلفات دون معرفة صاحبها الأصلى. ومنها أن الكثير من المخطوطات، تهترئ الصفحات الأولى منها، التى تحتوى فى الغالب على اسم مؤلفها. ويحدث ذلك بسبب كثرة التداول، خاصةً إن لم تكن المخطوطة المتداولة مجلَّدة. فلا يبقى أمام ناسخيها، المفهرسين من بعدهم، إلا نسبتها لمجهول. ومنها أن بعض الهواة يقوم بتدوين مجموعة من النصوص لنفسه، فلا يهتم بذكر اسمه فى مقدمتها. وفى أحيانٍ كثيرة، تعجب المجموعة النساخ والقراء لما تحتويه من منتخبات، فتتناقلها الأقلام دون إشارة لجامعها. ومنها أن بعض الموضوعات لا تلقى قبولا لدى المعاصرين، نظرًا لسطوة بعض الاتجاهات، فيتّقى المؤلف معارضة أهل زمانه بأن يخفى اسمه من الكتاب. ومن أشهر الأمثلة على هذا النوع كُتب السحر والعلوم الخفية، والموسوعة الفلسفية الشهيرة: رسائل إخوان الصفا.



ومخطوطة (الروضة الغنَّاء فى أصول الغناء) واحدة من تلك النصوص التى لم يُعرف مؤلفها، أو بالأحرى جامعها.. فالمخطوطة عبارة عن مجموعةٍ من الموشحات والأزجال والنصوص الشعرية، الفصيحة والعامية، التى كانوا يتغنّون قديمًا بها، فى بلاد المغرب والأندلس، وظلت فى ذاكرة الأجيال على مَرّ الزمن. وكثيرٌ منها لا تزال أصداؤه تتردَّد إلى الآن بالمغرب العربى.

ويبدو أن جامع المخطوطة كان شغوفًا بالطرب والغناء ومجالس السماع. وهو ما يظهر فى مقدمته، حيث يقول: الحمد لله الذى أسبغ علينا نعمه ظاهرةً وباطنة،

وأمتعنا بلذة السماع، وجعله قوتًا للقلوب، وشنفًا وقرطًا للأسماع، وصحةً للأبدان تستوي به الأعضاءُ وتبلغ منتهاها في الاستماع.. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي خصَّ بنعمة الغناء الآذان، وتفضل عليها بنعمة الألحان. ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده ورسوله، سر الوجود والسبب في كل موجود، المُنتخب من أشرف الآباء وأكرم الجدود، الذي أُعطي خَلْق آدم وخِلَّة إبراهيم وقُنوت داود، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار وصحابته الأخيار.

ولا توجد من الروضة الغناء، غير نسخةٍ نادرة، محفوظة بالخزانة العامة بالرباط. وهي مكتوبةٌ بالخط المغربي ذي الشكلِ المميز في رسم بعض الحروف. فالفاء تكتب نقطتها أسفل الحرف، والقاف تكتب بنقطة واحدة من أعلى (كالفاء عند المشارقة) وهي أمور قد تصعِّب قراءة النصوص المغربية، على غير العارف بطريقة المغاربة في الكتابة.

وهناك عديدٌ من النصوص الشعرية التي تنفرد بها مخطوطة: الروضة الغنَّاء، فبعضها لا يوجد كاملًا في مصادرِ أخرى، وبعضها لم يرد في أي مصدرٍ آخر. ومما انفردت المخطوطةُ بإيراد نصِّه كاملًا، تلك القصيدة البديعة (من بحر الخفيف) للوزير لسان الدين ابن الخطيب، المتوفى 776 هجرية. وفيها يقول:

يَـالَيْتَ شِـعْرِي هَـلْ لها مِنْ إيَاب
يَـوْمًا وَعِنْـدَ الله عِلْـمُ الغُيُوب
سَـاعَـاتُ أُنْسٍ تَحْتَ ظِلِّ الشَّبَاب
خُضر الحَوَاشِـي طَيِّباتُ الهُبُوب
اليَـومَ لاَ نَـرْهَبُ وَقْـعَ النَّوى
وَنَحْنُ مِن سَطْـوَتِـها فِـي أَمَـان
غَيْـرِي عَلَـى الدَّهْرِ شَـدِيدُ القُوى
والنَّظْـمُ مَنْظُـومٌ كَنَظْـمِ الجُمَـان

حَتَّى إِذَا لَذَّت كُئُوس الهَوى
وقُلْتُ: قَدْ نَامَتْ عُيُونُ الزَّمَان

جَاءَتْ أُمُورٌ لَمْ تكُنْ فِي حِسَاب
غيرَى وأَلْوانُ اللَّيالِى ضُرُوبْ

فَمَنْ لِىَ اليَوْمَ بِرَدْ الجَوَاب
كَأَنْ أَسْأَل الصَّبَا والجنُوبْ

لاَ كَلَّفَ الله النُّفُوسَ الرِّقَاق
مِن مَضَضِ الشَّوْقِ مَا لاَ تُطِيقْ

طَعْمُ الهَوى يَا صَاحِ مُرُّ المذَاق
وَقَاكَ والكُفْرَ عَذَابَ الحَرِيقْ

قَد بلغَتْ بِالَهجْرِ رُوحِى التَّراق
فَهَلْ إِلَى لَيْلِ الرِّضَا مِنْ طَرِيقْ

والله مَا الهجْرَانُ إلا عَذَاب
يَا شَرَّ مَا تَحْمِلُ مِنْه القُلُوبْ

واليَومُ فِى الطُّولِ كَيَومِ السَّحاب
واللَّيْلُ مَا للنَّجْمِ فِيه غُرُوبْ

ومما يرد فى المخطوطة، ولا نكاد نجده فى غيرها، تلك الموشحة التى لم يسبق نشرها، وهى أيضًا من إبداعات لسان الدين ابن الخطيب:

اسْقِيانِى لَقَدْ بَدَا الفَجْرُ
وخَفَى الكَوْكَبُ

قَـهْــوةٌ تَــرْكُ شُـرْبِـهَــا وِزْرٌ
وهْـــيَ لِــي مَـــــذْهَـبُ
أَنَـــدِيمِي اسْـقِـنِـي لَـقَـدْ حَـلاَ
شُـــربُ رَاحٍ بِـــــرَاحِ
وَغُـــرابُ الـظَّـلامِ لَـقَــدْ وَلَّــى
مِــن حَـمَــــامِ الـصَّـبـاحِ
ارْفَـــعِ السُّـجْـفَ تَـنْـظُـر الطـلَّا
كَـيْــفَ رَش البِــــطَــاحِ
وانثنى قُـضْـبُ روضِـهـا الخُضْـر
طَــرَبــًا تَـلْـعَــــبْ
عَجَـبًا كَيْـــفَ نَالـهَا السُّكْرُ
وهـــــي لَــمْ تَـشْــرَبْ
وتَـغَـنَّـتْ حَـمـائِـمُ الـقُـضْــبِ
لـــحــنْ بَـــــديـعْ
واسْتَـهَـلَّـتْ مــدَامِعُ السُّحْبِ
وْقَـــد وشــي الــرَّبِــيعْ
قَـدْ أَدَرَّهَا تُضـــي كَمَـا الشُّهْبِ
واسْــقِــنــي بِـالـقَـطِيـــعْ
حَيْثُ يَسْعى بِكَـاسِــها بَــدْرٌ
خَـــــدُّهُ مُـــذْهَــبُ

قَــدْ حَـكَـى فَــوْقَ صُـدغِـه الشَّعْرُ
كَـــــاتِـبًــــا يَـكْـتُــبُ

بِـــأبِـى مَـــنْ صِــرْتُ مِــنْ حُـبِّـهِ
وَهْــــوَ هَــــاءٌ ومِــيمْ

أَنَــا مِــنْ حُبِّـه كَشَـطرِ اسْمِـهِ
وَهْــــوَ بَـــــاقٍ سَـلِـيمْ

كَــوْكَـبٌ يَسْتَمِدُّ مِــنْ وَجْـهِـهِ
كُــــلُّ قَـلْـــبٍ سَلِيـــمْ

يَــا طِــرازَ الجـمَــالِ مـا اليُسرُ
هَـكَــــــذا يُـنْـسَــــبُ

نَحْنُ أَهْــل الـهَـوى لَنَا سِتْـرُ
هَـتْـكُــــــهُ يَـصْـعُـبُ

قَـمَـرٌ لـلـهَــوَى بِسُـلْطَـانِــهِ
عِــــــزَّة وانــتِـصَــارْ

وتَـرَى للسِّحْرِ سِــحْـرَ جِفَانِه
بَـين تِـلْــكَ الـشِّـفَـــارْ

أَنَـــا مِــنْ صَــدِّهِ وهِـجْـرَانِـهِ
بَــين مَــــاءٍ ونَــــارْ

عَـسَـى أَنْ يُـغَــالِـبَ الأَمْـــرُ
والــهَـــوَى أَغْـلَـــبْ

لَــوْ رَأَى الـعِـذَارَ إِنَّمَـا العُـذْرُ
فِيـــــه لــمْ يَـعْـتِـــــبْ

ومن الأشعار الواردة فى المخطوطة، تلك الموشحة لأبى العباس الأعمى التطيلى (المتوفى فى حدود سنة 525) وهى مما انفردت به المخطوطة[1]:

يَـــا مَـــنْ رَمَـــى الـلَّـوم رُشْـــدًا
تَـــالله لاَ تُـبْـــتُ دَهْـــرا
عَـــنْ حُـــبِّ ظَـبْـى رَبِـيـبِ
وشــرْبِ أكـــواسِـى خَـمْـــرا
يَـــا عَـــاذِلـى رُويـــدا فَـهَـــلاَّ
أَطَـلْــتَ فِـى الحُـــبِّ عَـــذْلا
تَـلُـــومُ فِـــى الحُـبِّ جَـهْــلا
يَكْفِيـــكَ مَـــا بِـــى حَـــلا
مُـــذْ صَـــد خِـلِّــى وَسَـــدًّا
بَـابَ الرِّضـا وعِيــلَ صَـبْـرى
فَـطَـعْـمُ هَـجْـــرِ الحَـبِـيـبِ
أَمَـــرُّ مِـــنْ كُـــلِّ صَـبْـــرِ
يَـــا مَـــنْ أَبَـــى أَن يُمَـنَّـــا
عَـلَـــى الحَـبِـيـبِ المُعَـنَّـــى

(1) نشر الدكتور محمد زكريا عنانى هذه الموشحة -لأول مرة - فى كتابه : ديوان الموشحات الأندلسية ، ص20 وما بعدها.

حَـتَّـى ثَـنَــا الـقَـلْـبَ وَهْـنَــا

جَــوَى سَـبِـيــلَـيْـهِ حُـــزْنَـا

وَقَـــال تِـيـهــًا وَعَــمْـــدًا

لَمَـــا رَأَى فَـــرْطَ ذُعْـــرِى: ألا

مَــــا قَــتْـــلُ صَــبٌ كَـئِـيـبِ

عَــلَــى المِـــلاحِ بِـنُـكْـــــــرِ

نَــــــــــــذَرْتُ لله عَــهْـــدًا

صِـيَـــــــامَ شَــهْـــرٍ وعَـشْـــرِ

يَـــوْمــًا نَـــــرَاكَ حَـبِـيـبِــى

مَـــا بَـــيْن صَـــدْرِى ونَحـــرِى[1]

ولعل مبادرة واحدٍ من باحثينا المعاصرين، بنشر هذه المخطوطة الفريدة، سوف يلقى المزيد من الضوء على عالم الموشحات، الذى لم يزل مجهولا، ويكشف بنشرته عن كثيرٍ من النصوص الأدبية المنسية والمخفية. وعمومًا، فإذا لم يقيِّض لنا الله هذا الباحثَ المحقِّق، فأظن أن الدارسين الإسبان المعاصرين من شأنهم المسارعة إلى نشر هذه المخطوطة؛ إذ هم اليوم مهتمون أبلغ الاهتمام بالتراث الأندلسى، ربما لأنهم يعدُّونه تراثهم هُم، لا تراثنا.. مع أنه فى واقع الأمر، تراثنا المشترك!

(1) مخطوطة الروضة، الورقة 168.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

الحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة
وأشغلنا بلذة الصلاة وجعلها قرة للقلوب وشفاء [illegible]
لمن خشع فيها [illegible] الا [illegible] وتبليغه
[illegible] ارتياح للأرواح [illegible]
التي [illegible] وترتاح [illegible] الا [illegible]
[illegible] ونشهد
ان لا اله الا الله وحده لا شريك له الذي خص [illegible]
الا [illegible] ونشهد
ان سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله [illegible]
بكل [illegible] الانبياء واكرم [illegible] الذي
[illegible] وخلة ابراهيم [illegible] صلى الله عليه وعلى

الورقة الأولى
(نسخة الخزانة العامة بالرباط)

وسميته بالروضة
الغناء في اصول الغنا

الصفحة الثانية من المخطوطة

الورقة الرابعة

(وفي هوامشها تعليقات)

# الفصل الرابع عشر

## (مخطوطة صوفية)

# الشَّجَرة لإِظْهَارِ الثَّمَرَة

للمَقْدِسِى

نقرأ على غلاف المخطوطة: هذه الرسالة المسمّاة بالشجرة لإظهار الثمرة، تأليف العارف المحقق، المتقن المدقق، خلاصة عصره، ونتيجة عنصر عصره، أبى محمد عز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسى، رضى الله عنه وأرضاه، ونفعنا به والمسلمين. . آمين.

والمؤلِّف: ابن غانم المقدسي، واحدٌ من مشاهير رجال التصوف في زمنه. ولد سنة 920 هجرية، وتوفى بالقدس سنة 1004 هجرية . مما يعنى أنه قضى حياته في القرن العاشر الهجرى، وأدرك القرن الحادى عشر؛ وهو عصر فيه رأيان متعارضان! الرأى الأول، أنه كان عصرَ انحطاط عامٍّ وتدهور. ففى القرن العاشر الهجرى تخلَّف العلم الإسلامى بعدما كان متقدمًا، ورزحت البلدان العربية تحت وطأة الحكم العثمانى، الذى أخلى البلاد من المهارات الفنية والكتب العلمية وغير العلمية، ليجعل من قاعدة العثمانيين وعاصمتهم (الآستانة) المنارة الوحيدة فى الإمبراطورية العثمانية. وقد أطلت شمسُ القرن الحادى عشر، والحال فى بلدان العرب أسوأ ما يكون، فلا علم دينيًّا ولا دنيويًّا؛ وإنما جهل فاحش وسياسة ظالمة.

والرأى الآخر، أنه كان عصر منعة وقوة للمسلمين. فالدولة العثمانية التى تصدَّت آنذاك للأطماع الأوروبية فى العالَم الإسلامى، هى مظهرٌ لقوة الإسلام. يضاف إليها دولتا: الصفوية في فارس، والمغولية فى الهند. وكلتاهما، مع دولة آل عثمان، معبرةٌ عن قوة المسلمين العسكرية والسياسية فى القرنين العاشر والحادى عشر . وإذا كانت الحالة العلمية قد تراجعت، إلا أن القرن الحادى عشر شهد من الجهود العلمية قدرًا كبيرًا، ونبغ من العلماء مشاهيرُ فى كل فن[1]. مما يعد محاولة

(1) راجع تراجم علماء هذا القرن، فى كتاب المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر.

لتأسيس نهضة إسلامية جديدة، لم تكتمل بسبب الاختراق الأوروبى للعالم الإسلامى، ووقوع بلدان الإسلام فى نهاية الأمر تحت الاستعمار الذى أجهض هذه النهضة(1).

وفى التصوف وحال الصوفية إبَّان هذا العصر، هناك أيضًا رأيان متعارضان. الأول منهما، يرى أن التصوف قد بلغ آنذاك قمة تدهوره وسيطرت الخرافة عليه. حتى كان لجهلة المتصوفة اليد الطولى فى تسيير مصالح العباد والبلاد. وقد أمعن مشايخ التصوف آنذاك، فى الجهل والأمية، حتى إن الشعرانى، إمام التصوف فى القرن العاشر؛ يذكر أنه تتلمذ لسبعين شيخًا.. كلهم أميون.

والرأى الآخر، يقرر أن هذا العصر حفل بمشايخ الصوفية الكبار، الذين قاموا بدورهم فى حفظ الدين. فجمعوا بين علوم الشريعة كالفقه، وعلوم الحقيقة وقواعد السلوك. فكان فى هذا الزمان من كبار الصوفية، إلى جانب الإمام الشعرانى: أبو السعود الجارحى، وزين العابدين البكرى.. وغيرهم كثير من مشايخ التصوف فى العلم والعمل.

ونرى من جانبنا أن عصر المقدسى (القرنين العاشر والحادى عشر) لم يكن من عصور النهضة الإسلامية، بالقياس إلى القرون السابقة، لكنه كان نتيجة طبيعية لتدهور أحوال السياسة والاقتصاد، فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين. ولقد أفاق المسلمون فى القرن الحادى عشر، فحاولوا استدراك ما فاتهم. وظهرت شواهد الإفاقة الحضارية تلك فى العديد من الأعمال الموسوعية، التى تم تدوينها فى أواخر القرن العاشر وبدايات الحادى عشر. لكن هذه الحركة لم تثمر، مع تزايد الأطماع الأوروبية وتناقص القوة الإسلامية، متمثلة فى العثمانيين. حتى جاء القرن الثانى عشر الهجرى، فكان مسرحًا لتساقط أرجاء العالم الإسلامى تحت السيطرة الأوروبية، التى حولت الأنظار والجهود الإسلامية عن غايتها، وتلاعبت بها ولا تزال تتلاعب.

أما التصوف، فشأنه شأن كل مظاهر الحياة، لا يعكس إلا الواقع الحضارى. فإذا كان العصر عصر نهضة وتحضُّر، نهض التصوف وكان مرآةً للتحضر.

---

(1) يمكن الرجوع إلى تفاصيل هذا الرأى، فى كتاب المستشرق الأمريكى المعاصر بيتر جران، المترجم للعربية بعنوان: الجذور الإسلامية للرأسمالية (طبعة دار الفكر للدراسات والتوزيع والنشر) وانظر ما سوف نورده فى الفصل الحادى والعشرين من هذا الكتاب، عند الكلام عن مخطوطة (عين الحياة) للدمنهورى.

وإذا تدهورت الأحـوال، تدهور التصوف مع بقية مظاهر الحياة فى المجتمع الإسلامى. وقد ظل التصوف يتطور مع تطور الحضارة الإسلامية، حتى توقف مع توقفها، وتجمدت مسيرته عند تراث الأوائل. وانتشرت الطرق الصوفية على نطاق واسع، لشعور الجماعة الإسلامية بالخطر العام، ومحاولة درء الخطر بالتقوقع على الذات. ومن هنا كان الإنتاج الصوفى المدون فى القرنين العاشر والحادى عشر، إما مؤلفات فى دقائق السلوك وفروعه، أو شروحًا على فنون الكتب الصوفية السابقة. وقد كان ابن عربى (الشيخ الأكبر، محيى الدين، المتوفى 638 هجرية) هو صاحب النصيب الأكبر من تلك الشروح.

وكان الفقه الحنفى آنذاك، هو المذهب الرسمى للدولة العثمانية؛ فانتعش هذا المذهب، وساد البلاد. ويقرر بعض الدارسين، أن عصور التخلف كانت دومًا مرتبطة بسيادة الفقه الحنفى! وهى قضية تحتاج لمراجعات كثيرة، وليس هنا محل الخوض فيها. وما يعنينا منها هنا، أن ابن غانم المقدسى قد اشتهر كواحد من كبار فقهاء الأحناف فى عصره، لكنه مع ذلك لم يضع مؤلفات فقهية على المذهب الحنفى أو غير الحنفى. وإنما جاءت مؤلفاته على شكل رسائل موجزة، يغلب عليها طابع التصوف.

ومن مؤلفات المقدسى الرسالة المسماة: تفليس إبليس، وفيها يعارض ابن غانم كتاب ابن الجوزى المشهور (تلبيس إبليس) وهو الكتاب الذى أساء فيه ابن الجوزى لكبار الصوفية الأوائل، فاستاء منه ومن صاحبه معظم الصوفية الأواخر[1]. . يقول

---

(1) يعبر الصوفى المعاصر، الشيخ إبراهيم حلمى القادرى، عن وجهة النظر الصوفية فى ابن الجوزى وكتابه (تلبيس إبليس) فيقول: إن ابن الجوزى فى كتابه هذا، ونحوه من الكتب التى ألفها أيام شبابه ورعونته؛ حط على السادات الصوفية، بل وجميع أصناف الناس. وذكر تلبيس إبليس عليهم، إلا أنه لم يذكر تلبيس إبليس عليه وعلى أذنابه. وليس من شك فى أنه لبس عليه وعلى أذنابه بهذا التلبيس، وما شاكله من تآليفه المقوتة. والحق أن ابن الجوزى، المتوفى 597 هجرية، له منزع لا يساعده أن يتذوق ما للسادات الصوفية بحال من الأحوال. ومن ذلك أنه كان يوما ما يعظ الناس على المنبر، إذ قام بعض الحاضرين وقال: يا أيها الشيخ، ما تقول فى امرأة بها داء الأبنة؟ فقال على الفور:

يقولون ليلى بالعراق مريضة ... فيا ليتنى كنت الطبيب المداويا

وكان لابن الجوزى أيضا، امرأة تسمى (نسيم الصبا) فطلقها، وندم. فحضرت يوما مجلس وعظه، وحال بينه وبينها امرأتان، فأنشد مخاطبا لها:

أيا جبلى نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص إلىّ نسيمها

وكان لا ينفك عن جارية حسناء، وله مجون ومداعبات. وذكر غير واحد أنه شرب حب البلاذر، فسقطت لحيته فكانت قصيرة جدا، وكان يخضبها بالسواد إلى أن مات. . فكيف لابن الجوزى وأذنابه =

ابن غانم : وقد وضعت كتابى هذا، وسميته تفليس إبليس، ليكشف للناظر فيه تلبيس إبليس، فيميّز بين الخسيس والنفيس. فإنى لما اطلعتُ على كتاب (تلبيس إبليس) ورأيته بِئْسَ الجليس، فإنه يشتمل على تنقيص أولياء الله والقدح فى علو مراتبهم وزكىّ مناصبهم، واتهام أن الشيطان تسلّط عليهم تسلُّطًا، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ..﴾[1] فكيف الواقع فيهم، والناقد عليهم ما تأدب معهم بما تأدب به إبليس معهم حيث قال: ﴿.. فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2] لما عَلِمَ أن لله خُلصاء لا يخلص إليهم[3].

وفى تفليس إبليس، يسوق ابن غانم المقدسى حُجج إبليس، فيرد عليها وكأنه يحاوره. يقول ابن غانم فى كتابه عن إبليس: ولقد أوقفته موقف الجدال، ونازلته فى معرك النزال، فجعل يجول وأجول. ولكنه أسّس بنيانه على أساس الوسواس، وأسستُ بنيانى على قواعد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فجعل يُعاملنى معاملة الطالب، ويراوغنى مراوغة الهارب.. إلخ[4].

ولم يكن ابن غانم هو أول من تعرَّض لمسألة إبليس، فقد سبقه بقرون صوفىٌّ آخر، هو الحلاَّج (أبو الغيث ، الحسين بن منصور، المقتول ببغداد سنة 309 هجرية) إذ كتب فصلًا فى «الطواسين» عن إبليس، وجعله بعنوان: طاسين الأزل

---

= أن يتذوقوا ما للسادات الصوفية، وما ذكره أبو نعيم والقشيرى والغزالى والمحاسبى والطوسى وأمثال هؤلاء، وهذا حاله؟ ولابن الجوزى ادعاءات عريضة وشطحات فشارية، تجدها فى آخر كتابه (القصاص والمذكرين) فمنها قوله: ولا يكاد يذكر لى حديث، إلا ويمكننى أقول : صحيح أو حسن أو محال. ومن المعلوم الذى لا يخفى على أهل العلم، أنه حكم على كثير من الأحاديث الصحيحة والحسان بأنها موضوعة فأخطأ وحكم عليه العلماء بالوهم ولاموه. وقال الشيخ موفق الدين المقدسى: لم نرض تصانيفه فى السنة، ولا طريقته فيها. فإن كان ابن الجوزى غير مرضى عنه فيما تخصص فيه، فكيف يقبل قوله فيما لا يقبله عقله، ويأباه قوله؟

ويمضى الشيخ إبراهيم حلمى، فيعدد مثالب ابن الجوزى. ثم يقول: ومع ذلك، فقد بلغنى ممن لقيت من الشيوخ، أن ابن الجوزى تاب أخيرا، وحسن اعتقاده فى السادات الصوفية، بعد أن هدأت ثورة شبابه وذهبت رعونته. والعقل يصدق ذلك، لأن العلم يهدى فى الغالب صاحبه إلى طريق الحق، ولو بعد حين (مدارج الحقيقة، الإسكندرية 1962، ص 59/55).

(1) سورة الحجر ، آية 42.

(2) سورة ص ، آية 82، 83.

(3) ابن غانم المقدسى : تفليس إبليس ، ص 12.

(4) المصدر السابق ، ص 13.

والالتباس[1]. وإن كان الحلاّج قد اتخذ موقف الاعتذار واللوم لإبليس، فإن ابن غانم المقدسى كان يهدف إلى إفحام إبليس إفحامًا تامًا، وبيان تهافُت حججه واحتجابه بالقدر. لكن ابن غانم، من بعد الحلاّج بزمن طويل؛ يعد أول مَنْ ساق العبارات والأشعار، على لسان إبليس. فجعله في «تفليس إبليس» يفصح عن نفسه، ليتسنَّى لابن غانم من بعد ذلك، الرد عليه وتعقُّب دفاعه، وإفحامه.

وقد نُشر كتاب «تفليس إبليس» نشرة متواضعة بالقاهرة (دار أنوار القرآن، مكتبة نجمة الحسين بالأزهر، سنة 1978) بعناية عبد الله نجيب، المدرس بجامعة الأزهر. وأضاف الناشر إلى الكتاب، قصيدة ابن تيمية فى حُكم القضاء والقدر! ولا أدرى السبب فى ذلك.

ولابن غانم المقدسى كتابٌ آخر، بعنوان منتخب فى مصايد الشيطان وذم الهوى. عمد فيه إلى اختصار كتاب (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) لابن قيم الجوزية، فلم يخرج فيه عن حدود الكتاب الأصلى، واكتفى بانتخاب بعض نصوصه واختصار بعض مباحثه لتسهيل الانتفاع به. وتوجد نسخة من هذا المنتخب، محفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم 299/ أخلاق تيمور، وقد نشرها إبراهيم محمد الجمل، وصدرت عن (مكتبة القرآن بالقاهرة، سنة 1983).

أما (الشجرة لإظهار الثمرة) فهى نصٌّ مخطوط لم يُنشر من قبل، توجد منه نسخة خطية بمكتبة بلدية الإسكندرية، تحت رقم 3562 / د. وتمتاز هذه الرسالة عن بقية مؤلفات ابن غانم المقدسى الأخرى، بأنها تأليفٌ خالص. فإذا كان «التفليس» هو معارضةٌ لكتاب ابن الجوزى، و«المنتخب» هو اختصارٌ لكتاب ابن القيم، فإن «الشجرة» هى مؤلَّفٌ خاص لم يعتمد فيه ابن غانم على تصانيف السابقين.

فى هذه المخطوطة، يستعرض المؤلِّفُ قصة الخلق بأسلوب رمزى أخّاذ. فينظر إلى الوجود على أنه شجرة تنبت من بذرة الأمر الإلهى (كُنْ) فأورقت حتى ظهرت

(1) انظر «الطواسين» نشرة لوى ماسينيون، باريس 1913.

ثمار ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1] وهو يمزج كلامه بالنصّ القرآنى مزجًا لطيفًا بليغًا ، فنراه مثلًا وهو يحكى قصة خروج آدم من الجنة ، متعرضًا فى ذات الوقت لمسألة إبليس؛ يقول ما نصُّه: وأما إبليس ، فإنه مكث فى مكتب التعليم أربعين ألف عام ، يتصفّح حروف كُنْ ، وقد وكله المعلم إلى نفسه ، وأحاله على حوله وقوته ، فكان ينظر إلى تمثال كُنْ ، فيشهد من كافها كاف كفره وكبره ﴿فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2] ، ويشهد من نونها نون ناريته ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾[3] فلما نظر آدم إلى اختلاف أغصان هذه الشجرة ، وتنوع أزهارها وثمارها ، وتشبّث بغصن ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾[4] فنودىَ من ثمار التوحيد ، واستظل بظل التفريد ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[5] فأراد إبليس أن يوصله بغصن ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾[6] فأكلاَ منها ، فزلق فى مزالق ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾[7] فاستمسك بغصن ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا﴾[8] فتدلّت له ثمار ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾[9] فلما نُودى يوم الإشهاد على رءوس الأشهاد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[10] فشهد كُلٌّ على مقدار ما أُشهد وأُسمع من الخطاب ، ثم اتفق الكل فى الإيجاب فقالوا: ﴿بَلَى﴾ لكن الاختلاف وقع من حيث الإشهاد. فمن أَشهدَ كمالية ذاته ، شَهِدَ أن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[11] ومن أشهده جلالية صفاته شَهِدَ أنه ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾[12] ومن أشهده عرائس مخلوقاته ، اختلفت شهادتهم لاختلاف الشهود. فقومٌ جعلوه محدودًا[13] ، وقوم جعلوه معهودًا[14] ،

(1) سورة القمر ، آية 49 .
(2) سورة البقرة ، آية 34 .
(3) سورة الشعراء ، آية 94 .
(4) سورة طه ، آية 14 .
(5) سورة البقرة ، آية 35 – سورة الأعراف ، آية 19 .
(6) سورة الأعراف ، آية 20 .
(7) سورة طه ، آية 121 .
(8) سورة الأعراف ، آية 23 .
(9) سورة البقرة ، آية 37 .
(10) سورة الأعراف ، آية 172 .
(11) سورة الشورى ، آية 11.
(12) سورة الحشر ، آية 23.
(13) الإشارة إلى المجسمة الذين قالوا : إن لله تعالى جسمًا وحدًّا ومقدارًا.
(14) الإشارة إلى اليهود ، القائلين : خلق الله آدم على صورة الرحمن.

وقوم جعلوه مولوداً[1]، وقوم جعلوه حجراً جلموداً[2]، والكل في ذلك على حكم ﴿قُل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾[3] وهو مستنبط من كلمة كُن[4].

ويتعرض ابن غانم المقدسى لأنـوار النبى محمد ﷺ ومرتبته فى شجرة الكون، فيقول: فأول ما عهد خُولى[5] هذه الشجرة، إلى أصل حَبَّة كُنْ؛ فاعتصر صفوة عنصرها، ومخضها حتى بدت زُبدتها، ثم صفاها بصفات الصفوة حتى زال كدرها، ثم ألقى عليها من نور هدايته حتى ظهر جوهرها، ثم غمسها فى بحر الرحمة حتى زال كدرها، ثم ألقى عليها من نور هدايته حتى ظهر جوهرها، ثم غمسها فى بحر الرحمة حتى عمت بركتها، ثم خلق منها نور نبينا محمد ﷺ ثم زَيَّنَ بنوره الملأ الأعلى حتى أضاء وعلا، ثم جعل النور أصلا لكل نور. فهو أولهم فى السطور، وآخرهم فى الظهور[6]، وقائدهم فى النشور، ومبشرهم بالسرور، ومتوجهم بالحبور. فهو مُستودعٌ فى ديوان الأُنس، مُستقرٌ فى رياض حَضرة القدس[7]، سَتَرَ معنى روحانيته بسَتْر جُثمانيته، وغَطَّى عالم شهوده بعالم وجوده، فهو مستخرجٌ من الكون، مستنبطٌ لأجله الكون[8].

وعلى هذا النحو تسير المخطوطة، فتعرض لمظهر الخَلْق وحقائق الوجود ودقائق الإسلام واختلاف الأديـان، وغير ذلك من الموضوعات، وفى آخر المخطوطة جمع الناسخ مجموعة من أشعار ابن غانم المقدسى، منها تلك القصيدة (من الخفيف) :

---

(1) الإشارة إلى النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح.
(2) الإشارة إلى الوثنيين الذين عبدوا الأصنام.
(3) سورة التوبة ، آية 51.
(4) المخطوطة، ورقة 3 ويلاحظ أنه فى النص الأصلى لا يوجد فاصل بين الآيات والعبارات، كما هو الحال هنا.
(5) الخولى ، القائم بأمر النباتات (الجناينى) والمراد به هنا، مجازاً: الله تعالى.
(6) ومن هنا نقول للنبى : يا أول خلق الله وآخر رسل الله.
(7) استخدم المقدسى هنا اصطلاح (المستودع ، المستقر) وهو من مصطلحات الشيعة الإسماعيلية فى قولهم بالإمام المستودع والإمام المستقر. . راجع بخصوص ذلك (د. محمد على أبو ريان: الفكر الفلسفى فى الإسلام ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1988) .
(8) المخطوطة ، ورقة 6أ.

يَـا حُـــداةَ المَـطِـيِّ رِفْـقًـا فَـإِنِّـي
مِـنْ جَـنَـابِ الحَبيبِ آنـسْـتُ نَـارا
خَـفِّـفِ الـسَّـيْـرَ بِـالمَـطِيِّ ودَعْـهَـا
فَـرْحَـةُ الـقَـلْـبِ تَخْـلَـعُ الأَكْـــوَارا
جِـئْـنَ سَعْيًا إِلـىَ حِـمَـاكَ عَسَاهَا
بِخُطَاهَــــا تُخَـــفِّــــفُ الأَوْزَارَا
قَــدْ أَتَـيْـنَـاكَ لِـلـزِّيَـارةِ شُعْثاً
يَـا مَـــزُورًا هَـــلْ تَقْبَـلُ الـزُّوَّارا
لَـوْ بِـقَـدْرِ الأَشْـــوَاقِ زُرْنَـــاكَ يَوْمًا
لَسَعْيْنا عَـلَـى الجُـفُـونِ صِـغَـارا
قَـدْ أَنَخْـنَــا بِـبَــابِ جُـــودِكَ نَـرْجُـو
مِنْكَ عَفْوًا يَمْحُو الـذُّنُـوبَ كِبَارا
وَلَـنَـا مِـنْـكَ حُـرْمَـةُ الجَــارِ لَمَّا
لاَذَ بِـالجَـارِ والْـتَـجَـا واسْـتَـجَـارا
مَـنْ سَعَى بالصَّفَا إِليْكَ اشْتِيَاقًا
ثُـمَّ لَبَّى واسْـتَـمْـسَـكَ الأَسْــتَـــارا
فَـجَـديـرٌ بِـــأَنْ تُـرِيــــهِ جَـمَـالا
بِمَعَـانـيـــــهِ حَـيَّـــــرَ الأَفْـكَـــارا
أَنْـتَ لَـوْلاَكَ مَاحَسَبتُ قَلُوصِى[1]
بِـطُـلُـولٍ أُنَـاشِـــدُ الآثَـــــارا

---
(1) القلص : الإبل.

لاَ ولاَ طُـفْــــتُ بِالرُّبــوعِ سُبُوعًا

فِـى طَـوَافِـى أُقَـبِّـلُ الأَحْـجَــارا

مَا الصَّفَا، ما الحَطِيمُ، ما الْبَيْتُ

لَوْلاكَ تَــوَلَّتْ عَنْــهَا الْقُـلُوب فِرارًا

ما وُقُـوفِى عِـنْدَ المَشَـاعِـرِ لَـوْلا

جَعْــــلُ الذِّكْــــرِ للقُلُوبِ شِـعَـارا

رَمَـيْـتُ جَـمْـرَةَ الـهَـوَى بِـفُـؤَادِى

قَبْـــــلَ أنْ يَـــعْـرِفَ الحَجِيجُ الجِمَارا

هَـــذِهِ كُـلُّـهَـا إِشَـــــاراتُ سِـرٍّ

يَجْتَلِيــهَا مَـــــنْ يَفْــهَـمُ الأَسْــرَارا

يَـا عَـــذُولِى دَعِ المَـــلاَمَ فَإِنِّـى

عَـــنْ غَـــرَامِى لاَأَستَطِيـعُ اصْطِبَارا

ومن أشعار ابن غانم الواردة بآخر المخطوطة، تلك الأبيات الشعرية التى تحكى وقائع ليلة الإسراء (من الكامل):

سُـبْـحَـــانَ مَـــنْ أَسْرَى إِليه بِعَبْدِهِ

فِى لَيْلَةٍ شَـرُفَـتْ بِطَـالِعِ سَعْدِهِ

أَعْـطَـاهُ مَـا لَـمْ يُـعْـطَ خَـلْـقٌ مِثْلَهُ

مِـــــنْ قَبْــلِهِ كَــلاَّ وَلاَ مِـــنْ بَـعْـدِهِ

جِـبْـرِيـلُ حَـامِـلُ بُــرْدِهِ لَمَّـا سَـرَى

لَيْــــلاً وَمِيـكَـائِـيلُ نَاظِـــمُ عِقْـدِهِ

وَالأَنْبِيَـــــاءُ بِجَمْعِـــهِـــــمْ وَبِعدِّهِمْ
جُمِعُوا لَـهُ فَكَأَنَّهُمْ مِـنْ جُـنْـدِهِ

وَسَمَـا إِلَـى فَـوْقِ السَّمَا وَعَـلا عَلَى
دَرْجِ الـعُـلاَ لَـمَّا عَـلاَ فِـى جَـدِّهِ

وَدَنَـا إِلَـى ذَاكَ الجنَابِ وَلَـمْ يَـزَلْ
دَانٍ عَلى قُـرْبِ المَـــزَارِ وبُـعْـدِهِ

فِـى قَـابِ قَـوْسَـينِ دَنَـا مِـنْ رَبِّـهِ
سَمِعَ الخِطَابَ وَلَمْ يَخَفْ مِنْ صَدِّهِ

مَا زَاغَ ذَاكَ الطَّرفُ مِنْه وَلاَ طَغَى
ذَاكَ الـفُـؤَادُ وَلاَ عَـدَا عَـنْ حَـدِّهِ

وَلَـقَـدْ عَجِبْتُ لَـهُ وَقَـدْ أَسـرى بِهِ
لَـيْـلاً يُـرِيـدُ تَسَتُّرًا فِـى قَـصْـدِهِ

هَيْهَات يُخفِى اللَّيْلُ طَلْعَةَ بَـدْرِهِ
أَوْ يَنْطَـوِى نَشْرُ العبير بِنَـدِّهِ[1]

وفى خاتمة المخطوطة، قصائد غير هذه وتلك. منها أبيات فى المحبة الإلهية، وفى زيارة البيت العتيق، وفى شرف مكة والحجاز، وفى فضل النبى عليه الصلاة والسلام.. وعلى الورقة الأخيرة: تمَّ كتاب الشجرة وما يتعلق به من كلام مؤلفه، رضى الله عنه ورضى عنا به، إنه ولىُّ ذلك والقادر عليه.

(1) المخطوطة، ورقة 27 ب.. والند: نبات طيب الرائحة.

غلاف المخطوطة

(نسخة بلدية الإسكندرية رقم 3562/ د)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم الحافظ الورع الزاهد فريد زمانه ووحيد
عصره وأوانه أبو محمد عز الدين بن عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي
رضي الله عنه ورضي عنا به          الأحدي الذات الفردي الصمد
الذي تقدس وجهه عن الجهات وتقدمه عن الحادثات وقدمه
عن الخطوات فرقه عن الحركات وتنزه عن الخطرات واستغنى
عن الأدوات والآلات [illegible] عن الانفصالات وقدرته عن المعاونة
وإرادته عن الشهوات، الذي لا تنفعه [illegible] للموجودات
ولا تختلف إرادته باختلاف المرادات كون بكلمة كن جملة الكائنات
وأوجد بها جميع الموجودات فلا موجود إلا مستخرج من كنزها المكتوم
ولا [illegible] إلا مستخرج من سرها المصون قال الله تعالى
لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون وبعد فإني نظرت في سبب
التكوين بتكوينه وإلى المكون وتلوينه فرأيت الكون كله [illegible]
أصل بذره من حبة كن قد لقحت كاف الكونية بلقاح نون [illegible]
نحن خلقناكم فانعقدت من ذلك البذر ثمرة إنا كل شيء خلقناه بقدر
فظهر من هذه البذرة غصنان مختلفان أصلهما واحد وهو الإرادة وفرع
واحد وهو المرادات فلما ثبت أصلها ونبت فرعها ظهر [illegible]
الكاف [illegible] فلما كانت الكافية اليوم أكملت لكم دينكم وكانت
الكفرية [illegible] وظهر عن جوهر النون نور الكرم [illegible]
[illegible]

الورقة الأولى

روحي تكون فداك

تم كتاب الذخيرة وما يتعلق به من كلام مولفه رضي
الله تعالى عنه ورضي عنا به انه ولي ذلك والقادر
عليه وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد خاتم المرسلين
وعلى آله وصحبه واهل بيته وحزبه اجمعين
وسلم تسليما كثيرا دايما ابدا
الى يوم الدين والحمد
لله رب
العالمين

الورقة الأخيرة

# الفصل الخامس عشر

# (مخطوطة طبية)

## شَرْحُ تَقْدمَةِ المَعْرِفَةِ

### للبَغْدَادِي

حاول بعض الباحثين الغربيين المحدثين الترويج للفكرة القائلة إن اليونان القديمة هى مهد العلم والفلسفة، وبالتالى فإن العلم انطلق من الغرب القديم، وهو الآن يبلغ قمة تطوره فى الغرب المعاصر، فلا فضل فى تاريخ الحضارة لغير القديم والحديث، وكل ما فعله العرب فى هذه المسيرة الغربية للحضارة، هو أنهم حافظوا على أصول العلم اليونانى لعدة قرون، حتى تسلمتها منهم أوروبا وهى تؤسس نهضتها الحديثة وتطور إسهامات اليونان!

ولا شك فى أن ترديد مثل هذه الأفكار، قد صار اليوم يدعو للشفقة والسخرية من قائليها. فقد أثبتت البحوث والدراسات، بما لا يدع مجالاً للشك؛ أن اليونان كانت حلقة واحدة فى تطور الحضارة الإنسانية. فقد استعارت اليونان علومها وفلسفتها من تراث مصر الفرعونية وممالك شرق المتوسط وبلاد الهند[1]. فظل ذلك الإنتاج الحضارى السابق عليهم يتطور على أيديهم وبجهود علمائهم، حتى التقطت أوروبا الخيط عبر مرحلتين؛ الأولى أخذت فيها أوروبا من العرب إنتاجهم العلمى، وترجمته من العربية إلى اللاتينية. والثانية أعطت أوروبا لبلدان العرب، ردًّا للجميل، حملات الاستعمار التى حرصت على أن تظل بلاد العرب متخلفة.

---

(1) فى مقابل القائلين بالمعجزة اليونانية، يقول الدكتور عبد الحليم منتصر: الباحث المنصف لا يمكن أن يغفل أمر المدنيات القديمة، التى سبقت العصر الإغريقى وتقدمت عليه فى التاريخ؛ إذ لا يمكن أن تكون المدنية الإغريقية نشأت فجأة، وبمعزل عن المدنيات الأخرى من بابلية وأشورية ومصرية فرعونية. وقد كانت بين الإغريق والمصريين القدماء، صلات وتجارات وحروب.. وقد أنصف هيرودتس الملقب بأبى التاريخ، هذه الحضارات عندما قال: إن معظم فلاسفة الإغريق القدامى، أمضوا جانبا من حياتهم فى مصر وبلاد ما بين النهرين .. (تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، دار المعارف 1971، ص 2) وبخصوص تلك «المعجزة اليونانية» راجع: سارتون، تاريخ العلم (دار المعارف) 1/278، 347 .

والمخطوطة التى تدور حولها السطور التالية، وثيقةٌ من وثائق الصلة بين اليونان القديمة والعرب من ناحية، وبين العرب القدماء وأوروبا الناهضة من جهة أخرى.



فى أيام اليونان القديمة، وفى جزيرة كوس سنة 460 قبل الميلاد، ولد الطبيب الشهير أبقراط[1]. وقد تعلَّم الطب من والده، ومن غيره من أطباء الأسرة فيها؛ أسرة (إسكليبوس) التى احتكرت المعرفة الطبية، واعتبرتها موروثًا خاصًا بها، ولم تدوِّن المعارف الطبية لئلا يطلع عليها غيرهم. لكن أبقراط، سوف يخالف هذه القاعدة الأنانية، ليصبح أول مَنْ دوَّن علم الطب[2].

وقولنا إن أبقراط (أول من دَوَّن الطب) إنما ينسحب فقط على التاريخ اليونانى، ولا يجوز إطلاقه على التاريخ البشرى كله. وإلا فقد دوَّن المصريون القدماء الطبَّ، قبل أبقراط بقرون طويلة. . المهم، ترك أبقراط مجموعة كبيرة من المؤلفات، منها كتاب (تَقْدمة المعرفة) الذى نقله العرب، ضمن ما نقلوا من مؤلفات الطب اليونانى لأبقراط وجالينوس وغيرهما من مشاهير الأطباء اليونانيين، وجعلوا من (تَقْدمة المعرفة) أحد المقررات الدراسية، التى لابد أن يدرسها كل مَنْ أراد الاشتغال بالطب والتداوى. . ولا يغيب عنا هنا أن العرب كانوا قد ترجموا أيضًا الكتب الطبية الهندية، ومن بينها : كتاب شاناق فى السموم والترياق .

وتَقْدمة المعرفة تعنى التنبؤ بما سيكون عليه المرض فى المستقبل. ويُشار إلى هذا المعنى باصطلاح آخر هو: الإنذار المرضى. وكان الأطباء يعتمدون فى هذا

---

(1) للمزيد عن أبقراط، يمكن الرجوع إلى كتابنا : شرح فصول أبقراط، لابن النفيس (مقدمة التحقيق ص 17 وما بعدها).

(2) يذهب «ميشيل فوكوه» إلى أن اضمحلال الطب، بدأ مع أبقراط ! فمن خلال رؤية شاعرية، يقرر (فوكوه) ما يلى: فى فجر البشرية، كان الطب يكمن فى العلاقة المباشرة بين آلام المريض وبين ما يخفف هذه الآلام، وهذه العلاقة يحددها الإحساس وتحتمها الغريزة قبل أى تجربة. . أما الاضمحلال فقد بدأ مع الكتابة والأسرار، أى مع انتقال المعرفة الطبية إلى المتخصصين، كما جاء هذا الاضمحلال بسبب الفصل بين النظرة والقول، أو بين الرؤية والمعرفة. وباختصار، يمكن القول بأن تاريخ هذا الاضمحلال، إنما يبدأ مع أبقراط أكبر أطباء الإغريق فى العصور القديمة! ويستشهد (فوكوه) بعبارة (مسكاتى): إن الفلسفة قد تسللت إلى الطب، كما انعدمت الملاحظة، بعد أن تحول الطب إلى «نسق» على يد أبقراط (البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه، د. عبد الوهاب جعفر، دار المعارف 1989 ص 212).

الإنذار المرضى، أو تَقْدمة المعرفة، على العرافة والكهانة والتنجيم[1]، حتى جاء أبقراط، واعتمد في ذلك على الملاحظة الإكلينيكية الدقيقة ذات الطابع العلمى، فكان بذلك أحد الذين حرّروا الطب من الخرافة.

وكتاب (تَقْدمة المعرفة) عبارة عن مجموعة من الفقرات الطبية ذات الطابع الموجز، تبدأ بقوله: إنى أرى أنه من أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سابق النظر، وذلك أنه إذا سبق فعلم، وتقدّم فأنذر المرضى، كان حريًا بأن يوثق بأنه قادر على أن يعلم أمور المرضى. حتى يدعو ذلك المرضى إلى التقربة والاستسلام فى يدى الطبيب، ويكون علاجه لهم على أفضل الوجوه.

ونظرًا للطابع الاختصارى الموجز الذى يميِّز كتاب (تقدمة المعرفة) فقد أقبل الأطباء فى العصور المختلفة على شرح عباراته وتأويل مقاصده؛ لما يعطيه من إمكانية استعراض الجديد من المعارف الطبية فى كل عصر. فكل طبيبٍ، شارحٍ، يفهم النص فى ضوء ما توصّل إليه من معلومات طبية، فيضع شرحه الخاص على (تقدمة المعرفة) وكأنه يصوغ معارفه هو، ويضع تصوراته ومعلوماته الخاصة.

ومن أهم الشروح على الكتاب، شرح الطبيب اليونانى الشهير: جالينوس. وقد تُرجم هذا الشرح إلى اللغة العربية منذ وقت مبكر، وقام بالترجمة حنين بن إسحاق، بتكليف من الخليفة المأمون. أما الشروح العربية فهى كثيرة، منها: شرح ابن أبى الصادق النيسابورى، شرح أمين الدولة ابن التلميذ، شرح مهذب الدين الدّخوار، شرح عماد الدين الدُّنيْسرى، شرح يوسف بن محمد التبريزى.. وقد وضع العلامة علاء الدين بن النفيس شرحين على تقدمة المعرفة[2]. وهذه الشروح العربية، المتوالية، على كتاب (تقدمة المعرفة) فى حاجة إلى دراسة علمية تاريخية، من شأنها أن تكشف الكثير عن تطور الطب العربى[3].

---

(1) د. عبد اللطيف البدرى: التشخيص والإنذار فى الطب الأكدى (المجمع العلمى العراقى، بغداد 1976).

(2) انظر ما ذكرناه عن هذين الشرحين فى استعراضنا لمؤلفات ابن النفيس، بالدراسة المنشورة مع تحقيقنا لكتاب: المختصر فى علم الحديث النبوى (نشرة الدار المصرية اللبنانية، القاهرة) ص 50 وما بعدها.

(3) انظر ما سنقوله فى هذه النقطة بآخر الفصل التالى.

وللطبيب المسلم، موفق الدين عبد اللطيف البغدادى (المتوفى سنة 629 هجرية) شرحٌ على كتاب تقدمة المعرفة[1]. توجد منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية، تحت رقم 4751/ل. وهو مثل غالبية مؤلفات البغدادى، لم يُنشر بعد.

يبدأ البغدادى شرحه، بمقدمة يقول فيها: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين، وبعد فراغى من (شرح) كتاب بقراط المعنون بكتاب الفصول، رغب إلىَّ بعض مَنْ يجب حقُّه علىَّ.. أن أنهج ذلك المنهج فى كتاب تقدمة المعرفة؛ إذ كان تلو كتاب الفصول فى الشرف والمرتبة. فأجبتُ سؤاله، وارتسمتُ ما قاله رجاء الأجر وحُسن الذكر.. وأبتدئ بالدروس الثمينة التى جرت عادة الشُراح أن يقدموها بين يدى كل كتاب يُقصد إلى شرحه، وهى الغرض المقصود من الكتاب.

وعن غاية كتاب «تقدمة المعرفة» يقول البغدادى: فغرض بقراط فى كتابه هذا، أن يفيدنا علمًا بتقدمة المعرفة فى الأمراض الحادة، وما يتولد منها. بذكر جمل من الدلائل والعلامات على أنواعها وأشخاصها، وذلك بحسب الزمان الحاضر، والمستأنف والآنف.

ثم يقول البغدادى: إن هذا الكتاب جزءٌ عظيم الجدوى من صناعة الطب، على رأى أرباب القياس. وهو داخلٌ تحت القسم العملى من قسمى الصناعة، وهو منه فى تخوم القسم العلمى؛ إذ منه يتهيأ لتشخيص الأمراض، التى لا يمكن علاجٌ إلا بها.. أما مرتبته فإنه يجب أن يُقرأ بعد كتاب الفصول؛ لأنه مقصور على تعرُّف توابع الأمراض الحادة ولوازمها، ويجب أن يقرأ بعده كتاب الأمراض الحادة ولوازمها؛ لأنه يتضمن علاجها، وأما عنوانه فتقدمة المعرفة، وهو مُطلق لما فيه. واسمه باليونان يورغن يئطيقون، وترجمته تقدمة المعرفة. وأما تعليمه فهو طريق

(1) توجد ترجمات وافية للبغدادى فى المصادر الآتية: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص 683، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب 132/5، الأعلام 183/4، كشف الظنون 123/1 - 174، 1038/2 - معجم المؤلفين لكحالة 15/6، 400/13. وللدكتور/ بول غليونجى كتاب عن البغدادى، نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن سلسلة (أعلام العرب) وهو كتاب لطيف مفيد.

التحايل بالعكس. وأما اسم واضعه فهو أبقراط.. وهو الرجل العميق الفكر، النقى الفطنة، الفائق الفطرة، المؤيد فى قضاياه وأحكامه، المذكِّر بأحوال الطبيعة، المحدِّث عنها بما فيها. وقد وصفه جالينوس وأحسن، فقال إن جالينوس أدَّبه الدرس، وبقراط أدَّبته الطبيعة. وقال مرة أخرى، إن أبقراط انغمس فى الطبيعة وسرى معها، حتى انتهى إلى أعماقها، وأخبر عما شاهد هناك»[1].

وسار البغدادى فى شرحه على طريقة: (قال.. أقول). حيث يورد الفقرة من كلام أبقراط، مسبوقة بعبارة: قال أبقراط، ثم يضع شرحه على الفقرة. وهو يلجأ أحيانًا لطريقة الشرح الممزوج، وفيه يُورد الكلمة الواحدة، ويعقبها بعبارة شارحة. والجمع بين هاتين الطريقتين، أمر غير معتاد فى الشروح، والمعتاد أن يلتزم الشارح، بطريقة واحدة. ومن أمثلة الجمع بين الطريقتين، ماورد فى شرح البغدادى على التعليم (العشرون) من تقدمة المعرفة، حيث نجد فى المخطوطة ما نصه:

قال أبقراط: وقد ينبغى أن يُسْتَدلَّ على مَنْ يَسْلم، وعلى مَنْ يعطب من الصبيان ومن غيرهم، كما يتبين من أمر كُلِّ واحد من الأمراض.

قال الشيخ: ابتدأ (أبقراط) من هذا التعليم إلى آخر الكتاب، فى وصايا نافعة للطبيب، تفيده التحذُّق والاستقصاء. ولا يُهمل منها ولو اليسير، ولا يغفل ولو عن الحقير، وينظر الأمر من جهاته كلها.. إلخ.

تلك هى الطريقة الأولى، ومن الطريقة الثانية قوله فى المخطوطة:

قوله (أى قول أبقراط): **وينبغى أن تتفطن بسرعة دائما لحدوث الأمراض** أى الأمراض الوافدة، من قبل اختلاط الهواء فى فصول السنة، فإن بعض الفصول

---

(1) من المبادئ الطبية المهمة التى نادى بها أبقراط، قوله ما معناه: دع الطبيعة تعمل.. وقد تابعه فى ذلك الأطباء المسلمون، يقول ابن النفيس: ينبغى ألا تعوِّد الطبيعة الكسل، بأن تعالج كل انحراف عن حال الصحة، وحيث أمكن التدبير (العلاج) بالأغذية، فلا تعدل إلى الأدوية، وإنا لا نؤثر على الدواء المفرد دواء مركبًا، لكنا قد نضطر إلى التركيب. وفى ضوء هذه الأبقراطية المؤثرة فى الأطباء العرب، لا يمكن أن نتفق مع تلك الرؤية (الشاعرية) التى يقررها (ميشيل فوكوه) بقوله: إن انحطاط الطب بدأ مع أبقراط.

قد يولِّد أمراضًا، ويكون سببًا لشفاء أمراض أُخر.. وقوله: بسرعة أى قبل فوات الأمر بقضائه (وفاة المريض). وقوله: دائمًا أى فى كل مرض.

* * *

وبعد.. فها هى صفحةٌ أخرى من تراثنا الطبى المهجور، الذى سبق أن استفادت منه أوروبا[1]. وهى لا تزال تنتظر اليوم الذى تمتدُّ إليها فيه يد باحثينا للدراسة والتحقيق والنشر.. فهل سيأتى هذا اليوم قريبًا؟

(1) ترجمت هذه المخطوطة، مع غيرها من مؤلفات الأطباء العرب، إلى اللاتينية فى فجر النهضة الأوروبية (الرينسانس).

كتاب
تقدمة المعرفة لبقراط
وتفسيره
للشيخ الامام الفاضل
أبى الفضل عبد اللطيف
ابن يوسف بن محمد
البغدادى
رضى الله
عنه



٢

غلاف المخطوطة
(نسخة دار الكتب المصرية)

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين
محمد وآله الطاهرين
وبعد فراغي من كتاب بقراط المعروف بكتاب الفصول
رغب الي بعض من يجب حقه علي من خلصت مودته
وصدقت رغبته وجبلت على اظهار الفضيلة طينته
ان انهج ذلك المنهج في كتاب تقدمة المعرفة اذ
كان تلو كتاب الفصول في الشرف والمرتبة فاجبت
سؤاله وارتسمت ما قاله رجاء الاجر وحسن الذكر
وابتدئ بالدروس الثمنية التي جرت عادة الشراح
ان يقدموها بين يدي كل كتاب يقصد الى شرحه
وهي الغرض المقصود من الكتاب ومنفعته في غيره
ونسبته الى اجزائه الكبار والصغار ونسبته ورتبته
وعنوانه ونحو تعليمه فان كل واضع كتاب على
جهته المعدلة والطريق الانسانية فقصده تسهيله على
المتعلم من ثلاثة اوجه الاول ان يجتنب اللفظ
الوحشي والملبس والمغلط ويجتهد ان يصور المعنى

الورقة الأولى

ان يكون بحران بهما جميعا فان امتدت الاوجاع
في الاخرين فيتوقع الرعاف اقل والمدة .
مادة فيتوقع الخراج في النواحي السفلية لغلظ المادة
ورسوبها حتى مثل العلامات المأخوذة من الوجه والنكهة
والوضع وغير ذلك
قوله ان تدبرتها وميزتها اي بحسب مرض مرض في
طوله وقصره وأثبت كل واحد منهما حقه في تقدمة
المعرفة عليه من هذه العلامات والدلائل المذكورة
فان انسى هو تامله من كل جهاته وفوره قائما في
الذهن عن كل ما عداه .
واما التدبير فهو حسن التامل لذلك لئلا يقع فيه غلط
او سهو وغفلة والله اعلم بالصواب
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي
الامي وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا .

تم وقف القراءة من نسخ الجزء الاول من تقدمة المعرفة لبقراط
في يوم الثلاثاء ٢ رجب ١٣٣٦ هـ الموافق ١٠ اغسطس ١٩١٨ م
نقلا عن نسخة خطية محضرة من مكتبة الدكتور ماكس مايرهوف
طبيب العيون . ونسخ ذلك الراجي عفو مولاه محمود صدقي الناسخ
بدار الكتب المصرية .



الورقة الأخيرة
(وتظهر عليها أختام دار الكتب المصرية)

# الفصل السادس عشر

# (مخطوطة طبية)

# شَرْحُ فُصُول أَبُقْرَاط

لابن أَبِي صَادِق

رأينا فى الفصل السابق كيف اعتنى الأطباء العرب، عنايةً كبيرةً، بكتب أبقراط الطبية. وقد كانوا يلقبونه بلقب (الفاضل) اعترافًا منهم بفضله فى تطور علم الطب، وتقديرًا لمكانته العلمية. ومؤلفات أبقراط التى ترجمت قديمًا للعربية عديدةٌ. لكن أشهرها على الإطلاق، كتاب **الفصول** وهو مجموعة حِكَمٍ طبية موجزة، أودع فيها أبقراط خلاصة معارفه الطبية.

ولما كانت **فصول أبقراط** من المقررات الدراسية الأساسية، فى مدارس الطب العربى. فقد عمد إلى شرحها للطلاب والعامة عددٌ كبيرٌ من مشاهير الأطباء العرب. فشرحها كُلٌّ من: على بن رضوان المصرى، يوسف بن حاسداى، موسى بن ميمون، يوسف بن مائير، مهذب الدين الدَّخوار، ابن القف الكركى، ابن النفيس، محمد العطار، صدقة بن مُنجا، برهان الدين الكرمانى، المظفرى، عماد الدين البَقّال، ابن الطيب، ابن علوان، أحمد الكيلانى، عز الدين بن جماعة، السيواسى، المنادى، البغدادى. كما شرحها أيضًا، العلاّمة ابن أبى صادق النيسابورى، الملقب فى زمانه بأبقراط الثانى.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن جميع هذه الشروح التى تعكس المعرفة الطبية فى عصور مؤلفيها، لا تزال جميعًا فى نسخها الخطية! ولم ينشر منها إلا شرح ابن النفيس، الذى كان لى شرف تحقيقه ونشره[1]، ضمن مجموعة مؤلفات ابن النفيس التى أعكف منذ سنوات على إصدارها فى طبعات محقَّقة[2].

(1) بمشاركة الدكتور ماهر عبد القادر محمد على.

(2) صدر منها حتى الآن أربعة كتب: شرح فصول أبقراط، رسالة الأعضاء، المختصر فى علم الحديث النبوى، المختار من الأغذية .. ثم أصدرت الموسوعة الكبرى لابن النفيس (الشامل فى الصناعة الطبية) فى ثلاثين جزءًا.

وعن الطبيب الكبير، ابن أبى صادق، يقول أشهر مؤرخى الطب العربى: ابنُ أبى أُصيبعة، فى كتابه (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) ما نصه: هو أبو القاسم عبد الرحمن بن على بن أحمد بن أبى صادق النيسابورى، طبيبٌ فاضلٌ بارعٌ فى العلوم الحكيمة، كثير الدراية للصناعة الطبية، له حرصٌ بالغ فى التطلُّع على كتب جالينوس وما أودعه فيها من غوامض صناعة الطب وأسرارها، شديد الفحص عن أصولها وفروعها. كان فصيحًا، بليغ الكلام، وما فسَّره من كتب جالينوس، فهو فى نهاية الجودة والإتقان.. وحدثنى بعض الأطباء، أن ابن أبى صادق كان قد اجتمع بالشيخ الرئيس (ابن سينا) وقرأ عليه، وكان من جملة تلامذته والآخذين عنه. وهذا لا أستبعده، بل هو أقرب إلى الصحة، فإن ابن أبى صادق لحق زمان ابن سينا، وكان فى بلاد العجم، وسُمعة ابن سينا كانت عظيمة، وكذلك غزارة علمه وكثرة تلامذته. وكان أكبر من ابن أبى صادق، قدرًا وسنًّا. ولابن أبى صادق من الكتب: شرحُ كتاب المسائل فى الطب لحنين بن إسحاق، شرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط، شرح كتاب منافع الأعضاء لجالينوس، حلُّ شكوك الرازى على كتب جالينوس، شرح كتاب الفصول لأبقراط[1].

ويُعرف شرح ابن أبى صادق على الفصول بعنوان: أوفر الشروح، لما له من قيمة تفسيرية، وإضافات كثيرة على النص الأبقراطى. وقد توفرت النسخ المخطوطة من هذا الشرح، وتناثرت فى معظم خزائن المخطوطات فى العالم. وفى دار الكتب المصرية وحدها، ستُّ نسخ خطية من هذا الكتاب، أقدمها نسخًا مؤرَّخ بسنة 604 هجرية. بالإضافة إلى عدة نسخ خطية أخرى موزعة على مكتبات: الظاهرية بدمشق، متحف الآثار ببغداد، دار العلوم بديوبند، الجامعة الأمريكية ببيروت، دير الإسكوريال بإسبانيا.. وغير ذلك.

وهناك مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 4751/ل، وهى تحمل العنوان التالى: الجزء الثانى من كتاب تقدمة المعرفة لبقراط وتفسيره للشيخ الإمام الفاضل عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادى. ولكن باطلاعنا عليها، تبين أنها نسخةٌ من

(1) عيون الأنباء، ص 461.

شرح ابن أبى صادق على فصول أبقراط . . وعلى كل حال، فإن هذا الأمر يتكرر كثيرًا فى عالم المخطوطات؛ إذ يُخطئ النساخ والمفهرسون كثيرًا فى نسبة المخطوطة لصاحبها. فأحيانًا ينسبونها إلى مؤلف آخر، وأحيانًا يضعونها تحت عبارة «لمؤلف مجهول» إذا عجزوا عن معرفـة مؤلفها. وأذكر أننى حين نويتُ إخراج مجموعة مؤلفات ابن النفيس وتحقيقها، قمت بمراجعة جميع المخطوطات مجهولة المؤلف فى دار الكتب المصرية، فإذا بى أجد مخطوطتين لابن النفيس: رسالة الأعضاء، المختصر فى علم الحديث النبوى. لم يذكرهما فهرس المكتبة أصلًا، مع أنهما نسختان نفيستان، بخط المؤلف! ومن هنا نقول بضرورة مراجعة فهارس المخطوطات فى المكتبات الكبرى، والتحرِّى عن صحة المعلومات الواردة فيها.

وفى مخطوطة دار الكتب المصرية التى أشرنا إليها، يبدأ النص بما يلى: قال الشيخ الإمام، أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى صادق، رحمه الله تعالى: أما بعد حمدًا لله بجميع محامده، والثناء عليه بما هو له أهل، والصلاة على نبيه . . وقد مهد ابن أبى صادق لشرحه على كتاب الفصول، بمقدمة تمهيدية تعرِّض فيها لبيان شرف الطب بعامة، وأهمية كتاب **الفصول** بصفة خاصة، فقال ضمن كلامه: وإذا كانت الصناعات والعلوم تتفاضل بحسب شرف الموضوع، وفضيلة الكمال، ووثاقة البراهين المستعملة فيها. كان لهذا العلم (الطب) أعظم الرتب من طلابها، فبالأحرى أن يكون له القسط الأوفر من الشرف والفضيلة. وقد كان من كل المتقدمين والمتأخرين، ممن تكلَّموا فى الطب، أن يدونوا لمن بعدهم جملا وجوامع من أصوله. وإن كتاب الفصول لأبقراط أفضلها كلها، لأنه من أوجز الكتب المصنفة فى هذا الباب، وأكثرها حصرًا للفصول، وهى دساتير وقوانين للعالمين فى أبوابها. وهو أحد الكتب، التى لابد لمن يريد الإلمام بهذه الصناعة، أن يحفظه. إذ كان كل فصلٍ منه، يتضمن أصلًا من الأصول، يشبه أن لا يكون قد صدر عن صاحبه (أبقراط) إلا بتأييد سماوىٍّ وتوفيقٍ إلهى. . وقد سبق جالينوس بتفسير هذا الكتاب، تفسيرًا تامًا فى معناه. ونحن غرضنا أن يستقيم ما قاله، ونضيف إليه ما أغفله مما قد استفدناه منه فى مواضع أُخر. وإن غرض أبقراط بهذا الكتاب، هو أن يجمع فيه

أصول الطب، وأن يستثمر به ما قد جمعه فى كتبه الأخرى. وهذا ظاهرٌ لمن تأمل فصوله، فإنها تنتظم جُملًا وجوامع من كتابه فى «تقدمة المعرفة» وكتاب الأهوية والبلدان، وكتاب الأمراض الحادة، ونُكتًا وعيونًا فى كتابه المعروف بأبيديميا (الأوبئة) وفصولًا من كتابه فى أوجاع النساء.

وبعد هذا التمهيد وتلك التوطئة، يشرع ابن أبى صادق فى شرح الفصول الأبقراطية، فصلًا فصلًا، فيضع من معارفه الخاصة وخبراته الطبية شيئًا كثيرًا.. ونكتفى هنا بمثالٍ وحيد، هو شرح الفصل الأول، حيث يرد فى المخطوطة على النحو التالى: قال أبقراط: العُمر قصير، والصناعةُ طويلة، والوقتُ ضيق، والتجربةُ خطر، والقضاءُ عسر، وقد ينبغى لك أن لا تقتصر على توخِّى فعل ما ينبغى دون أن يكون ما يفعله المريض، ومن يحضره كذلك، والأشياء التى من خارج. الشرح: يمكن أن تُحمل معانى هذه الكلمات فى هذا الفصل، على وجهٍ أعم وأكثر كلية. ويمكن أن تُحمل على وجه أخص بصناعة الطب، وذلك هو غرض أبقراط.. وحمله على الوجه الكلى، هو أن عمر الإنسان، وهو مدة بقاء النفس مع الجسم، قصيرٌ بالإضافة إلى سائر الصنائع النظرية؛ لأن عمر الإنسان منقطعٌ فى نفسه، والعلوم والصنائع النظرية ممتدة إلى غير المتناهى. ومن البيِّن أن المتناهى، لا يساوى غير التناهى. وأيضًا، من البيِّن أن مدة عمر الواحد، لا تفى باستنباط قوانين شىء من الصنائع النظرية أجمع، إلا أن يحصِّل ما استنبطه من تقدمه، ثم يضيف إليه ما يحصله من عنده.. وأما ضيق الوقت، فعنى به وقت التعليم، فإنه يسيرٌ ضيقٌ. وذلك أن الإنسان منهمكٌ طول مدة بقائه، بأمور اضطرارية وغير اضطرارية، تحول بينه وبين التعلُّم، فيضيق وقت التعلم لذلك.. وأما عسر القضاء، وهو القياس. فلأن صناعة الطب فى نفسها شاقةٌ عسرة، ثم تحصيل سائر الصنائع النظرية على العموم، مما لا يخفى عُسره وصعوبته. أما الخطر فى التجربة، فإن التجربة على وجهين.. إلخ.

وهكذا يتتبع ابن أبى صادق كلمات الفصل الأبقراطى، فيفسِّرها كلمةً كلمة، ثم يضع فى النهاية تفسيره لمُجمل الفصل. وفى أثناء ذلك، نراه يناقش آراء جالينوس

والرازى وغيرهما من الأطباء، ويقرر رأيه الخاص ويدعمه بالشواهد الدالة على صحته. وهو ينهى شرحه، بالإشارة فى الصفحة الأخيرة، إلى أن (الفصول) فيها ما هو عويصٌ غامض، وما هو سهلٌ واضح، وما هو مدلّسٌ ومدسوس على أبقراط، فيقول: أما الفصول العويصة فى هذا الكتاب، التى انتظمت ضرباً من الغموض، فقد بالغنا فى شرحها. وأما الفصول السهلة، فقد لخصنا ما قاله فيها (جالينوس) وألحقنا به ما يزداد بذلك بياناً ووضوحاً.. وأما الفصول المدلّسة والتى قد أعيد ذكرها بآخر الكتاب، فتركنا ذكرها. شفقةً على فوت الزمان، بما لا يجدى نفعاً.

وإذا كانت مخطوطة (شرح فصول أبقراط) لابن أبى صادق، هى واحدة من عشرات الشروح العربية على الفصول، وهى الشروح التى دوّنها الأطباء العرب طيلة القرون الممتدة من القرن الرابع حتى القرن العاشر الهجرى؛ فإن دراسة هذه الشروح وفحصها بطريقة مقارنة، هو كما أسلفنا، أمرٌ من شأنه أن يظهر لنا طبيعة التطور الطبى العربى، طيلة هذه القرون الستة؛ إذ إن كل شارح للفصول كان يعكس فى شرحه طبيعة المعرفة الطبية فى عصره.. فلعل باحثاً يقوم بإنجاز هذا البحث المقارن، فيضيف إلى معرفتنا بتطور الطب العربى، ملمحاً مهماً من ملامح هذا التطور.

بسم الله الرحمن الرحيم ثقتي الله

قال الشيخ الامام ابو القاسم عبد الرحمن بن ابي صادق
رحمه الله تعالى. اما بعد حمد الله بجميع محامده
والثناء عليه بما هو له اهل والصلاة على نبيه ان
العناية التي تبعث الخلق على اقتناء باب من ابواب
العلوم لمن اشرف الفضائل الانسانية سيما ما كان
الناس كافة امس حاجة اليه من غيره كعلم الطب
فان من البين عند الكافة ان العافية راس النعم
التي انعم بها على الانسان واولها واجلها قدرا
ولذلك فليس تهنى مملكة ملك ولا تطيب ثروة لمثرى
مع فقدان الصحة التي هي غاية المطلوب بهذا العلم
وهي اشرف غاية يتمناها الانسان في هذا العالم ان
يضاف الى شرف هذه العناية شرف الموضوع الذي
هو البدن الانساني اذ هو اشرف موجودات هذا العالم
ويقترن شرف موضوع هذا العلم وشرف كماله وثاقة
البراهين المستعملة فيه فان القوانين الطبية اجماع
برهانية وليس يستعمل فيها الحدس او التقريب الصناعي
الا في بعض التجارب التي تخرج الى الفعل. واذا كانت
الصناعات والعلوم تتفاضل بحسب شرف الموضوع وفضيلة
الكمال .. البراهين المستعملة فيها ثم كان لهذه
من طلابها فاحرى ان يكون له

الصفحة الأولى من المخطوطة
(نسخة دار الكتب المصرية رقم 4751/ل)

شئ الا النذر الذى يوجد لتضاد عناصره وذلك
القدر لا يؤثر فيه اكثر من القضف الذى ينا له
ان يعود الى الاغتذاء ثانيا .

## فصل

اما الفصول العويصة فى هذا الكتاب التى انتظمت ضربا
من الغوص فقد بالغنا فى شرحها ما لم يبق بحسب
ظنى فى شئ منها موضع اشكال بعد ان جعلنا
كلام جالينوس فيها كلها اصلاً وقانونا .
واما الفصول السهلة فقد لخصنا ما قاله فيها فيما
قبل ما مضى منها فصل الاول وقد الحقنا به ما ازداد
بذلك بيانا ووضوحا مما كنا قد اخذناه منه فى
كتبه الاخر فان من غوص فى شرح جزء من اجزاء
الطب فقد سبق جالينوس فخص عنه بعينه فهو فى
كل ذلك غارف من بحره ومقتفى اثر سعيه ومنزلته
فى ذلك عندى منزلة ناقل التمر الى هجر وجالب اللبن
الى عدن .
واما الفصول المدلسة والذى قد اعيد ذكرها فى آخر
الكتاب فتركنا ذكرها شفقة على فوت الزمان عما
لا يجدى نفعا والله اعلم بالصواب



الورقة الأخيرة

(وعليها ختم دار الكتب المصرية)

# الفصل السابع عشر

# (مخطوطة فلكية)

## صُوَرُ الكَواكِبِ الثَّمانِية والأرْبَعين

## للصُّوفي

لم ينل عبد الرحمن الصوفى (أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر ، الرازى) ما يليق به من اهتمام ، سواء لدى القدماء أو المحدثين . فالمصادر القديمة لا تكاد تذكر عنه ، إلا القليلَ الذى لا يشفى الغليل . ففى كتاب: أخبار الحكماء ، لا نجد غير الفقرة التالية : عبد الرحمن بن عمر ، الفاضلُ الكامل النبيه النبيل ، صاحب الملك عضد الدولة فناخسروشاهنشاه بن بويه ، مصنِّفُ الكتب الجليلة فى علم الفلك . وكان من أهل نسا ، فارسى النسبة ، ولد بالرى ، وكان عضد الدولة يقول إذا افتخر بالعلم والمعلمين: معلمى فى النحو أبو على الفارسى النسوى ، ومعلمى فى الزيج الشريف بن الأعلم ، ومعلمى فى الكواكب الثابتة وأماكنها وسيرها الصوفى . ومن تصانيفه: كتاب الكواكب الثابتة ، مصوراً ، كتاب الأرجوزة فى الكواكب الثابتة ، مصورا ، كتاب التذكرة ومطارح الشعاعات . قال هلال بن المحسن فى كتابه: فى سنة 376 فى الثالث من المحرم ، توفى أبو الحسن عبد الرحمن بن عمر الصوفى منجم عضد الدولة ، وكان مولده بالرى فى الليلة التى صبيحتها يوم السبت 14 محرم سنة 291 هجرية[1].

ولا توجد ، باستثناء الفقرة السابقة ، أية معلومات فى كتب المؤرخين والمترجمين القدامى ، عن هذا العالم الفلكى . مما جعل معرفة تفاصيل حياته وأوقاته ، أمراً مستحيلاً . وكذلك الأمر ، بالنسبة لسبب لقبه (الصوفى) فمن غير المعروف لنا؛ إن كان ذلك لاشتغاله بالتصوف . أم هى نسبة إلى غير ذلك ، كأن يكون منتسباً إلى قبيلة صوفة العربية! لكن أصله الفارسى يستبعد انتسابه إلى تلك القبيلة العربية . فلا يبقى إلا الترجيح بأنه كان من أهل التصوف ، خاصةً أن التصوف فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، كان منتشراً ببلاد فارس . وكان لفرقة (الملامتية) الصوفية شأنٌ كبير فى (الرى) التى نشأ فيها أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى .

(1) القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء (دار الآثار ، بيروت) ص 152 ، 153 .

وكما سكتت المصادر القديمة عن ذكر المزيد من المعلومات حول الصوفى، اكتفت المصادر المعاصرة بالإشارة إلى مكانته العلمية وقيمة مؤلفاته، التى بقيت لحسن الحظ حتى يومنا هذا. فمن تلك الإشارات، قول جورج سارتون: الصوفى من أعظم فلكيِّى الإسلام[1]. وقول الدوميلى: وكان الصوفى من أعظم الفلكيين العرب، الذين ندين لهم بسلسلة دقيقة من الملاحظات المباشرة[2]. أما كتب تاريخ العلوم العربية، التى دوَّنها الباحثون العرب المحدثون، فهى على كثرتها -وكعادتها- لا تضيف جديدًا إلى معلوماتنا عن الصوفى! وهى تكتفى بنقل المديح عنه، وعن إسهاماته الفلكية، من دون تفصيل.

وفى الخامس من أكتوبر سنة 1987، ولثلاثة أيام تالية، انعقد فى الجامعة الأردنية مؤتمر بعنوان (الصوفى وابن النفيس) فألقت بحوث هذا المؤتمر بعضَ الضوء على هذه الشخصية العلمية المرموقة، وأعادت إلى الصوفى اعتباره بعد ألف عام من وفاته. وفى الكلمة الافتتاحية لهذا المؤتمر، ورد ما يلى[3]: جاء الصوفى فى القرن العاشر الميلادى، حين كانت الحضارة العلمية العربية فى دور النمو. وقد وجد أن العلماء العرب تعروهم الحيرة فى كتاب (المجسطى) الذى وضعه بطليموس فى القرن الثانى الميلادى. فالنسخ التى عثروا عليها بعد ثمانية قرون، باليةٌ، مليئةٌ بالأخطاء. وهنا انبرى الصوفى، فأخذ يقيس نجوم السماء طولًا وعرضًا، ويُعيِّن مواقعها وأقدارها وألوانها. حتى أصبح لدى العلماء العرب، ما يشبه الأطلس الدقيق الذى يهتدون به فى دراستهم. وقد وجد فى أثناء قياساته هذه، أن بطليموس كان مخطئًا فى كثير من القياسات التى قام بها، فصحَّح ما وجد من أخطاء، وخرج بكتاب: صور الكواكب الثمانية والأربعين.

وفى هذا الكتاب، نجد الصوفى قد أعاد الأسماء العربية القديمة، المعروفة منذ الجاهلية، إلى حظيرة العلم. وحدَّد النجوم التى تشكِّل منازل القمر الثمانية

(1) G.Sarton:Introduction to History of Science 1,665.

(2) الدوميلى : العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى (الترجمة العربية) ص 213 .

(3) د. عبد الرحيم بدر : محاضرات مؤتمر الصوفى وابن النفيس (دار الفكر، بيروت، دمشق 1991 ) ص 14.

والعشرين، وقد كان أول مَنْ وصف المجرة السحابية في المرأة المسلسلة (مجرة أندروميدا) وسماها اللطخة السحابية. مع العلم أن أول من وصفها من الأوروبيين كان سيمون ماريوس، سنة 1612م.. إن تقدير الصوفى لم ينشأ عند العرب والمسلمين وحدهم، بل كان الإمام عند العلماء الغربيين أيضًا، فعندما اكتُشف المرقب (التليسكوب) فى مطلع القرن السابع الميلادى، وأخذ الغرب يسمى فوهات القمر، لم يَنْسَ هؤلاء العلماء أن يسموا فُوَّهةً باسم الصوفى.

وفى هذا المؤتمر، وحول مكانة الصوفى العلمية، ألقى المستشرق الألمانى باول كوينتش بحثًا بعنوان: آثار الصوفى فى الشرق والغرب. فكان من أجود البحوث وأكثرها ارتباطًا بموضوع المؤتمر، وقد استهلَّه بقوله: من المعلوم أنه كانت للعرب القدماء معرفة جيدة بالسماء والكواكب، استدلوا بها على المواسم والأزمان، واهتدوا بها فى نقلاتهم فى البر والبحر. وتعرَّف العرب بعد فتوح بلدان الشرق الأوسط إلى علوم اليونان، وترجموا كثيرًا من كتبهم العلمية. ومن بينها الكتب الفلكية، التى أهمها كتاب المجسطى لبطليموس القلوذى، المؤلف حوالى السنة 150م، والذى حظى بعدة ترجمات عربية فى أواخر القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. ومن كبار الفلكيين الإسلاميين، أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفى، الذى ولد فى الرى (قرب طهران) سنة 291.. وترك الصوفى عددًا من المؤلفات فى ميادين علم الفلك والآلات الفلكية وعلم أحكام النجوم وعلم الهندسة، تبقى منها إلى اليوم بحسب إحصاء فؤاد سيزكين فى تأليفه حول الكتابات العربية[1]، ما يلى:

1- رسالة فى عمل أشكال متساوية الأضلاع.

2- كتاب صور الكواكب.

3- كتاب العمل بالاسطرلاب[2].

4- كتاب العمل بالكرة الفلكية.

---

(1) الإشارة إلى موسوعة (تاريخ التراث العربى) لسيزكين، وقد ترجمت مؤخرًا للعربية، ونشرت فى عدة مجلدات بالسعودية!

(2) الاسطرلاب: آلة فلكية تستخدم فى الرصد.

5- كتاب المدخل إلى علم النجوم وأحكامها.

6- رسالة في تصحيح طالع عضد الدولة.. هذا بالإضافة إلى بعض التصانيف الأخـرى، التي لا نعرف منها إلا عناوينها، ولم يعثر له إلى الآن على مخطوطات. وأضيف هنا، أن الصوفي مع أنه ولد في إيران، وقضى كما يبدو معظم حياته هناك، في ظل حكام أسرة البويهيين؛ إلا أنه ألَّف كتبه كلها باللغة العربية. وبالتالي، فهو من مجموعة العلماء التابعين للحضارة العربية الإسلامية، بمعناها الأوسع الشهير.. ولم يقتصر نشاط الصوفي العلمي على التأليف فقط، بل يبدو أنه قام كذلك بصنع الآلات الفلكية بنفسه. وقد انفرد الصوفي بين العلماء الفلكيين العرب والإسلاميين، في علم الكواكب الثابتة. وأصبح في هذا العلم قطباً لمعاصريه، ولكل الأجيال اللاحقة. وأصبح أهم مؤلفاته وأشهرها وأوسعها تأثيراً في الشرق والغرب، كتابه في صور الكواكب الثمانية والأربعين[1].

ويمضي المستشرق الألماني، فيستعرض أثر الصوفي في اللاحقين عليه من العلماء المسلمين، كالبيروني في كتابه (التفهيم) وابن الصلاح في رسالته (سبب الخطأ والتصحيف) والقزويني في (عجائب المخلوقات) ثم يقول: وأدت شهرةُ كتاب الصوفي (صور الكواكب) وأهميته عند الفلكيين، إلى عدد من الترجمات إلى الفارسية، وإلى التركية أيضاً. وأشهر من ترجم كتاب الصوفي إلى الفارسية، العلامة المعروف نصير الدين الطوسي[2].. وبعد ذلك استعرض باول كونيتش أثر كتاب (صور الكواكب) في الأوروبيين، عبر خمس نقاط للتعرف المباشر إلى كتاب الصوفي، موزعة على القرون: من الثالث عشر، إلى التاسع عشر الميلادي، مشيراً إلى وجود ثماني مخطوطات لاتينية تحوي (المجموعة الصوفية اللاتينية) بالإضافة إلى (كتب الحكيم في علم الفلك) وغير ذلك.. وهو ينتهي من البحث، بقوله: إن الصيغة اللاتينية لاسم الصوفي، وهي AZOPHTI شاعت فيما بعد، وحازت شهرة

(1) باول كوينتش : آثار الصوفي (محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس) ص 207 .
(2) المرجع السابق ص 212.

واسعة، وأُطلقت على فوهة بالقمر منذ سنة 1515، وأصبح للصوفى مكان على وجه القمر، وحاز اسمه شرف التخليد فى عالم العلم إلى الأبد[1].

* * *

ونأتى إلى كتاب الصوفى (صور الكواكب) فنرى الكتاب يبدأ بمقدمة يؤرِّخ فيها الصوفى للبحوث الفلكية السابقة عليه وينتقدها، فيقول: إنى رأيت كثيرًا من الناس يخوضون فى طلب معرفة الكواكب الثابتة، ومواقعها من الفلك، وصورها. ووجدتهم على فرقتين. . إحداهما تسلك طريق المنجمين، ومعوَّلها على كرات مصورة، من عمل مَنْ لم يعرف الكواكب بأعيانها، وإنما عوَّلوا على ما وجدوه فى الكتب من أطوالها وعروضها، فرسموها من غير معرفة بصوابها من خطئها، فإذا تأملها من يعرفها، وجد بعضها مخالفًا. وأما الفرقة الأخرى، فإنها سلكت طريقة العرب فى معرفة الأنواء ومنازل القمر، ومعوَّلهم على ما وجدوه فى الكتب المؤلفة فى هذا المعنى .

ثم ينتقد الصوفى الفلكيين السابقين، فيقول عن البتانى: فإنا تأملنا نسخًا كثيرة لكتاب المجسطى، ووجدنا بعضها يخالف بعضًا فى كواكب كثيرة، وطلبنا ذلك فى كتاب البتّانى، وفيما ادَّعاه من الرصد، فوجدناه قد أسقط كل كوكب فيه أدنى خلاف بين النسخ، فأسقط كواكب كثيرة من القدر الثالث والرابع، وأثبت كثيرًا من القدر الخامس والسادس، ثم ذكر أنه رصد كوكبة الرامى، وأنه وجد موضع الكواكب الذى على عرقوبه المتقدم الأيسر فى القوس ثمانىَ وعشرين درجة ونصفًا. . والدليل على أنه لم يرصده، ولم يعرفه، ولا غيره من المنجمين ممن ألفوا الزيجات واتخذوا الكرات ورسموا فيها الكواكب؛ أنهم أثبتوا هذا الكوكب فى كتبهم وعلى الكرات من القدر الثانى، وهذا الكوكب هو من القدر الرابع، من أصغره، وهو تحت الإكليل الجنوبى. لكن الصوفى كعادة العلماء العرب فى التأدب مع السابقين، نراه بعد أن صحَّح الخطأ، يقول: ولعل بعض النقلة أو الوراقين أثبتوا لهذين الكوكبين فى الأقدار، فغلط الورَّاق فأثبتهما فى القدر الثانى، أو لعل الخطأ وقع فى نسخة الأصل،

(1) من الأمور العجيبة، أن العرب المعاصرين يشيرون إلى هذه الفوهة القمرية باسم: فوهة أزوفى! وكأنهم يصرون على نفى قيمة أجدادهم، حتى بعدما اعترف بها الغرب .

ولم يكن بعد بطليموس، مَنْ عرف هذه الكواكب.. ولم ينفرد الصوفى بهذا الملمح النقدى، فكثيرًا ما نرى العلماء العرب المسلمين يسلكون ذات النهج. فإذا وجد ابن النفيس مثلًا، بعض الأخطاء فى كتابات أبقراط، نراه يقوم بتصحيح الخطأ، ويعقب عليه بقوله: ولا نظن أنه يقع فى ذلك، فالأرجح أنه من عمل النُّسَّاخ.

ويستكمل الصوفى نقد السابقين، فيقول عن عطار الحاسب، أحد مشاهير علم الفلك فى الإسلام، ما نصُّه: ووجدنا كتابًا بخطه، قد صوَّر فيه الصور الثمانى والأربعين، يذكر فيه أنه صوَّرها بعد أن بلغ النهاية فى عملها ومعرفتها، ووضع هذا الكوكب الذى على عرقوب الرامى من القدر الثانى، أيضًا، على ما وجده فى الكتب. وذكر أن الرامى وجهه إلى جهة المشرق، وصوره فى كتابه كذلك، فدلَّ على أنه لم يعرف الرامى، ولا القوس.. ويقول عن علىِّ بن عيسى: ووجدنا فى كرة عظيمة الشأن من عمل على بن عيسى الحرانى، قد رسم الكوكب الخامس الذى على جناح العذراء الأيسر فى الوجه، فى ناحية الشمال عن الكوكب الرابع الذى على الوجه. وذلك خطأ، لأن عرض هذا الكوكب الذى على الجناح، هو فى ناحية الشمال عشر درجات. والذى على الوجه عرضه فى الشمال، خمس درجات ونصف. فوجب أن يكون الذى على الجناح الأيسر، أميل إلى الجنوب، عن الذى على الوجه، خمس درجات وثلث درجة.. ويقول عن أبى حنيفة الدِّينَورى: وقد كنت أظن بأبى حنيفة، أن له رياضة بعلم الهيئة والرصد. فقد كنت بالدينور فى سنة 335 من سنى الهجرة، وحكى لى جماعة من المشايخ، أنه كان يرصد الكواكب سنين كثيرة. فلما ظهر تأليفه، وتأملت ما أودعه كتابه، علمت أن الذى كان يراعيه، إنما كان طلب الظاهر المشهور من الكواكب، وما كان يجده فى كتب الأنواء من ذكر المنازل وما أشبهها[1].

ويختتم الصوفى انتقاداته وتصحيحاته بقوله: ولما رأيت هؤلاء القوم، مع ذكرهم فى الآفاق وتقدمهم فى صناعة واقتداء الناس بهم، قد تبع كل واحد منهم مَن

(1) راجع مقدمة كتاب (صور الكواكب) للصوفى. وانظر أيضا، بحث الأستاذ محمد على الزركان: عبد الرحمن الصوفى وأسلوبه فى التأليف (ضمن محاضرات مؤتمر الصوفى وابن النفيس، ص 263 وما بعدها).

تقدّمه، من غير تأمل لأخطائه بالعيان والنظر، ووجدت فى كتبهم من التخلف.. عزمت على إظهار ذلك وكشفه. ثم يعرض فى بقية الكتاب، لمواقع الكواكب، استنادًا لأرصاده الدقيقة. مع تزويد النص بالجداول الفلكية والرسوم الجميلة، التى تصور الكواكب على ما يُرى فى السماء، وعلى ما يُرى فى الكرة، مع بيان اسمه ورمزه.. فكان الصوفى بذلك هو صاحب الفضل فى تصويب الحسابات الفلكية السابقة. وصاحب الفضل الأول فى حساب سديم الأندروميدا والنيكبولا العظمى، وهو الأمر الذى أكّدته الدراسات والبحوث الفلكية الأوروبية، بعد الصوفى بمئات المنين.



ولا يزال هذا الكتاب البديع ينتظر النشر والتحقيق، رغم صدور طبعة له. يقول باول كوينتش: والمؤسف أنه لا توجد حتى اليوم طبعة صحيحة لهذا الكتاب المهم، فقد نشرت سنة 1874 ترجمة فرنسية له بقلم العالم الدنماركى شيلروب، وهى مبنية على مخطوطتين فقط، متأخرتين نسبيًا تعودان إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. ثم طبع النص العربى سنة 1954 فى حيدر آباد فى الهند، معتمدًا على خمس مخطوطات قيمة، إلا أن الطبعة مكتظة بالأخطاء، وخاصة فى جداول الكواكب، حيث صحّح الناشرون بعض الأخطاء، بخط اليد بالحبر الأسود. وأُعيدت هذه الطبعة بشكلها المغلوط، فى بيروت سنة 1981[1]. أما رسوم الصور، فلم تطبع بشكلها الأصيل فى كلتا الطبعتين المذكورتين، بل رسمتهما على أيدى رسامين، بشكل مغاير نسبيًا عن الأصل. ومن حسن الحظ أن نشرت مؤخرًا، بطريقة التصوير، وبعناية معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية فى فرانكفورت، أقدم مخطوطة للكتاب، ألا وهى مخطوطة مكتبة بودليان فى أكسفورد، نسخها

(1) قامت بإصدار هذه الطبعة، المسروقة: دار الآفاق الجديدة ببيروت. وهى دار عريقة فى السطو على نشرات التراث التى قام بها المحققون العرب والمستشرقون، ومن بينها كتاب صور الكواكب.. والعجيب أن هذه الدار تتعمد فى كل مرة، حذف كل ما يشير إلى بيانات الطبعة المسروقة، وبكل الجرأة والتبجح تكتب الدار على الورقة الأولى: تحقيق لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة.. فلا تكتفى بتصوير الكتاب وسرقته فحسب، وإنما تصر على تزييفه وإنكار جهد أصحابه الأصليين.

الحسين بن عبد الرحمن بن عمر بن محمد، ويبدو أنه ابن الصوفى نفسه[1]، سنة 400 هـ / 1010م، وسوف تمكّن هذه الطبعة المصورة الباحثين من دراسة كتاب الصوفى بشكل قريب جداً من شكله الأصلى[2].

ومن ناحية أخرى، أشار الأستاذ محمد على الزركان إلى وجود عدة نسخ خطية من (صور الكواكب) فى مكتبات الإسكوريال وباريس وأكسفورد وكوبنهاجن ولينينجراد. بالإضافة إلى نسخة بالمكتبة الوقفية بحلب، محفوظة تحت رقم 1286/ أحمدية. وهى نسخة مصورة، نفيسة، يصفها بقوله: ولفت نظرى أن المحققين، يقصد لنشرة الهند سنة 1954، وهم محمد نظام الدين مدير المطبعة، والبروفيسور ونتر الأستاذ فى كلية اكزيتر بإنكلتره، وشيلروب مقدم الترجمة الفرنسية ،لم يذكروا مخطوطة حلب التى تعد من أصحّ النسخ، ومن أجملها خطًا وتصويرًا، وذلك كما تبين لى، من خلال المقابلة بينها وبين النسخة الهندية المطبوعة[3].

وتبقى نقطة أخيرة، يمكن صياغتها فى هذا السؤال: هذه الصور التى زيّنت كتاب (صور الكواكب) وغيرها من بدائع فن المنمنمات التى ازدانت بها المخطوطات العربية الإسلامية، ألا تكذّب الدعوى القائلة: إن الإسلاميين كرهوا التصوير، وإن الإسلام حرّم الفن؟

(1) لا يقف الأمر عند مجرد الترجيح، فهو بالفعل ابن الصوفى نفسه، وقد اشتهرت له أرجوزة ابن الصوفى فى الفلك، التى يقول البيت الثانى منها :

هذا مقـال لأبـى علـى نجل أبى الحسين الصوفى

(2) باول كوينتش : آثار الصوفى فى الشرق والغرب (محاضرات المؤتمر) ص 209.

(3) الزركان : عبد الرحمن الصوفى وأسلوبه (محاضرات المؤتمر) ص 262.

صور الكواكب لابي الحسين الصوفي

وهذه صورة الدب الاصغر على ما ترى في الكرة

الشرق

الغرب

وهذه صورة الدب الاصغر على ما ترى في السماء

الشرق

المغرب

صور الكواكب الثانية والأربعين
(صور من المخطوطة)

صور الكواكب　　　لابي الحسين الصوفي

صورة الدب الاكبر على ماترى في الكرة




صورة أخرى (توضيحية) من المخطوطة

صور الكواكب		لابي الحسين الصوفي

# صورة الدب الاكبر على ما ترى في السماء



صور الكواكب لابي الحسين الصوفي

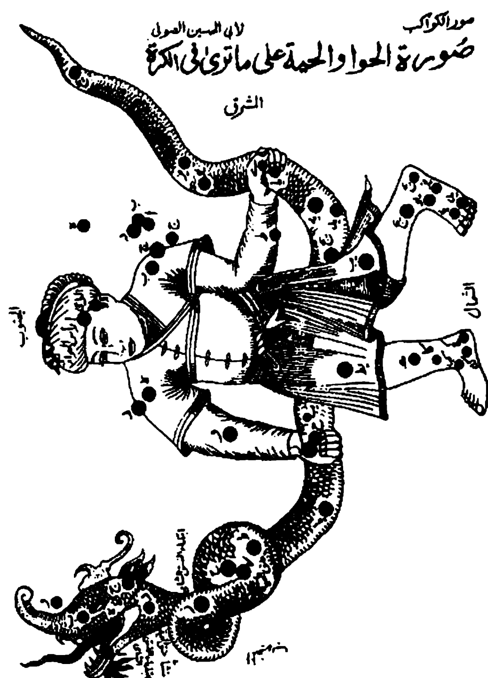
صورة قيقاوس على ما ترى في الكرة

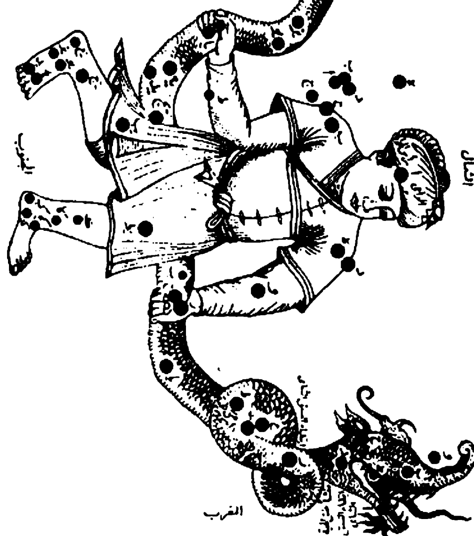


صور الكواكب          لابي الحسين الصوفي

## صورة قيقاوس على ما ترى في السماء




صور الكواكب
لابي الحسين الصوفي
صورة الحوا والحية على ما ترى في الكرة
الشرق


صور الكواكب
لابي الحسين الصوفي
صورة الحوا والحية على ما ترى في السماء
الشرق
المغرب

# الفصل الثامن عشر

# (مخطـوطـة جغرافيـة)

## صُورة الأرض (المسـالك والممـالك)

### لابـن حَـوْقَـل

فى مقدمة كتاب (مُعجم البلدان) يعدِّد لنا مؤلفه، ياقوت الحموى الأسباب الداعية إلى الاهتمام بالجغرافيا ومواقع البلدان، فيقول: ومَنْ ذا الذى يستغنى عن أسماء الأماكن وتصحيحها، وضبط أصقاعها وتنقيحها، والناس فى الافتقار إلى علمها سواسية؛ لأن من هذه الأماكن ما هى مواقيت الحجاج والزائرين، ومعالم الصحابة والتابعين، ومواطن غزوات سرايا سيد المرسلين، وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين. وقد فتحت هذه الأماكن صلحًا وعنوة وأمانًا وقوة، ولكلٍّ من ذلك حُكمٌ فى الشريعة، فى قسمة الفيء، وأخذ الجزية، وتناول الخراج، واجتناء القاطعات والمصالحات.. لا يسع الفقهاء جهلها، ولا يعذر الأئمة والأمراء إذا فاتتهم فى طريق العلم؛ لأنها من لوازم فتيا الدين، وضوابط قواعد الإسلام والمسلمين.

وبعد ذكر الدواعى الدينية، يورد ياقوت الدواعى الدنيوية لمعرفة النواحى والبلدان، فيوضِّح أهمية ذلك للمشتغلين بالتاريخ والسير والأخبار، وللمشتغلين بالأدب ونقد النصوص، وللمشتغلين بالطب، الذين يلزمهم بالضرورة معرفة الأطباء بأمزجة البلدان وأهوائها[1].. ثم يقول: وقد صنَّف المتقدِّمون، فى أسماء الأماكن، كتبًا. وهى صنفان، منها ما قُصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة، ومنها ما قصد به ذكر البوادى والقفار، واقتصر على منازل العرب الواردة فى أخبارهم والأشعار. فأما من قصد ذكر العمران، فجماعةٌ وافرةٌ، منهم الفلاسفة والحكماء: أفلاطون وفيثاغورس وبطليموس وغيرهم. وقد سموا كتبهم فى ذلك جغرافيا، ومعناها: صورة الأرض.. وطبقة أخرى إسلاميون،

(1) فى الطب العربى القديم، مبحثٌ مستقلٌ لعلم المناخ الطبي ودراسة الأوبئة وطرق العدوى. وقد تحددت ملامح هذا المبحث، عبر مجموعة من الشروح التى دونها أطباؤنا القدامى على كتاب الأهوية والأماكن والمياه لأبقراط، بالإضافة إلى كمٍّ كبير من الكتب والرسائل العلمية القصيرة.

سلكوا قريبًا من طريقة أولئك من ذكر البلاد والممالك، وعيَّنوا مسافة الطرق والمسالك، وهم: ابن خُرْدَاذْبة، وأحمد بن واضح، والجيهانى، وابن الفقيه، وأبو زيد البلخى، وأبو إسحاق الإصطخرى، وابن حوقل، وأبو عبد الله البشارى، والحسن بن محمد المهلبى، وابن أبى عون البغدادى، وأبو عبيد البكرى.. وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية، فطبقةُ أهل الأدب، وهم: أبو سعيد الأصمعي، وأبو عبيد السكوني، والحسن بن أحمد الهمداني، وأبو الأشعث الكندى، وأبو سعيد السيرافي.. إلخ[1].

وفى معرض كلامه عن أهمية الجغرافيا لدى العرب، ذكر د.حسَّان حلاّق أن العرب والمسلمين بدأوا الاهتمام بالجغرافيا ووضعوا المؤلفات حولها، قبل وقوفهم على كتاب بطليموس؛ ذلك أن العرب قبل الإسلام كانوا من أهم التُّجار، وقد جالوا مختلف المناطق والبلدان شرقًا وغربًا، وكانت رحلاتهم إلى الشام واليمن فى الصيف والشتاء من أهم هذه الرحلات، ثم ازدادت تجارتهم ومعرفتهم بالجغرافيا بسبب فتوحاتهم بعد الإسلام.. والجغرافيا لم تكن مرتبطة بالتجارة والفتوحات فحسب، بل كانت مرتبطة بعلم الفلك الذى برع فيه العرب والمسلمون. ثم يضيف: ومن الأسباب الأخرى التى أدت إلى نشوء علم الجغرافيا عند المسلمين: الحج، الرحلة فى طلب العلم، حاجة الدولة إلى معرفة طرق الأقاليم، السفارات السياسية، الجغرافيا الإدارية لاستغلال ثروات البلدان المفتوحة[2]. وهكذا اجتمع للعرب المسلمين من البواعث القوية ما جعلهم يهتمون بالبحث الجغرافى، واستشراف أرجاء المعمورة، واستكشاف مواقع البلدان التى تشكِّل فى مجموعها (العالم الإسلامى) ولم يكن هناك فواصل حدودية بين ديار الإسلام، وبالطبع لم يكن الانتقال من بلد إسلامى لآخر يستلزم تأشيرة دخول، أو جواز سفر، أو كفيلًا.. كما هو الحال اليوم.

وعن الإسهامات العربية فى الجغرافيا، يقول حسَّان حلاّق: كثرت الرحلات

---

(1) ياقوت الحموى: معجم البلدان(دار صادر، بيروت 1/ 9).
(2) د. حسان حلاق: تاريخ العلوم عند العرب (مع د/ماهر عبد القادر) ص 250.

الجغرافية عند العرب، وتنوعت بتنوع أسبابها وظروفها السياسية والاقتصادية والعسكرية والدينية، كما نشأ عند كثيرين منهم حبُ الرحلة والمجازفة فيما وراء البحار، حتى يُظن أن من العرب مَنْ وصل إلى أمريكا قبل أن يكتشفها كريستوف كولمبس، وأن في قصة الفتية المغررين من شباب لشبونة، وهي القصة التي رواها الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ما يشير إلى ذلك. فقد توغلوا في المحيط الأطلسي، بحر الظلمات، إلى مسيرة شهرين من بلادهم، وقد شاهدوا جزائر ومناطق وشعوباً غريبة، ثم إنه ليس من المصادفة أن يكون الرحالة العربي ابن ماجه هو رائد ودليل فاسكو دي جاما في اقتحامه بحر الهند من الرجاء الصالح. ولابد من الإشارة إلى أن الجغرافيا الإسلامية، تنوعت وتعددت إلى: رحلات جغرافية، رحلات بحرية، رحلات في الأمم والبلدان[1].. وقد أفادنا الجغرافيون المسلمون، بالإضافة إلى ما قدموه من المعلومات الجغرافية، الكثير من المعلومات التاريخية والاقتصادية والأنثروبولوجية لدى مختلف الشعوب والبلدان، اعتماداً على المشاهدة والتجربة والاختلاط بالشعوب والقبائل.. ومن يطّلع على المصنفات الجغرافية الإسلامية، يدرك هذه الأمور[2].

والمصنفات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي كثيرةٌ، وقد نال بعضها شهرةً كبيرة وتُرجم إلى اللغات الأوروبية. ومن أهم هذه المصنفات[3] :

(1) بخصوص الرحلات العربية الإسلامية، وأثرها في تطور الجغرافيا؛ انظر:
- د. حسين محمد فهيم : أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة).
- أحمد رمضان : الرحلة والرحالة المسلمون (دار البيان، جدة).
- د. حسين مؤنس : ابن بطوطة ورحلاته (دار المعارف، القاهرة).
- د. صلاح الدين الشامي : الرحلة عين الجغرافيا المبصرة (منشأة المعارف، الإسكندرية).
- علي مال الله : أدب الرحلات عند العرب في المشرق (مطبعة الإرشاد، ببغداد).
- محمد الخضر حسين : الرحلات (المطبعة التعاونية، بيروت).
- نازك سابايارد : الرحالون العرب (مؤسسة نوفل، بيروت).
- ناجي نجيب : الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق (دار الحكمة، بيروت).

(2) د. حسان حلاق : تاريخ العلوم ص 251.

(3) لا تزال أغلب هذه المؤلفات في نسخها الخطية، لم تنشر بعد. وأغلب ما نُشر منها، نشر بدون تحقيق.

كتاب البلدان، لأبى العباس اليعقوبى (المتوفى 284 هجرية).

المسالك والممالك، لأبى القاسم ابن خرداذبه (المتوفى 300 هجرية).

صفة جزيرة العرب، لابن الحائك الهمدانى (المتوفى 334 هجرية).

مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودى (346 هجرية).

المسالك والممالك، للإصطخرى (375 هجرية).

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، للمقدسى (375 هجرية).

كتاب البلدان، لابن الفقيه. اختصره الشّيزرى (413 هجرية).

معجم ما استعجم من أسماء البلاد، للبكرى (487 هجرية).

الجبال والأمكنة والمياه، للزمخشرى (538 هجرية).

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، للإدريسى (556 هجرية).

تذكرة الأخبار فى اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير) لابن جبير الأندلسى (614 هجرية).

معجم البلدان، لياقوت الحموى (626 هجرية).

الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، لموفق الدين عبد اللطيف البغدادى، المتوفى 629 هجرية[1].

آثار البلاد، للقزويني (682 هجرية).

تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) لشمس الدين محمد بن عبد الله اللوّاتى الطنجى المعروف بابن بطوطة (703 هجرية).

(1) هذا الكتاب، المطبوع عدة مرات، هو جزء مختصر من كتاب كبير، أصله مفقود.

مناهج الفِكَر ومباهج العبر، للوطواط (718 هجرية)[1].

نُخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، لشمس الدين الدمشقى (727 هجرية).

تقويم البلدان، لأبى الفداء (742 هجرية).

الانتصار لواسطة عِقْد الأمصار، لابن دُقْماق (809 هجرية).

التحفة السَّنيَّة للجيعان (885 هجرية).

وبالإضافة إلى هذه المؤلفات الجغرافية الشهيرة، فلدينا أيضًا كتاب ابن حَوْقَل الذى سنتوقف عنده فى الصفحات التاليات. وقد أوردنا القائمة السابقة، لتأكيد أن التأليف الجغرافى العربى، ظل ممتدًا طيلة الأزمنة العربية/ الإسلامية المجيدة؛ إذ بدأ العرب بالاعتماد على كتاب كلوديوس بطليموس (القلوذى) الذى عنوانه: الجغرافيا، ثم بدأوا تأليفهم منذ القرن الثالث الهجرى. والملاحظ أنه بعد القرن التاسع الهجرى، كادت الأعمال الجغرافية العربية تختفى تمامًا، وما نجده منها بعد ذلك، هو اختصار وترديد لما سبق. وذلك يتزامن مع انحسار الحضارة الإسلامية ونشاط الأوروبيين فى تأسيس حضارتهم المعاصرة، وهو التأسيس الذى اقترن بالكشوف الجغرافية. والملاحظ أيضًا أن فجر النهضة العربية الإسلامية المعاصرة، اقترن برحلتين: تخليص الإبريز للطهطاوى، وأقوَم المسالك لخير الدين التونسى.

* * *

لم تعطنا المصادر التاريخية العربية، ولا الدراسات الاستشراقية، الكثير من المعلومات عن شخصية ابن حوقل رغم شهرة كتابه، وكل ما جاء عنه، مثلًا فى (دائرة المعارف الإسلامية) هو: أبو القاسم محمد بن حَوْقل، لا نعرف عن حياته إلا القليل، وهو يذكر عن نفسه أنه ترك بغداد فى رمضان عام 331 هـ (مايو 943 م) بقصد دراسة البلاد والشعوب، وبقصد الكسب عن طريق التجارة، فجاب العالم الإسلامى من المشْرق إلى المغرب. وكان يدرس فى الوقت نفسه، بشغف، مؤلفات

(1) يقع هذا الكتاب فى أربعة مجلدات مخطوطة، لم ينشر منها سوى جزء يسير!

السابقين كالجيعان وابن خُرْدَاذَبَه وقدامة، ويحتمل أن يكون قد لقى فى رحلاته، حوالى 340 هجرية، الإصطخرى الذى طلب إليه أن يهذب بعض خرائطه الجغرافية، وأن يراجع كتابه، فعزم ابن حَوْقَل على تدوين الكتاب من جديد، فأتمه واضعًا اسمه عليه. ولم يكن ذلك، قبل سنة 367 هجرية.

ولا تضيف المصادر إلى ما سبق، إلا أقل القليل! كالإشارة إلى أن ابن حَوْقَل أصله من مدينة (نصيبين) بالجزيرة، وأنه اشتغل فى بداية حياته بالتجارة.. ومع هذا، فقد نال كتاب ابن حوقل شهرةً عظيمة. وربما تكون شهرة الكتاب، قد حجبت الكاتب!

ومخطوطات كتاب ابن حوقل تحمل عنوانين، فأحيانًا يُشار إليه فى مخطوطة على أنه: كتاب صورة الأرض. وأحيانًا تحمل المخطوطة عنوان: كتاب المسالك والممالك.. وتلك حالة غير فريدة فى المؤلفات العربية، فالكثير منها يحمل عنوانين أو أكثر.

وقد سار ابن حوقل فى الكتاب على طريقة الجغرافيين العرب السابقين عليه. وكان أكثرهم أثرًا فيه، هو معاصره الإصطخرى صاحب كتاب: المسالك والممالك. ولكن ابن حَوْقَل تميَّز بالعرض التفصيلى لكل البلدان والمدن الإسلامية فى عصره، فابتدأ بالجزيرة العربية، ثم ذكر بلاد فارس (إيران) والشام ومصر والمغرب.. وهو يخوض فى ذكر التفاصيل الخاصة بأهل البلاد وأنهارها وطرقها وجبالها، وغير ذلك.. ويعد كتاب ابن حوقل، أوفى الكتب الجغرافية الكلاسيكية بشئون المغرب والأندلس، فهو كما يقول د. حسان حلاق: يعطى صورة من أدق الصور للأندلس فى العصر الأموى، ويورد معلومات وافية عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى تلك الديار، ويبين المحصولات المصدرة منها إلى المغرب ومصر، ويتحدث عن تجارة الرقيق الأوروبى التى كان يقوم بها تجار متفرِّغون لها[1]!

وأفضل مخطوطات كتاب ابن حوقل، هى النسخة المحفوظة فى مكتبة أحمد

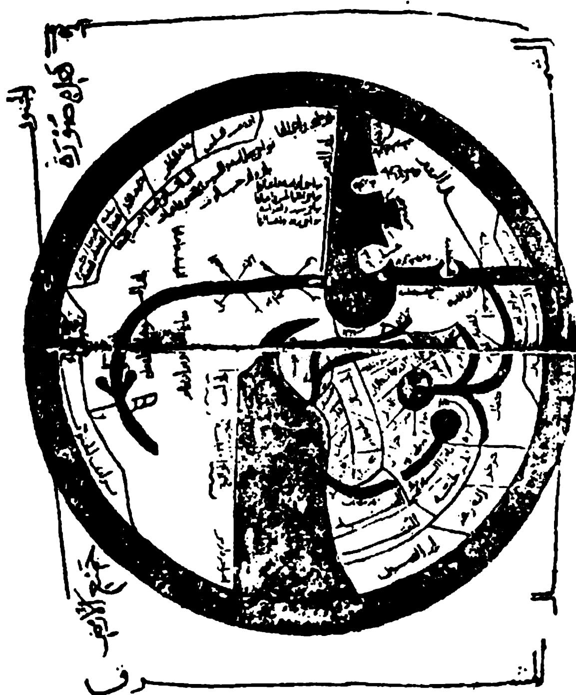
(1) د. حسان حلاق: تاريخ العلوم عند العرب، ص 353.

الثالث باستانبول. وهى نسخةٌ جلبها العثمانيون أيام سلطان دولتهم، من إحدى العواصم العربية الكبرى، كالقاهرة ودمشق وبغداد، إذ إنها كُتبت سنة 479 هجرية، أى قبل قيام الدولة العثمانية بقرون. والمعروف أن معظم ذخائر المخطوطات فى مكتبات تركيا الحالية، ومكتبات أوروبا أيضًا، هى نتاجٌ للنهب والسطو اللذين تعرضت لهما البلاد العربية، طيلة القرون الماضية، حين كانت هذه البلاد ترزح تحت سلطان العثمانيين، ومن بعدهم الاستعمار الأوروبى.

وقد ترجم كتاب ابن حوقل إلى الإنجليزية، قبل طبعه بالعربية، وصدرت الترجمة الإنجليزية، فى لندن سنة 1800 ميلادية، ثم تُرجم جزءٌ منه إلى الفرنسية، قبل طبعه بالعربية أيضًا! وطبع فى باريس سنة 1842، كما ترجم الجزء الخاص بمدينة باليرمو، إلى الفرنسية، وطبع بباريس سنة 1845.

أما النص العربى للكتاب، فقد نُشر بأوروبا قبل صدوره بالبلاد العربية بعدة عقود. فقد نشره المستشرق دى غويه أولًا، ثم أعاد المستشرق كرامرز نشره فى ليدن سنة 1938 معتمدًا على مخطوطة أحمد الثالث التى أشرنا إليها .. وكان كل ما فعله العرب المعاصرون حول هذا الكتاب، هو أن مكتبة ببيروت سطت على طبعة كرامرز، وأصدرت الكتاب فى مجلد واحد سنة 1979.

ولعل جغرافيًا عربيًا معاصرًا، يكون على صلة بتراث أجداده، يتفرَّغ قليلًا لتحقيق كتاب ابن حَوْقل، بعد كل هذه الترجمات والنشرات الغربية. عسى أن تصير لدينا طبعةٌ عربية محقَّقة من هذا الكتاب المهم، مع دراسة جادة لقدر الإسهام العربى فى تاريخ الجغرافيا .. لعل وعسى!

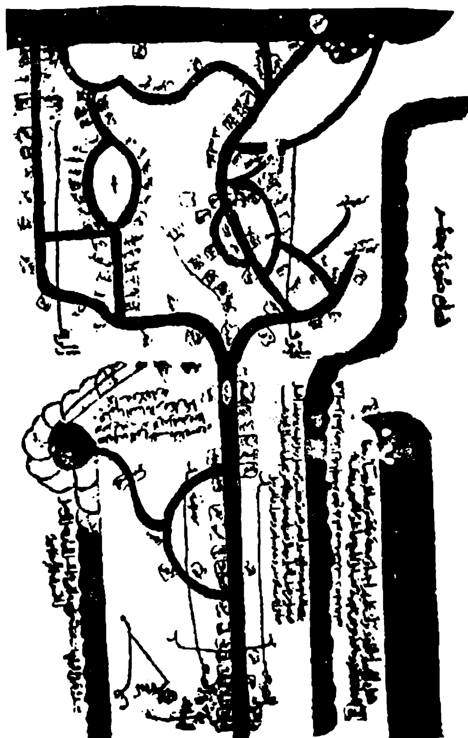


صورة جميع الأرض

(مخطوطة أحمد الثالث بالرباط رقم 3346)




خريطة الشام



خريطة مصر

# الفصل التاسع عشر

## (مخطـوطـة أدبيـــة)

# عُـقُود اللآل في الموشحات والأزجال

## للنَّـــوَاجِـى

يقول شمس الدين السخاوى، المؤرخ الشهير، عن مؤلف هذه المخطوطة[1]: هو محمد بن حسن بن على بن عثمان، الشمس النواجى، نسبة لنواج بالغربية بالقرب من المحلة، القاهرى الشافعى. شاعر الوقت، ويعرف بالنواجى. ولد بالقاهرة بعد سنة 785 هجرية تقريبًا، ونشأ بزاوية الأبناسى، فحفظ القرآن والعمدة[2] والتنبيه[3] والألفية[4] والشاطبية[5].. وحج مرتين، وحكى كما أورده فى منسكه الذى سماه: الغيث المنهمر فيما يفعله الحاج والمعتمر، أنه رأى شخصًا من أعيان القضاة الشافعية بالديار المصرية، أراق دمًا على جبل عرفات، فقال له: ما هذا؟ فقال: دم تمتع! فقال: إنه غير مجزئ هنا. قال: ولم ؟ قال : لأن شرطه أن يذبح فى أرض الحرم، وعرفات ليست من الحرم. فقال كالمنكر عليه: إذا لم تكن عرفات من الحرم، فما بقى فى الدنيا حرم.

ودخل دمياط والإسكندرية، وتردد للمحلة وغيرها، وأمعن النظر فى علوم الأدب حتى فاق أهل عصره.. وكان متقدمًا فى اللغة العربية وفنون الأدب، مشاركًا فى غيرها، حسن الخط جيد الضبط متقن الفوائد عمدة فيما يقيده أو يفيده بخطه. وعمل كتابًا سماه: الحجة فى سرقات ابن حجة. وربما أنشأ الشيء مما نظمه ابن حجة، وعزاه لبعض من سبقه. وقد جوزى على ذلك بعد دهر، فإن بعض الشعراء صنف كتابًا سماه: قبح الأهاجى فى النواجى. جمع فيه هجو من دب ودرج، حتى من لم ينظم من قبل ذلك! وأوصله إلى النواجى، بطريقة ظريفة؛ فقد

(1) السخاوى: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (مكتبة الحياة - بيروت) 229/7 وما بعدها، وقد تتلمذ السخاوى على النواجى فى الحديث والأدب بالمدرسة الجمالية.

(2) لعله يقصد كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى.

(3) يقصد كتاب (التنبيه فى فقه الشافعية) للشيرازى.

(4) هى أرجوزة ابن مالك فى النحو، وقد سميت بذلك لأنها تقع فى ألف بيت.

(5) أرجوزة شهيرة فى علم القراءات (قراءة القرآن) للشاطبى.

دفعه إلى دَلاَّل بسوق الكتب، وهو جالس على عادته عند بعض التجار، فدار به الدَلاَّلُ على أرباب الحوانيت، حتى وصل إليه، فأخذه وتأمله وعلم مضمونه، ثم أعاده إلى الدَلاَّل. وحينئذ استرجع (الكتاب) من الدَلاَّل، فكاد النواجى يهلك (غيظًا) مات فى جمادى الأولى سنة 859 هجرية، ومن نظمه.. فى قصيدة نبوية:

يَـــا مَـنْ حَدِيثُ غَرَامى فِى محبَّتِهِمْ
مُسَــلْسَـلٌ وفُـــؤَادِى مِنْـهُ مَعْلُولُ
رَوَتْ جُفُونُــكُم أَنَّـــى قُتِلْتُ بِهَـا
فَيَالَـــــهُ خَبَـرًا يَرْويه مَكْحُـولُ

وفى هذه الأبيات، يستخدم النواجى مصطلحات علم الحديث النبوى، فيورد منها ألفاظ الحديث، مسلسل، معلول، رواية، خبر (راجع دلالة هذه الألفاظ فى تحقيقنا لكتاب: المختصر فى علم أصول الحديث، لابن النفيس).. وفى الحقيقة فإن النواجى لم يكن مبتكرًا فى هذا الأمر، فقد شاع فى عصره تضمين الشعراء لمصطلحات علم الحديث. يقول معاصره عبدُ الكريم الجيلى (المتوفى سنة 826 هجرية) فى قصيدة له:

بَلِّـــغ حـديثًا قــد رَوَتْه مـدامعى
إذ عَنْعـنـتـــه مُسـلســلًا فيضانه
أســـنـدْ لهم ضعفـى وما قـد صحَّ مـن
متواتــــر الخـــبر الذى جـريـانه
يـرويــــه عـن عبراتـه عـنْ مقلتـى
عن أضلعـــــى عمــا روت نيـــرانه
عن مهجتى عن شـجوها عـن خاطرى
عـــن عشـــقه عما حـواه جنانه

عـــن ذلك العهـــد القـديـم عـن الهوى
عمـــــــن همــو روحـــــي وهــم سكانه

وللنواجي حسبما ذكرت المصادر التاريخية، مجموعة كبيرة من المؤلفات، طُبع منها كتابٌ واحد، هو: حلبة الكميت، ولا تزال بقيتها مخطوطة. منها: صحائف الحَسَنات فى وصف الخال، الأصول الجامعة لحكم حرف المضارعة، المطالع الشمسية فى المدائح النبوية، الشفا فى بديع الاكتفا فى مديح المصطفى، خلع العذار فى وصف العذار، مراتع الغزلان فى وصف الحسان من الغلمان، ديوان شعر غزلى.. وله أيضًا، مجموعةً من الشروح والحواشى على كتب الفقه والعروض.

والأمر العجيب فى مؤلفات النواجى، أن المطبوع منها، هو أكثرها ابتذالًا! بينما بقية مؤلفاته القيمة لم تزل مخطوطة! وعن الكتاب المطبوع، يقول لنا السخاوى: وله كتاب **حلبة الكميت فى وصف الخمر وكان اسمه أولًا الحبور والسرور فى وصف الخمور**، فانتقد عليه الخيرون جمعه، بل حصلت له محنة بسببه. حيث اُدعى عليه من أجله، وطُلب منه، فغيبه. واستفتى عليه الشيخ عز الدين السنباطى، البليغ المفوُه، فُتيا بديعة الترتيب. قال العزُ بن عبد السلام المقدسى: إنها تكاد تكون مصنفًا مستقلًا. وبالغ العز بن عبد السلام البغدادى، فى الحَطّ والهجوم عليه.



ويبدأ كتاب **عقود اللآل** بحسب المخطوطة التى بين أيدينا، بقول النواجى: قال الفقير إلى رحمة ربه، الراجى عفوه ومغفرته، محمد بن حسن بن على النواجى الشافعى، بلَّغه الله سؤله، ونوَّله فى الدارين مأموله. أما بعد، حمدًا لله الذى وشَّح ذوى الفضل بحُلل الآداب، ورشَّحهم بحلى الفضائل. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى اعترف بفصاحته كُل ناطق، وأذعن لبلاغته كل قائل. فقد جمعتُ هذه الحديقة، من الموشحات والأزجال، واقتطفت من ثمار أغصانها؛ ما هو أطيب من نشوة الشمول، وألطف من نسمة الشمال. قاصدًا فى ذلك التوسُط بين الإطناب والإيجاز، منتقيًا من حُلل أبياته الغربية، ما يزهو ببديع محاسنه، على كل ما فى دار

الطراز، من كل بيت يصعد نظر المتأمل، إلى بديع طباقه العامرة بأنواع المحاسن، فيسكن قلبه إلى تلك القصور الخالية من القصور.. إلخ.

ويقع (عقود اللآل) في بابين، الأول يضم نصوصًا من الموشحات المغربية والمشرقية لمؤلفين من أمثال: ابن زُهر، ابن الزَّقَّاق، ابن اللَّبَّانة، ابن الخطيب، ابن سَهْل.. وهؤلاء من موشّحى المغرب. ومن موشّحى المشرق، اختار النواجى نصوصًا لابن حبيب، صفى الدين الحلى، ابن الدهان، الشهاب الموصلى، سراج الدين المحار.. وغيرهم.

ومن لطائف الموشّحات الواردة فى عقود اللآل، موشحة صدر الدين ابن الوكيل، التى تقول:

غَـــــدَا مُـنَــــادِيـنــــا
مـحـكُــمـا فِـيـنــــا
يَـقْـضـى عـلـيـنــا الأسَــى
لَـــــوْلاَ تَـأَسّــيـنــا

وهى تذكّرنا على الفور، بالقصيدة النونية الشهيرة لابن زيدون، التى يقول فيها:

أضحـى التنائـى بديلًا مـن تدانينا
ونـاب عـن طيب لقيانا تجافينا
ألا وقد حـان صبـح البين صبَّحنا
حين فـقـام بنـا للحين ناعينا
نكـادحيـن تناجيكم ضمائرنا
يقضـى علينا الأسـى لولا تأسينا

وضمن (عقود اللآل) موشحة فريدة لابن سناء الملك، تقول:

أَرَى دَمْعَتِي كالدِّما جَارِيَهْ
عَلَى وَجْنَتِي فِي هَوَى جَارِيَهْ
فَمَنْ لِي بِخُودٍ كَعُوبٍ رَدَاحْ
سَبَتْنِي بِوَجْهٍ كَنُورِ الصَّبَاحْ
يَفُوق وُجوه الغَوَانِي الصِّبَاحْ
مَليكَةُ كُلِّ الحِسَانِ المِلاَحْ
سُعَادُ لهَا تُحْمَلُ الغَاشِيَهْ
وهِيَ لِمَنْ جُمْلَةِ الحَاشِيَهْ

والباب الثانى من المخطوطة، فى الأزجال. وفيه منتخباتٌ كثيرة لزجّالين من المغرب والمشرق، أمثال: ابن قُزمان، ابن النبيه، ابن حجة، الغبارى، الزينى الخراط، ابن مكانس. . بالإضافة إلى أزجال النواجى نفسه. ومما أورده النواجى من أزجال ابن حِجَّة، قوله :

حُبِّى وَاصِلٌ نَادَيتُ لُو
حِينَ رَادَ يُفَاصِلْ
لاَ تُقَاطِعْ بِالحُرْمَةِ
يَا حُبُّ وَاصِلْ

ويبدو أن ثمة خلافًا وقع بين النواجى وابن حِجَّة، صاحب هذه الزجلية؛ إذ يصدرها النواجى بعبارة ساخرة تقول: قال أبو بكر بن حِجَّة، بيض الله ذقنه ! . . وقد مرَّ علينا أن للنواجى كتابا فى سرقات ابن حِجَّة، افترى فيه على ابن حِجَّة، وجوزى على افترائه . . كما حكى لنا السخاوى.

وحسبما انتهى النواجى من تدوين مجموع (عقود اللآل) سنة 868 هجرية! وهناك مخطوطة من الكتاب بمكتبة دير الإسكوريال بإسبانيا، مؤرخة بهذا التاريخ،

وفى آخرها إشارة إلى أنها منقولة من نسخة المؤلف. وهنا إشكالٌ يتعلق بتعارض هذا التاريخ المذكور، مع تاريخ وفاة النواجى الذى ذكره السخاوى .. وهناك نسخةٌ أخرى من (عقود اللآل) ناقصة من آخرها، محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم 7100 / أدب.

وفى بغداد، سنة 1982 نشر عبد اللطيف الشهابى مخطوطة عقود اللآل وقدَّم لها بمقدِّمة موجزة. لكن هذه النشرة يعيبها أمور، أولها أن المحقق لم يعتمد إلا على نسخة الإسكوريال، وأغفل نسخة القاهرة تمامًا. وثانيها، وهو الأخطر، أن صاحب هذه النشرة حذف بعض النصوص التى استعصت عليه، دون أدنى إشارة لوجودها فى الأصل المخطوط! ونظرًا لأنه لم يعتمد على نسخة القاهرة، ولم يشر إليها؛ فقد وقع فى أخطاء كثيرة وقراءات بعيدة عن الصواب، وأورد العديد من النصوص مبتورًا أو منسوبًا لغير صاحبه. وكان من الممكن تلافى ذلك كله، بالمقابلة بين النسختين، ومراجعة النصوص على اللهجات العامية فى المغرب والمشرق العربى. مما يعنى أن المخطوطة، مع بقية مؤلفات النواجى، لا تزال بحاجة إلى نشرة محققة وفقًا لأسس علمية سليمة.

تصنيف العلامة شمس الدين محمد بن حسن
ابن علي النواجي الشافعي
رحمه الله آمين

صفحة العنوان

(مخطوطة الإسكوريال رقم 434)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي
قال الفقير الى رحمة ربه والراجي عفوه
ومغفرته محمد بن حسن بن علي النواجي الشافعي بلغه
الله سؤله ونوله في الدارين مأموله
حمد الله الذي وشح ذوي البلاغة بحلل الآداب
ورشحهم لحل الفضائل والصلاة والسلام على سيدنا
محمد الذي اعترف بفصاحته كل ناطق واذعن لبلاغته
كل قائل، فقد جمعت هذه الحديقة في الموشحات
والازجال واقتطفت من ثمار اغصانها ما هو اطيب
من نشوة الشمول والطف من نسمة الشمال قاصدا
في ذلك التوسط بين الاطناب والايجاز منتقيا
من حلل ابياته الغريبة ما يزهو ببديع محاسنه على
كل ما في دار الطراز، من كل بيت يبعث نظر المتأمل
الى بديع لطافته العامرة بانواع المحاسن فيسكن
قلبه الى تلك الصورة الخالية من القصور ويتوصل من خرجاته

الرائقة

الورقة الأولى

فتري قومي بجارية ووصيف    ومليك يكون خطّاي جيد
قلت تبغي في عشقك مملوك    وأنا إلا عبدك يا سيد البشر
وادي مبي في خده شك جارية    وادي لهوى قومي يمحني لو تر
قلت تعشق فرح في التاج    قال لي ذاك اسمي بين الملاح احفه
قلت فاتبع وجوه قال لي    وجهي احسن منهم بلا تشبيه
قلت لو فاتنيه فما داري    انا منه قبلك وما تشتهيه
قلت لون خليجنا الزعفران    قال لي ذا وجهك من السهر والغيرة
قلت تعبر فتى الحيه    قال لي تطلب قمر ووجهي قمر

واذا دعونك فهمي فانه نسب جريدك عنه هو غيب لا
واذا دعونك يا اخي فانه ادني واقرب خلة ومنالا
[illegible]
[illegible]

الورقة الأخيرة

# الفصل العشرون

# (مخطوطة فلسفية منطقية)

## عُنْوانُ الحَقِّ وبُرْهانُ الصِّدْقِ

### للأَبْهَرِى

يعتقد البعضُ أن العلوم الفلسفية اختفت من التاريخ الثقافى العربى، بعد الإمام الغزالى (حُجَّة الإسلام، أبى حامد المتوفى 505 هجرية) نظرًا للنقد الشديد الذى وجهه الغزالى للفلسفة والفلاسفة فى كتابه **تهافت الفلاسفة** مما أدى، فى ظنهم، إلى اختفاء الفكر الفلسفى من المحيط الثقافى العربى القديم. وهو ما كان له أكبر الأثر، فى دخول العرب عصور التخلف، خلال القرون التالية لوفاة الإمام الغزالى!

لكن هذه المسألة، على الرغم من اشتهار أمرها، وترددها لدى الكثرة من الباحثين المعاصرين؛ لا تعدو كونها وهمًا وتخيُّلًا. فمن المؤكد أن الغزالى انتقد الفلسفة، ومن بعده انتقد ابن الصلاح وابن تيمية المنطق. لكن المؤكد أيضًا أن الفلسفة والمنطق ظلا يتخذان موقعهما المهم فى التاريخ الثقافى العربى، رغم هذا النقد. بل توالت جهود الفلاسفة والمناطقة بأقوى مما كانت قبل الغزالى! أما دخول العرب إلى عصر التخلُّف الحضارى، فكان لأسباب سياسية واقتصادية، ليس هذا مجال الخوض فيها[1]؛ فإن ما يهمنا الآن هو الوقوف عند شهادة تؤكد بقاء البحث المنطقى والفلسفى العربى بعد الغزالى بأكثر من قرن ونصف من الزمان. وذلك ما سوف نراه من خلال مخطوطة **عنوان الحق** لأثير الدين الأَبْهَرِى[2].

ولد الأَبْهَرِى (أثير الدين المفضَّل بن عمر بن المفضَّل) ببلدة صغيرة تقع فى

(1) راجع مقالاتنا بجريدة الأهرام: الأحكام الإطلاقية (يوم 1992/11/20) الفلسفة بعد الغزالى (يوم 1992/11/27) حيث تناولنا هذا الأمر تفصيلاً.

(2) انظر أيضًا، الفصل الأخير من هذا الكتاب، حيث نعرض لمخطوطة ابن النفيس: الوريقات فى المنطق.

منتصف الطريق بين قَزْوين وزِنْجَان. هي قرية أَبْهَر التي انتسب إليها. وكان مولده، على أرجح الأقوال، سنة 600 هجرية[1].

وقد اتصل الأَبْـهَـرِى بأعلام عصره، فتتلمذ عليهم، ثم صار له تلامذة مشهورون من أمثال المؤرخ ابن خلكان. ويبدو أنه اتصل بأبرز علماء المشرق آنذاك نصير الدين الطوسى وقد انتقد الطوسى كتاب الأبهرى: تنـزيل الأفكار فى تعديل الأسرار، ووصف مؤلِّفه في مقدمة النقد، بالفاضل.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الأثير الأَبْهَرِى نشأ بالموصل، ثم ارتحل منها سنة 626 هجرية إلى إربل حيث جلس للتدريس. وفى إربل يحكى ابن خلكان عن شيخه، ما يلي: كنتُ أشتغل عليه بشيء من الخلاف (علم الجدل والمنطق واختلاف الفقهاء) فبينما أنا يومًا عنده، إذ دخل عليه أحدُ فقهاء بغداد، فسأله الأَبْهَرِى عن شيخه ابن يونس ومكانته عند أهل بغداد وحُكَّامها. فقال له الرجل: ما أنصفوه على قدر استحقاقه. فقال الأثير الأبهرى: والله ما دخل بغداد مثل الشيخ ابن يونس! فاستعظمنا منه هذا الكلام.. وكان الأثير على جلالة قدره فى العلوم، يأخذ الكتاب ويجلس متتلمذًا على يدى كمال الدين ابن يونس، فيقرأ عليه. والناس يوم ذاك، يشتغلون فى تصانيف الأثير. ولقد شاهدت ذلك بعينى، وحكى لى بعض الفقهاء، أنه سأل الشيخ ابن يونس عن الأثير ومنـزلته فى العلوم، فقال الشيخ: لا أعلم! فقال له: كيف هذا يا مولانا، وهو فى خدمتك منذ سنين، ويشتغل عليك ؟ قال ابن يونس : لأنى مهما قلت له شيئًا، تلقاه بالقبول، قائلا: نعم يا مولانا. وما جاذبنى فى مبحث قط، حتى أعلم حقيقة فضله.. ولا شك فى أنه كان يتعمَّد هذا، تأدبا مع الشيخ. وكان دوما يقول: ما تركت بلادى وقصدت الموصل، إلا للاشتغال على الشيخ كمال الدين ابن يونس[2].

---

(1) راجع ترجمة الأبهرى وأخباره وكتبه، فى : وفيات الأعيان لابن خلكان 313/5، الوافى بالوفيات للصفدى 55/26، تاريخ مختصر الدول لابن العبرى ص 445، الأعلام للزركلى 279/7، معجم المؤلفين 12/315 Brockelmann 1/839 .

(2) ابن خلكان : وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس (دار صادر، بيروت) 313/5 .

وتوفى أثير الدين الأبهرى سنة 663 هجرية، بعدما اشتهر فى عصره كواحد من كبار الحكماء والمناطقة والمشتغلين بعلم الفلك. وقد ترك فى هذه التخصصات العلمية، عدة مؤلفات، أشهرها شرح إيساغوجى.. وكتاب إيساغوجى عبارة عن مقدمة عامة فى المنطق، وضعها الفيلسوف الشهير فرفوريوس الصورى أشهر تلامذة الفيلسوف السكندرى الكبير أفلوطين وجامع تراثه. فقد عمد فرفوريوس بعد أن جمع مقالات أفلوطين ووضعها فى شكل (التاسوعات) إلى كتب أرسطو المنطقية، وصاغ لها مقدمته المشهورة باسم (إيساغوجى) أو: المدخل إلى المنطق. وهى الرسالة التى ترجمها العرب، واهتموا بدراستها اهتمامًا كبيرًا، ونالت من الشروح العربية قدرا لا حصر له. ومن تلك الشروح، شرح الأبهرى الذى جعله بمثابة تلخيص عام لكل المباحث المنطقية. وللأبهرى أيضا كتابٌ فى المنطق بعنوان: تنزيل الأفكار فى تعديد الأسرار. وله فى الفلسفة كتاب هداية الحكمة، وفى الفلك: درايات الأفلاك، الزيج الشامل.



أما مخطوطة (عنوان الحق وبرهان الصدق) فهى كتاب فى الحكمة بمعناها العام، وهو يقع فى ثلاثة أجزاء. يقول الأبهرى فى مقدمته: أما بعد، فهذا تلخيصٌ فى الحكمة، حرَّرته لإخواننا فى الدين، ورفقائنا فى طلب الصدق واليقين، ولكلِّ مَنْ خَصَّه واهبُ العقل بنفسٍ زكية وهمَّةٍ عالية يطلب بها الحق من حيث هو هو. وأوردت فيه الدقائق، التى استخرجتها من القوة إلى الفعل، على سبيل الإيجاز.

وبعد المقدمة، يدخل الأبهرى إلى القسم الأول من الكتاب، وهو القسم المخصَّص للمنطق، وذلك باعتبار المنطق هو المدخل الطبيعى لأى معرفة. فنراه يقول تحت عنوان (القول فى المنطق) ما نصه: هو آلة تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر، أعنى ترتيب تصورات أو تصديقات ليتأدى منها إلى تصور أو تصديق، والتصور هو حصول صورة الشىء فى العقل، والتصديق هو الحكم على الشىء إما بنفى أو إثبات، والموصِّل إلى التصور يسمى قولا شارحًا.

ثم يقول الأبهرى فى مخطوطته: وليس المنطق بتمام أجزائه بديهياً، وإلا لما وقع الغلط وقوعًا مستمرًا ولا كسبياً، وإلا لتوقف اكتسابه على قانون خارج عنه. بل بعضه بديهىٌ، وبعضه كسبىٌ يستفاد من القسم البديهى.. ولهذا انبعثت الداعية إلى تعلُّمه.

ويتناول الأبهرى بعد ذلك المباحث المنطقية المتعددة؛ شارحًا المقصود من كل مبحث، وموضحًا دلالات المصطلحات المنطقية، ومشيرًا إلى بعض آرائه الخاصة. وقد لجأ فى ذلك كله، إلى أبسط العبارات وأوجز التعريفات، ولم يعمد إلى الغموض والإبهام والغرق فى التفصيلات. حتى إن الكتاب يبدو للقارئ مع سلاسة عباراته، كما لو كان من تأليف أحد المعاصرين.

والقسم الثانى من المخطوطة بعنوان (القول فى العلم الطبيعى) وينقسم إلى عدة مطالع (أبواب) كل مطلع منها ينقسم بدوره إلى فصول. ومن خلال تلك الأبواب والفصول، يتناول الأبهرى طبيعة الأجسام والحركة، وغير ذلك من الموضوعات التى كانت تدخل آنذاك ضمن مباحث علم الطبيعة، أو ما نسميه اليوم بالفيزياء. والملاحظ فى هذا القسم من المخطوطة، أن الأبهرى لا يكتفى بترديد أقوال السابقين عليه من العلماء، بل يهتم بتقرير رأيه الخاص، ويورد الأقوال الأخرى المناقضة ويفندها، لينتهى إلى إثبات صحة ما ذهب إليه .

والقسم الثالث الأخير بعنوان (القول فى العلم الإلهى) وقد سار فيه الأبهرى على الترتيب ذاته، مبتدئًا بالكلام عن الجواهر والأعراض، ثم فكرتىْ الكم والكيف، وأنواع الكيفيات. وفى ذلك يقول: وأما الكَمُّ، فهو إما متصلٌ. وهو الذى يمكن أن تعرض له أجزاءٌ بينها حد مشترك. وإما منفصل، وهو الذى لا يكون كذلك، وهو العدد. والمتصل ينقسم إلى ما يمتنع ثباته، وهو الزمان. وإلى ما لا يمتنع، وهو ثلاثة أقسام: الخط وهو طولٌ فقط، والسطح وهو طولٌ وعرضٌ فقط، والثخنُ وهو طولٌ وعرضٌ وعمقٌ. وأما الكيف فأقسامه أربعة: الأول: الكيفيات المختصة بالكميات، كالاستقامة والانحناء والزوجية والفردية للعدد. والثانى: القوة واللاقوة، فهى الكيفية التى نحو الانفعال، كاللين. والثالث: الكيفيات النفسانية، وهى

إن كانت غير راسخة، تسمى حالًا ، كالكتابة في أول الأمر . وإن كانت راسخة، تسمى ملكة. والرابع: الكيفيات المحسوسة، والراسخة منها تسمى انفعاليات، سواء كانت في ابتداء الوجود، كحلاوة العسل وحمرة الورد. أو فيما بعد، كملوحة ماء البحر. وغير الراسخة تسمى انفعالات كحمرة الخجل وصفرة الوجه .

وبعد ذلك يتوقف الأبهرى عند فكرة: الواحد والكثير، فيوضح المراد بكل اصطلاح منهما. ثم يتناول صفات الواحد (الله) والدلائل على وجوده، وغير ذلك من موضوعات العلم الإلهى، أو ما كان يسمى بالفلسفة الأولى.

وقد اعتمدنا فيما سبق، على مخطوطة (عنوان الحق) المحفوظة تحت رقم 3134 بجامعة اسطنبول، وهى مصورةٌ بمعهد المخطوطات بالقاهرة. وهى نسخة جيدة، كتبت سنة 709 هجرية. وربما تكون هى المخطوطة الوحيدة الباقية من مخطوطات هذا الكتاب!.. ومما لا شك فيه أننا مقصرون أشد التقصير تجاه الأبهرى وتراثه المخطوط، مما يجعلنا غافلين عن قراءة صفحة مهمة من صفحات التراث العربى الذى لا يزال فى أغلبه مخطوطًا. ونكتفى، ونحن أصحاب هذا التراث، بما يقدمه لنا الغرب من دراسات ونظريات وأفكار عن تراثنا؛ لأن الغربيين اهتموا بالبحث فيه أكثر منا. وهكذا صرنا نرى أنفسنا، على النحو الذى يصوره الآخرون لنا، ونعرف ذاتيتنا، بحسب ما يريد غيرنا (الغربى) أن نعرفه.

كتاب عنوان الحق
وبرهان الصدق
لقدوة أكابر الحكماء اثير الدين
الابهري
رحمه الله

مخطوطة جامعة اسطنبول
(صفحة العنوان)

بسم الله الرحمن الرحيم قال الامام الاجل العالم وحيد عصره
وفريد دهره امام الائمة والعلما قدوة الاكابر الكبرا اثير الدين الابهري
نور الله ضريحه . الحمد لله الذي توحد بالعزة والبقا وتفرد بجلال العظمة
والكبريا الكريم الذي افاض بجوده فواعل الوجود وحقايق الاشيا واخترع
بلطايف صنعه عجايب عالم النور والضيا والصلوة على رسوله محمد خاتم الانبيا
وعلى آله واصحابه درر النجبا وسلم تسليما كثيرا . اما بعد فهذا تلخيص [illegible] الحكمة
حررته لاخواننا في الدين ورفقائنا في طلب الصدق واليقين ولكل من [illegible]
واحب العقل بنفس زكية وهمة عالية يطلب الحق من حيث هو هو [illegible]
فما القوانين التي استخرجتها من القوة الى الفعل سبيل الايجاز وحسبه عنوان
الحق وبرهان الصدق فاستعنت بالله ولي التوفيق القول [illegible]
ومواد التصور مراتبها هو الذهن عن الخطا في الفكر [illegible]
تصور غايته لتتادى منها الى تصور [illegible] التصور [illegible]
الشي في العقل والتصديق هو الحكم على الشي اما بنفي او باثبات [illegible]
التصور يسمى تصورا ساذجا [illegible] ويجب تقدم [illegible] الثاني
لتقدم التصور على التصديق [illegible] تصور ذات المحكوم عليه
او تصور امر صادق عليه والا لا [illegible] مطلقا حكما عليه وهو [illegible]
قولنا لا شي من المجهول مطلقا محكوما عليه [illegible] ماذكرتم لكان
ذلك

بداية القسم الأول من المخطوطة (فى المنطق)

بسم الله الرحمن الرحيم     القسم الثاني في العلم الطبيعي

وهو مرتب على مطالع المطلع الاول في حقيقة الجسم ولواحقه اللازمة من نفسه
وفيه فصول خمسة الاول في ان الجسم لا يتركب من اجزاء لا تتجزى ويدل عليه وجوه
احدها انه لو فرض جزء بين جزئين فالوسط ان كان مانعا من تلاقي الطرفين فما يلاقي
احدهما غير ما يلاقي الاخر فيكون منقسما وقد فرض غير منقسم هذا خلف وان لم يكن مانعا
فالطرفان متلاقيان فلا يكون هناك [illegible] وقد فرض كذلك هذا خلف الثاني لو فرض
جزء بين متلاقيين فان تلاقيا لا بالكلية فهما منقسمان وان تلاقيا بالكلية لما كان
حجمهما زائدا على حجم احدهما في المقدار فلا يكون الكل اعظم من الجزء هذا خلف الثالث لو فرض
جزء لا يتجزى لكان [illegible] في جهة غير ما يسامت الجهة الاخرى فيكون منقسما
وقد فرض خلافه هذا خلف الرابع لو فرض الجسم مركبا من اجزاء لا تتجزى فالدائرة العظيمة
من الرحى اذا تحركت جزءا لا يتجزى فالقطبية ان تحركت اقل منه لزم انقسام ما لا يتجزى
وهو محال وان تحركت مثله او اكثر منه لزم تمام حركة الدائرة القطبية قبل تمام حركة
الدائرة العظيمة فيلزم اما تفكك الرحى او سكون الدائرة القطبية هذا خلف فالجسم
لا يتركب من اجزاء لا تتجزى ولا ينتهي بالتجزئة الى ما لا يتجزى فيكون انقسامه الوهمي
الى ما لا نهاية له وربما يمتنع ذلك في الاعيان لسبب [illegible] فيه الاجزاء بمجرد فرض
[illegible] كاني البلدة [illegible]
[illegible] لا امكان [illegible] الى الفعل وزعم قوم ان الجسم

بداية القسم الثانى (فى العلم الطبيعى)

بسم الله الرحمن الرحيم القول في العلم الإلهي

وفيه مطالع المطلع الأول في العلم الكلي المشتمل على تقاسيم الوجود وفيه فصول

الفصل الأول في تقاسيم الوجود ... الموجود إما أن يكون في شيء لا كجزء منه

شايعًا بالكلية بحيث لا يصح مفارقته عنه أو لا يكون كذلك فإن كان الأول يسمى

الشايع المنسوب ... والمنسوب إليه محلا ... فإن كان متقومًا على المحل

يسمى المحل موضوعًا والحال عرضًا وإن لم يكن متقومًا عليه يسمى المحل هيولى والحال صورة فالموضوع

والهيولى يشتركان اشتراك الخصين تحت أعم وهو المحل والعرض والصورة يشتركان

اشتراك الخصين تحت أعم وهو الحال والشيء إذا كان أعم من غيره فسلب ذلك الأعم

أخص من سلب ذلك الأخص فاللاكون في المحل أخص من اللاكون في الموضوع لأن الكون

في المحل أعم من الكون في الموضوع فالجوهر هو الماهية الممكنة التي إذا وجدت في الأعيان

كانت لا في موضوع والعرض هو الماهية التي إذا وجدت في الأعيان كانت في موضوع

والجوهر إن كان حالا فهو الصورة وإن كان محلا فهو الهيولى وإن كان مركبًا منهما فهو الجسم

وإلا فهو الجوهر المجرد ولما العرض ... فإن امتنع ثباته لذاته فهو الحركة وإن لم يمتنع فلما

أن يكون ماهيته معقولة بالقياس إلى الغير وهو النسبة أو لا يكون والأول لما

أن يكون ... لذاته وهو الكم أو لا يكون وهو الكيف والحركة إن أضيفت

إلى الفاعل سمي التفعل وإن أضيفت إلى المنفعل سمي الانفعال وأما النسبة

فيدخل فيها الأين وهو حصول الشيء في المكان ومتى وهو حصوله في الزمان والوضع

بداية القسم الثالث (في العلم الإلهي)

# الفصل الواحد بعد العشرين
## (مخطوطة طبيعيات)

# عَيْنُ الحَيَاةِ فِي اسْتِنْبَاطِ المِيَاه

للدَّمَنْهُورِي

في مساء ليلة شتوية دافئة، أواخر العام 1989 الميلادى، خرجتُ مع صديقى المفكر سامى خشبة لنجلس على مقهى شعبى، يمد كراسيه فى ساحة مسجد أبى العباس المرسي. كنا قد انتهينا للتوِّ من ندوةٍ، تحدث فيها عن (ثورة المعلومات) وكنت أديرها. وأردنا مواصلة النقاش معًا، ونبش (كناسة الدكان بعد رحيل السكان) فامتدت جلستنا المنفردة تحت أقدام أبى العباس المرسى، إلى وقتٍ من الليل متأخرٍ.

فى تلك الليلة ناقشنا أمورًا كثيرة، كان من بينها مسألة بداية النهضة الحديثة فى مصر والمنطقة العربية. فقلت له ما مفاده، إنه قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر، كانت هناك إرهاصات مصرية للنهضة. فقال ما معناه إن المستشرق الأمريكى المعاصر بيتر جران بحث هذه المسألة، ووضع فيها بحثًا بديعًا بعنوان: الجذور الإسلامية للرأسمالية، استقصى فيه جوانب الموضوع، وقد نشر كتابه منذ بضعة أعوام بالإنجليزية، ولم يُترجم للأسف إلى العربية.

بعدها بشهور، قابلت بيتر جران فى لقاء عابر، لم يكن فيه مجال للخوض فى هذه المسألة، أو للسؤال عن الكتاب. حتى جاءت سنة 1992 لتحمل لنا المطابعُ فى أواخرها، ترجمةً عربية للكتاب. وهكذا صار الأمر متاحًا للتعرف إلى (رؤية) هذا المستشرق الأمريكى المعاصر[1].

يلخِّص بيتر جران (رؤيته) فى تقديمه للطبعة العربية، فيقول: ما أزعجنى، بعد مرور سنوات على صدور الكتاب بالإنجليزية؛ هو أن مَنْ كتبوا عن مصر لم يتخلَّوا عن عام 1798 (عام مجيء الحملة الفرنسية) كبداية للتحديث فى مصر، بل ولم يفكروا فى

---

(1) نشرت الكتاب: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع (القاهرة، باريس) بترجمة محروس سليمان، ومراجعة د. رءوف عباس. وقد جاءت الترجمة فى شكل جيد، وإن كانت تنقصها المراجعة الدقيقة، خاصة فيما يتعلق بضبط المصطلحات وأسماء الأعلام.

مجرد طرح الافتراض القائل إن مصر كانت تتمتع بثقافة حية، وإنه كان من الممكن أن تنجز عملية التحديث بنفسها. . وتحدياً لما يمكن أن نطلق عليه (نظرة تاريخية أوروبية المحور) وهى نظرة تنطوى على مفهوم أن العالم الثالث كان فى سبات عميق حتى مجىء الغرب. كان هدفى من الكتاب أن أبرهن على أن مجىء نابليون إلى مصر عام 1798 لم يكن ذا أهمية كبيرة فى التاريخ المصرى، كما تزعم حركة التاريخ الأوروبية[1].

وبالفعل، استطاع بيتر جران أن يثير ذلك الفرض القائل بأن جذور النهضة الحديثة، تشكلت داخلياً. ولم يكن مجىء الحملة الفرنسية، إلا عاملا مساعداً لمولد هذه النهضة التي تستمد أصولها من داخل مصر، وفى إطار ثقافتها العامة السائدة آنذاك. ولقد ركز بيتر جران فى كتابه، على تحليل الثقافة المصرية بكل مكوناتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعلمية فى الفترة الممتدة من سنة 1760 إلى سنة 1840 ميلادية، مع التركيز على واحد من أشهر رجال هذه المرحلة، الشيخ حسن العَطَّار.

ومع ذلك، فإننى أعتقد من جانبى، أن إثبات هذه الفرضية كان يقتضى الرجوع قليلًا إلى الوراء، لتحليل التربة التى أنبتت حسن العَطَّار ومرحلته. ولعل التركيز على اثنين من مشاهير الرجال السابقين قليلا على العَطَّار، سيكشف عن الكثير، بل يؤكد أن العَطَّار لم ينشأ من فراغ، وإنما كان امتداداً لحركة فكرية ذات أصول مصرية خالصة. وهذان الرجلان، هما: الإمام مرتضى الزبيدى، صاحب: (تاج العروس من جواهر القاموس، وإتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين؛ بالإضافة إلى أكثر من مائة كتاب أخرى)[2]. . والشيخ أحمد الدمنهورى، صاحب المخطوطة التى نتحدث عنها، وعنه، فى هذا الفصل.

---

(1) بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية (مقدمة الترجمة العربية) ص 10 .

(2) توفى الزبيدى سنة 1205 هجرية. وقد علق بيتر جران اهتمامه بالعطار دون الزبيدى، بقوله: إننى أفترض دائما أن كل بلد له طرقه الخاصة نحو الحداثة، وأنه لا جدوى من الأفكار الشائعة عن (مجىء الغرب) وحيث إن هذه الرؤية هى رؤية الأقلية من المؤرخين، فقد رأيت أنه من المهم استراتيجيًا، أن أتتبع بعمق مجرى حياة إحدى الشخصيات البارزة. على أن يكون قد عاصر مرحلة ما قبل 1798 وما بعدها، كسبيل لبناء حجتى. ومن ثم، فقد اخترت شخصية العطار. أما عن مرتضى الزبيدى، هذه الشخصية العظيمة، فكان بالتأكيد مقبولا لدى، وربما كان اختيارا أفضل. إلا أنه بوفاته قبل مجىء الأوروبيين، ينتمى إلى الفترة المتأخرة من العصر العثمانى، وهى الفترة التى أحاول أن أحللها، وأود أن أثير جدلًا أقوى حولها متخذًا من مادة العطار أساسًا (الجذور الإسلامية للرأسمالية، ص 11) .

في مجال التعريف بشخصية أحمد الدمنهوري، كان لدينا نص من شأنه أن يكشف الكثير من جوانب هذه الشخصية. ذلك أن أحد تلامذة الدمنهوري، وضع ترجمةً لشيخه سماها: الجواهر في مناقب أبي العباس أحمد الدمنهوري الشاطبي الشاطر. ولا تزال هذه الترجمة مخطوطة، ولم نعثر على نسخة منها بعد.. ومع ذلك، لدينا ترجمة أخرى مهمة، يمكن من خلالها التعرف إلى الدمنهوري؛ أعني الترجمة التي أوردها الجبرتي في تاريخه الشهير المسمى: عجائب الآثار في التراجم والأخبار. وتكمن أهمية هذه الترجمة، في أنها من وضع معاصرٍ للدمنهوري، بل تلميذ له. بالإضافة إلى إلقائها الضوء على الحياة العلمية في عصر الدمنهوري. وسوف نورد نص الترجمة كاملًا مع وضع بعض الهوامش الشارحة عليه.. يقول الجبرتي في وفيات سنة 1192 هجرية:

وأما من مات في هذه السنة من أعيان العلماء والمشاهير، الشيخ الإمام العلامة المتفنّن أوحد الزمان وفريد الأوان، أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهوري المذاهبي[1] الأزهري[2]. ولد بمدينة دمنهور الغربية سنة 1101 هجرية، وقدم الأزهر وهو صغيرٌ يتيمٌ لم يكفله أحد، فاشتغل بالعلم وجال في تحصيله واجتهد في تكميله، وأجازه علماء المذاهب الأربعة. وكانت له حافظة ومعرفة في فنون غريبة وتآليف. وأفتى على المذاهب الأربعة، ولكن لم يُنتفع بعلمه ولا بتصانيفه؛ لبخله في بذله لأهله ولغير أهله. وربما كان يبيح في بعض الأحيان، لبعض الغرباء، فوائد نافعة. وكانت له دروسٌ في المشهد الحسيني، في رمضان، يخلطها بالحكايات. وربما وقع له، حتى يذهب الوقت[3]. وولي مشيخة الأزهر، بعد وفاة الشيخ الحفني. وهابته الأمراءُ لكونه كان قوَّالًا للحق، أمَّارًا بالمعروف، سمحًا بما عنده من الدنيا. وقصدته الملوك من الأطراف، وهادته بهدايا فاخرة. وسائر ولاة مصر من طرف الدولة كانوا يحترمونه. وكان شهير الصيت، عظيم الهيبة،

(1) يقصد: أنه كان يفتي على المذاهب الأربعة: الحنفية، المالكية، الشافعية، الحنبلية.

(2) لم يكن الدمنهوري أزهريًا فحسب، بل تولى مشيخة الأزهر.

(3) يتناقض الجبرتي هنا في قوله إن الدمنهوري انهمك في التدريس وإفادة الطلاب، وإنه لم ينتفع بعلمه؛ لأنه كان يبخل به إلا على الغرباء! ولعل هذه المسألة بحاجة إلى نظر دقيق، يكشف المزيد عن أقوال الجبرتي.

منجمعًا عن المجالس الجمعيات، وحج سنة 1177 مع الركب المصرى، وأتى رئيس مكة وعلماؤها لزيارته وعاد إلى مصر وقد مدحه الشيخ عبد الله الإدكاوى بقصيدة يهنئه بذلك. يقول فيها:

لَقَدْ ســـرنا وطَابَ الوَقْتُ وانْشَرَحَتْ
صُدورنـــا حَيْـث صَحَّ العَوْدُ للوَطَنِ
فالْعَـوْدُ أحْمَــدُ قَالُـوه وَقَدْ حُمِـدَتْ
بَــدْءًا وعَــوْدًا مَسَاعِيكُمْ بِـلاَ غبَنِ
فَأنْـــتَ أمْجَـــدُنَـا وأنْــتَ أرْشَدُنَـا
وأنْـــــتَ أحْمَــدُنا فِى السرِّ والعَلَـنِ

وقرأ المترجَم (الدمنهورى) على أفقه الشافعية في عصره: عبد ربه بن أحمد الدِّيوى، شرْحَ المنهج[1] وشرح التحرير[2]. وعلى الشهاب الخليفى، نِصْفَ المنهج وشرحَ ألفية العراقى فى المصطلح[3]. وعلى أبى الصفاء الشنوانى، شرحى التحرير والمنهج، والخطيب على أبى شجاع، إيساغوجى[4]، وشرح الأربعين لابن حجر[5]، وشرح الجوهرة[6] لعبد السلام. وعلى عبد الدايم الأجهورى، ابن

(1) يقصد كتاب (منهاج الطالبين فى فروع الشافعية) للنووى. وعلى هذا الكتاب شروح لا حصر لها.. (راجع: كشف الظنون ص 1873 وما بعدها).

(2) هناك عدة كتب فقهية تحمل عنوان (التحرير) أشهرها: التحرير فى أصول الفقه لابن همام الحنفى.. ولعل المقصود هنا هو كتاب: التحرير فى الفروع لأبى العباس أحمد الجرجانى الشافعى، المتوفى سنة 482 هجرية.

(3) الإشارة إلى قصيدة زين الدين عبد الرحيم العراقى (المتوفى 806 هجرية) الألفية الشهيرة فى أصول الحديث النبوى، وتبدأ الألف بقوله:

يقول راجـى ربـه المقتـــدر   عبد الرحيم بن الحسين الأثرى

(4) يقصد شرح الخطيب على متن أبى شجاع، وشرحه لمقدمة المنطق المعروفة باسم إيساغوجى، لأثير الدين الأبهرى.

(5) هو كتاب الأربعين حديثًا، للنووى. وقد شرحها ابن حجر الهيتمى المتوفى 974 هجرية، وعنوان الشرح: الفتح المبين بشرح الأربعين.

(6) جوهرة التوحيد، منظومة فى علم الكلام، لإبراهيم اللقانى (المتوفى سنة 1041 هجرية) والشرح لولده عبدالسلام اللقانى.

قاسم على الآجرومية[1] وشرحها، والقَطْرَ[2]، والأزهرية[3]، وشرح الورقات للمَحَليّ[4]. وحضر على الشمس الأطفيحى، دروسًا من البخارى[5]، وبعضًا من التحرير، وبعضًا من الشمائل[6]، وبعضًا من شرح الأربعين لابن حجر. وعلى الشيخ عبد الوهاب الشَّنَوانى، ابنَ قاسم والأزهريةَ. وعلى الشيخ، الأرثماطيقى للشيخ سلطان[7]. وعلى الشمس الغمرى، شرْحَ البهجة الوردية لشيخ الإسلام[8]، وشرح الرَّمْلى على الزُّبَد[9]، والمواهب للقسطلانى[10]، وسيرة[11] كُلٍّ من ابن سَيِّد الناس والحَلَبى، والجامع الصغير[12] للسيوطى مع شرح المنَاوى عليه، وشرْحَ التائية للفرغانى[13]، وشرحَ السَّعْدِ على تصريف العزِّى[14]. وعلى

(1) يقصد، شرح ابن قاسم على المقدمة لابن آجروم النحوى .
(2) يقصد، قطر الندى وبل الصدى. وهى مقدمة فى النحو، كالأجرومية، لابن هشام النحوى، المتوفى 762 هجرية.
(3) يقصد، المقدمة الأزهرية فى علم العربية. لخالد بن عبد الله الأزهرى، المتوفى سنة 905 هجرية.
(4) الورقات فى الأصول، لإمام الحرمين أبى المعالى الجوينى (المتوفى 478 هجرية) وشرحها للشيخ جلال الدين المحلى الشافعى، المتوفى سنة 864 هجرية .
(5) يقصد: صحيح البخارى .
(6) الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية، للإمام الترمذى (أبى عيسى محمد بن سورة، المتوفى 279 هجرية).
(7) المقصود أنه درس على الشيخ نفسه (عبد الوهاب الشنوانى) كتاب الأرثماطيقى فى الرياضيات، للشيخ سلطان.
(8) يقصد أنه درس على شمس الدين الغمرى، شرح البهجة .. والبهجة الوردية، منظومة فى فروع الشافعية، نظم فيها مؤلفها (زين الدين عمر بن مظفر الوردى الشافعى المتوفى 749 هجرية) كتاب الحاوى الصغير فى الفروع، لنجم الدين القزوينى الشافعى (المتوفى 665 هجرية) نظمه فى خمسة آلاف بيت. أما الشرح المشار إليه، فهو شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصارى، المتوفى 910 هجرية.
(9) لعله يقصد الزبدة، وهى كتاب: زبدة الأحكام فى اختلاف الأئمة الأربعة الأعلام، لسراج الدين الغزنوى الحنفى المتوفى سنة 773 هجرية .
(10) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (فى السيرة النبوية) لشهاب الدين أبى العباس أحمد القسطلانى المصرى المتوفى سنة 923 هجرية.
(11) يقصد كتاب : السيرة النبوية .
(12) هو كتاب: الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير .
(13) هو شرح السعيد محمد بن أحمد الفرغانى ( المتوفى 700 هجرية) على تائية ابن الفارض فى التصوف. وهو، كما يذكر حاجى خليفة: الشارح الأول لها، وأقدم المشايعين لابن الفارض (كشف الظنون ص 265).
(14) هو شرح سعد الدين التفتازانى (المتوفى 793 هجرية) على كتاب التصريف العزى، أو العزى فى التصريف، للشيخ عز الدين الزنجانى المتوفى بعد سنة 655 هجرية.

عبد الجواد الميداني، الدُّرَّة[1]، والطَّيِّبَة[2]، وشرحَ أصول الشاطبية[3] لابن القاصح، والأربعين النووية، والأسماء[4] السهروردية، وبعضًا من الجواهر الخمس للغوث[5]. وعلى الوززازي، شرح الصغرى، والكتاني عليه، وبعضًا من شرح الكبرى[6]، مع اليوسي، وبعضًا من مختصر خليل، ولامية[7] الأفعال. وعلى الشهاب النفراوي[8]، دروسًا من الجوهرة، والأشموني. وعلى عبد الله الكنكسي، القَطْرَ، والشذور[9]، والألفية[10]، والتوضيح، وشرحَ السلم[11]، وشرح مختصر اليوسي، والمختصرَ، والمطوَّل[12]، والخزرجيةَ، والكافي، والقلصادي، والسخاويةَ، والتلمسانيةَ، وألفيةَ العراقي، وبعضَ مسلم، وأجازه في بقية الكتب الستة، وفي وِرْدِ شيخه مولاي عبد الله السِّجِلْمَاسي، الشريف. وعلى محمد بن عبد الله السِّجِلْمَاسي شرحَ الكبرى مع حاشية اليوسي، والتلخيصَ،

---

(1) هناك عدة مؤلفات بعنوان الدرة، ولما كان الشيخ الميداني متخصصًا في القراءات، فلعل المقصود هو: الدرة المضية في قراءات الأئمة الثلاثة المرضية، لشمس الدين الجزري. وهي أرجوزة نظمها المؤلف، تكملة للشاطبية.

(2) طيبة النشر في القراءات العشر، لشمس الدين الجزري.

(3) الشاطبية، أرجوزة شهيرة في القراءات، للشاطبي.

(4) يقصد، الأسماء الحسنى وأسرارها وخواصها.

(5) في كشف الظنون ص 614 : الجواهر الخمس للشيخ أبي المؤيد محمد بن خطير الدين، وهو مختصر ألفه بكجرات سنة 956 ورتبه على الجواهر: الأول في العبادة، والثاني في الزهد، والثالث في الدعوة، والرابع في الأذكار، والخامس في عمل المحققين من أهل الطريقة.

(6) ربما يقصد التائية الصغرى والتائية الكبرى، وكلاهما قصيدة صوفية شهيرة، لابن الفارض.

(7) هي لامية ابن مالك النحوي (المتوفى 672 هجرية) في الأفعال، أولها:

الحمد لله لا أبغي به بدلًا    حمدًا يبلغ من رضوانه الأملا

(8) في معجم المؤلفين 60/9: محمد بن إسماعيل النفراوي المصري المالكي، المتوفى 1185 هجرية، فقيه مشارك في بعض العلوم، من آثاره: الأجوبة على الأسئلة الخمسة التي أوردها الدمنهوري على علماء مصر.

(9) شذور الذهب (في النحو) لابن هشام النحوي، المتوفى 762 هجرية.

(10) ألفية ابن مالك ( في النحو) لجمال الدين محمد الجياني المعروف بابن مالك، المتوفى 672 هجرية، وهي ألف بيت أولها:

قال محمد هو ابن مالك    أحمد ربي الله خير مالك

(11) السلم المرونق في علم المنطق، لعبد الرحمن بن سيدي محمد الصغير. أرجوزة في نظم إيساغوجي لأثير الدين الأبهري، أولها:

الحمد لله الذي قد أخرجا    نتائج الفكر لأرباب الحجا

(12) المختصر والمطول، شرحان لسعد الدين التفتازاني على كتاب: تلخيص المفتاح.

ومَتْنَ الحكَم، وبعضًا من صحيح البخارى. وعلى السيد محمد السمونى شيخ المالكية، مَتْنَ العَزِيَة، والرسالة، ومختصر خليل وشرحه للزرقانى، ودروسًا من الخرشى والشُبراخيتى، وأجازه بجميع مروياته وبالإفتاء فى مذهب مالك. وعلى الفقيه محمد بن عبد العزيز الزيادى الحنفى مَتْنَ الهداية[1]، وشرح الكنز[2] للزيلعى[3]، والسراجية فى الفرائض والمنار[4]. وعلى السيد محمد الريجاوى، مَتْنَ الكنز، والأشباه والنظائر[5]، وشيئًا من المواقف[6] من بحث الأمور العامة. وأخذ عن الزعترى، الميقات والحساب والمُجيب والمقنطرات والمنحرفات، وبعضًا من اللمعة[7]. وعلى السحيمى، منظومة الوفق المُخَمَّس وروضة العلوم. وعلى الشيخ سلامة الفيومى، الجَغمينى. وعلى عبدالفتاح الدمياطى، لُقَط الجواهر، ورسالة قسطا بن لوقا فى العمل بالكرة، ورسالة ابن الشَّاط فى الاسطرلاب، ودُرّ ابن المجدى[8]. وله شيوخ آخرون، كالشهاب أحمد ابن الخبازة، والشيخ حسام الدين الهندى، وحسين أفندى الواعظ، والشيخ أحمد الشرفى، والسيد محمد الموفق التلمسانى، ومحمد السودانى، ومحمد الفاسى، ومحمد المالكى. كذا (هذا ماورد) فى برنامج شيوخه، المسمى: باللطائف النورية فى المنح الدمنهورية[9].

وأما مؤلفاته فمنها: اللُبُّ المَصُون بشرح الجوهر المكنون، ومنتهى الإرادات فى تحقيق الاستعارات، وإيضاح المُبهم فى معانى السُّلَّم، وإيضاح المشكلات من متن الاستعارات، ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف، والحذاقة بأنواع العلاقة،

---

(1) الهداية فى الفروع (فقه حنفى) لبرهان الدين المرغينانى المتوفى 593 هجرية.
(2) كنز الدقائق فى الفروع (فقه حنفى) لأبى البركات، النسفى، المتوفى 710 هجرية.
(3) هو أول شارح للكنز: فخر الدين أبو محمد عثمان بن على الزيلعى، المتوفى 743 هجرية. وعنوان الشرح: تبيين الحقائق لما اكتنز من الدقائق.
(4) منار الأنوار (فى أصول الفقه الحنفى) للنسفى.
(5) الأشباه والنظائر فى الفروع، لابن نجيم المصرى الحنفى، المتوفى 970 هجرية.
(6) المواقف (فى علم الكلام) لعضد الدين الإيجى، المتوفى 756 هجرية.
(7) اللمعة فى حل الكواكب المبعة، لشهاب الدين الريشى المؤقت. وهناك أيضًا: اللمعة الماردينية فى شرح الياسمينية.. وكلاهما فى الفلك.
(8) هذه المؤلفات جميعها، فى الرياضيات والفلك.
(9) كان من عادة المشايخ، حتى وقت قريب، وضع مثل هذا الثبت المسمى (المشيخة) للدلالة على الأهلية العلمية لصاحبها. وهذه المشيخة (ثبت الشيوخ) بالإضافة إلى الإجازات التى يحصل عليها العالم من مشايخه، تشبه ما نسميه اليوم: شهادات التخرج والخبرة.

وكشف اللثام عن مخدرات الأفهام (على البسملة)، وحسن التعبير لما للطَّيبة من التكبير (فى القراءات العشر)، وتنوير الميقاتين بضياء أوجه الوجه بين السورتين، والفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى، وطريق الاهتداء بأحكام الإمامة والاقتداء (على مذهب أبى حنيفة)، وإحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد، والدقائق الألمعية على الرسالة الوضعية، ومنع الأثيم الحائر من التمادى فى فعل الكبائر، وعين الحياة فى استنباط المياه، والأنوار الساطعات على أشرف المربعات (وهو الوفق المئينى)، وحلية الأبرار فيما نسم على من الأسرار، وخلاصة الكلام على وقف حمزة وهشام، والقول الصريح فى علم التشريح، وإقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة، وفيض المنّان بالضرورى من مذهب النعمان، وشفاء الظمآن بسرِ قلب القرآن، وإرشاد الماهر إلى كنز الجواهر، وتحفة الملوك فى علم التوحيد والسلوك (منظومة فى مائة بيت)، وإتحاف البرية بمعرفة العلوم الضرورية، والقول الأقرب فى علاج لسع العقرب، وحسن الإنابة فى إحياء ليلة الإجابة (وهى ليلة النصف من شعبان)، والزهر الباسم فى علم الطلاسم، ومنهج السلوك إلى نصيحة الملوك، والمنح الوفية فى شرح الرياض الخلفية (فى علم الكلام)، والكلام السديد فى تحرير علم التوحيد، وبلوغ الأرب فى اسم سيد سلاطين العرب.. وغير ذلك، وغالبها رسائل صغيرة الحجم منثورة ومنظومة، اطَّلعتُ على غالبها.

اجتمع الفقيرُ (الجبرتى) على المترجَم (الدمنهورى) قبل وفاته بنحو سنتين[1]، ولما عرفنى تذكر الوالد (والد الجبرتى) وبكى وعصر عينيه، وصار يضرب بيده على الأخرى، ويقول: ذهب إخواننا ورفقاؤنا. ثم جعل يخاطبنى بقوله: يا بن أخى، ادع لى. وكان منقطعًا بالمنزل، وأجازنى بمروياته ومسموعاته، وأعطانى برنامج شيوخه ونقلته. ولم يزل، حتى تعلَّل وضعف عن الحركة. وتوفى يوم الأحد عاشر شهر رجب من السنة المذكورة (1192 هجرية= 1778 ميلادية) وكان مسكنه ببولاق. وصُلِّى عليه بالأزهر، بمشهد حافل جدًّا. وقُرئ نسبه إلى أبى محمد البطل الغازى، ودفن بالبستان.. وكان آخر مَنْ أدركنا من المتقدِّمين[2].

---

(1) كان الشيخ الدمنهورى آنذاك، فى التاسعة والثمانين من عمره.

(2) الجبرتى: عجائب الآثار (مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة) 32/2 وما بعدها.

وتدلنا (وثيقة) الجبرتى، أو ترجمته للشيخ الدمنهورى؛ على عدة أمور من شأنها لفت النظر إليها.. ولذلك أوردناها هنا بتمامها، فمن ذلك:

أولًا: تكشف (الترجمة) عن عالم الثقافة والمعرفة السائدة فى عصر الدمنهورى. تلك الثقافة التى تعكسها قراءته على هذا الكَمّ الكبير من الشيوخ، فى كل فَنّ. مما يعنى أنه كانت هناك أجيالٌ من العلماء المشتغلين بكافة فروع المعارف، الدينية والدنيوية. فإلى جانب الفقه نجد الطب، ومع اللغويات نجد الطبيعيات.. وقد كان هذا فى جيلٍ سابقٍ على العَطّار والدمنهورى.

ثانيًا: إن النظام التعليمى كان من الاتساع بحيث يستوعب ذلك اليتيم الذى لم يكفله أحد، فيرفعه إلى مصافّ العلماء وشيوخ الأزهر، مما يدل على أن الاتساع العلمى كان يوازيه اتساع فى نظم التعليم وكفاية وجوه الإنفاق عليه آنذاك، بحيث يكفل قاعدة عريضة من المتعلمين من بينهم الأيتام من أمثال الدمنهورى. فالرجل بالقطع لم يكن حالة فريدة، بدليل هذا الكم الكبير من الأساتذة الذين تلقى عليهم.

ثالثًا: لم يقتصر دور الأزهر آنذاك على الاشتغال بعلوم الدين، وإلا فإن ثلث قراءات الدمنهورى، وجزءًا كبيرًا من مؤلفاته؛ تتناول علوم الدنيا. وهى علومٌ لم تكن متطورة بالشكل الذى تُناظر به العلوم الطبيعية فى أوروبا، لكنها كانت موجودةً، وكان يمكن تطويرها ذاتيًا، لو حدث نوعٌ من الاحتكاك بالغرب آنذاك.. وهو الدور الرائد الذى سيقوم به من بعد، رفاعة رافع الطهطاوى وخير الدين التونسى.

رابعًا: إن مؤلفات الدمنهورى لقيت منا ـ نحن الأحفاد الحاليين ـ أكبر قدر ممكن من الإهمال، رغم توفر مخطوطاتها.. فلم يُنشر من هذه المؤلفات سوى أقل القليل. وربما يكون شرحه على (السلم المرونق) هو الكتاب الوحيد المطبوع، وقد طبع بدون تحقيق.

والآن، فلننظر فى مخطوطة (عين الحياة فى استنباط المياه) حيث يبدأ

الدمنهورى مخطوطته[1] بقوله: حمدًا لمن بفضله أبدع الكائنات وأحيا بمنته، بالماء، نوعى الحيوان والنبات. وصلاة على من استنبط من أشرف الأصلاب، سيدنا ومولانا محمد . . وبعد، فيقول المستمطر سحائب عفو مولاه العلى، أحمد بن عبدالمنعم الدمنهورى الحنفى المالكى الشافعى الحنبلى: هذا ما التمس منى واحدُ المحققين، وقدوة العلماء المدققين، عمدة المحصلين لمذهب النعمان . . سيدى يوسف بن محمد الزعوانى، ثم التونسى الحنفى، إمام سلطان الأمراء وأمير السلاطين، القائم على ساق الجد والاجتهاد، فى إحياء ما اندرس من معالم الدين . . من رسالةٍ فى علم استنباط المياه، فى غاية الإيضاح. فأجبته لذلك، مع غاية اشتغال البال، وتكدُّر الخاطر من تراكم الهموم وسوء الحال. راقمًا ما يحضرنى فى ذلك المقام، ومثبتًا ما وقفتُ عليه من كلام الحكماء الأعلام. ولم أقف على تأليفٍ مستقلٍ فى هذه الصناعة، بل نُبَذ ذُكرت فى علم الفلاحة استطرادًا لتتميم البضاعة. وسمَّيته بعين الحياة فى علم استنباط المياه، ورتبته على مقدمة وبابين وخاتمة[2] . .

وفى المقدمة يشرح الشيخ الدمنهورى معنى (استنباط المياه) فيوضح أن الاستنباط هو الاستخراج، وعلى ذلك فهذا العلم يُقصد منه استخراج المياه الكامنة فى الأرض، للانتفاع بها فى إحياء النبات والحيوان. وهو يلفت النظر إلى مسألة طريفة، هى علاقة الإنسان بعناصر الطبيعة. فمن ذلك حسبما يقول: مشابهة نفس الإنسان للنار! وهو يستدل على ذلك، بأن الإنسان يعيش فى المكان الذى تكون فيه النار، ويهلك حيث تنطفئ . . يقول الشيخ :

ولذلك، إذا أراد أصحاب المعادن والحفائر دخول فتقٍ أو مغارة، أخذوا خشبةً طويلةً فى رأسها شعلة، وقدَّموها أمامهم، فإن بقيت الشعلة دخلوها، وإن انطفت لم يتعرَّضوا لدخولها. وأيضًا إذا أرادوا نزول جُبٍّ، أرسلوا فى ذلك الجب قنديلًا فيه مصباح، فإن انطفأ لم يتعرَّضوا، وإن بقى نزلوا . .

---

(1) اعتمدنا هنا، على النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية، تحت رقم 108/ طبيعيات تيمور. وهى تقع فى 84 صفحة من القطع المتوسط.
(2) الدمنهورى: عين الحياة، ورقة 2ب، 3أ.

ولا شك فى أن العنصر الفعال هنا، وهو الأوكسجين اللازم لبقاء النار مشتعلةً، واللازم أيضًا لعملية التنفس الإنسانى. وإذا كان الشيخ الدمنهورى لم يتفطّن إلى هذا العنصر، كما سيتفطّن الغربيون، إلا أن ما يحسب له هنا، هو تسجيله لتلك الملاحظات الدقيقة. . كُل اكتشافٍ علمى، إنما يبدأ بالملاحظة.

وفى المقدمة أيضًا، يتحدث الشيخ عن مهب الريح، وعن طبيعة الرياح الشمالية والجنوبية، وخصائص ريح الصَّبا والدبور، وما هو ممطرٌ وغير ممطر من الرياح، وكيفية تكوُّن السحب، ويفسِّر أثر المياه الجوفية في حدوث الزلازل.

والباب الأول من المخطوطة (فى بيان المواضعِ التى فيها ماء، والتى لا ماء فيها، والتى ماؤها قريب، والتى ماؤها بعيد) فيعدد المؤلِّف الدلائل على وجود الماء أو عدمه، ويستخدم فى ذلك التجارب الدقيقة بعيدًا عن أى تفكير غير علمى، ويشرح خطوات كل تجربة. والباب الثانى (فى حفر الآبار وما يتعلق بذلك)، وفى هذا الباب يقول الدمنهورى: ينبغى إذا كانت الأرض صلبة، أن توسع استدارة البئر بأكثر من القدر المعروف. . وإن كانت رخوة فينبغي أن تضيق الحفر، وتحفر على التراخى، بأن يمسك الحفارون عن الحفر ساعة ثم يعودوا إليه، ويستمروا على هذا الحال إلى ظهور الماء. .

ولا تخلو المخطوطة فى بعض مواضعها، من آثار التفكير الخرافى القديم. فمن ذلك قوله: للعيون التى ينقص ماؤها عن مقداره المعروف، تؤخذ جارية دون البلوغ، معها مزمار، فتحاذى منبع الماء وتزمر ثلاث ساعات من النهار، ثم تأخذ جارية أخرى طبلًا، فتوقع به على غناء الجارية وزمرها أربع ساعات، فيكون مقدار الزمن سبع ساعات. فإن الماء يكثر ويزيد عما كان أولًا. . وتجدر الإشارة هنا، إلى أن العقل الإنسانى لم يتخلص من هذا التفكير الخرافى، إلا بعد مسيرة طويلة من الجهد العملى الجاد. ولا تزال آثار هذا التفكير سائدة عند البعض حتى اليوم، رغم ما بلغه العلم من تقدُّم، ولذا، لا يمكن أن نلوم الشيخ الدمنهورى كثيرًا على ما يذكره من وسائل تجميع الماء فى الآبار، وهى مسألةٌ لم يتمكن العلم المعاصر، حتى الآن، من تقديم حَلٍّ علمىٍّ حيالها.

وفى الخاتمة، يعتمد الشيخ الدمنهورى على ما كتبه علماء العرب الأوائل، كالقزوينى والإدريسى، ليقدّم تصورًا عن أقاليم الأرض وأنهارها وجبالها. ثم يضع تفسيرًا علميًا لحدوث الزلازل والبراكين، فيقول: إن الأدخنة والأبخرة الكثيرة إذا اجتمعت تحت الأرض، ولم تصادفها برودة . . ويكون وجه الأرض صُلبًا، ليس فيه منفذٌ ولا مسام. فالبخارات إذا قصدت الصعود، لا تجد المسام والمنافذ؛ فتهتزُّ فيها بقاع الأرض وتضطرب، كما يرتعد بدن المحموم عند شدة الحمى . . وربما ينشقُّ وجه الأرض وتخرج من الشَّقِّ الموادُ المحتبسة دفعة واحدة. وقد يكون خروجها ببلدة، فيخسفها . . وهو يرى أن الجبال، سبب جريان الماء : ولو فُرض عَدَمُ الجبال، لكانت الأرض كرةً لا غور فيها ولا نتوء. فالبخار المرتفع لا يبقى فى الجو منحصرًا على رءوس الجبال جليدًا، إلى وقت يضربه البرد، بل يتحلَّل هواءً، فلا يجرى الماء على وجه الأرض. فاقتضى التدبير الإلهى وجود الجبال لحصر البخار المرتفع من الأرض بين أغوارها، ويمنعه من السيلان، فيبقى محفوظًا إلى أن يفعل به ما تقدَّم . .

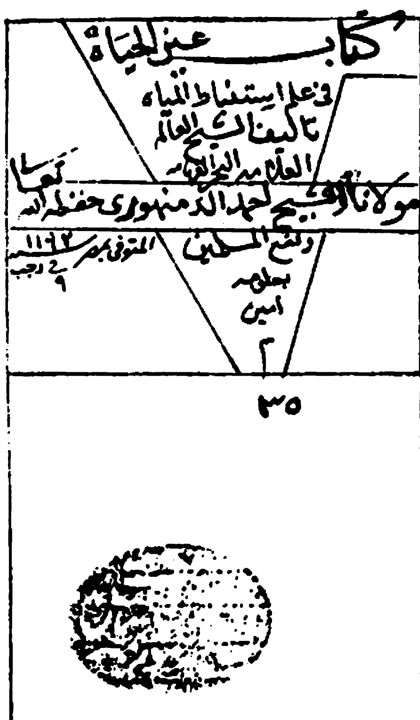
ويرسم الشيخ فى مخطوطته خطوط الطول والعرض على النحو التالى: تقدَّم أن الأرض كُرِّيَّة الشكل، وحيِّزها وسط العالم. فإذا توهَّمنا معدَّل النهار قاطعًا للعالم، حدث على بسيط الأرض دائرةٌ عظيمة، على موازاة معدل النهار، تقتسمُ الأرض بقسمين متساويين، جنوبى وشمالى، يقال لها: حد الاستواء. لأن زمان النهار مساوٍ لزمان الليل أبدًا فى ذلك الموضع. والشمس إذا كانت مُسَامتَةً إحدى نقطتىْ الاعتدالين، مرَّتْ فى سطح معدل النهار على سَمْت رءوس سُكَّانه، واعتدل الليلُ والنهار . . فإذا توهمنا أيضا دائرة عظيمةً تمر بقطبى العالم وتقطع سطح المعدل بقسمين، وتمرُّ بطرفى العمارة، أعنى المشرق والمغرب، حدث على بسيط الأرض دائرةٌ عظيمة تقسمُ الأرض نصفين. وتنقسم الأرضُ بهاتين الدائرتين أرباعًا متساوية؛ ربعين جنوبيين، وربعين شماليين . . وأما طول البلد، فهو قوسٌ من دائرة معدَّل النهار، ودائرة نصف النهار المارة بسمت رءوس أهل البلد. ودائرة أفق القبة، هى دائرة نصف النهار . وأما عرض البلد، فهو قوسٌ من دائرة نصف

النهار، ما بين معدل النهار وسمت الرأس.. ثم المعمور من الأرض، منقسم سبعة أقسام، يسمى كل قسم منها إقليمًا..

ويعدِّد الشيخ أقاليم الأرض المعمورة، فيذكر خصائص كل إقليم ومساحته. مشيرًا إلى أن هناك عمارة في الأرض، خارج هذه الأقاليم السبعة؛ قاصدًا بذلك (الإسكيمو).. وهو يصف أهل كل إقليم، من حيث لون البشرة وطبيعة الأخلاق.. ثم يختتم مخطوطته ببعض الوصايا القرآنية والنبوية، ويذكر طرفًا من أقوال الحكماء، كقول أفلاطون: اطلب العلم يعظِّمك الخاصة، واطلب المال يعظِّمك العامة، واطلب الزهد يعظِّمك الجميع.

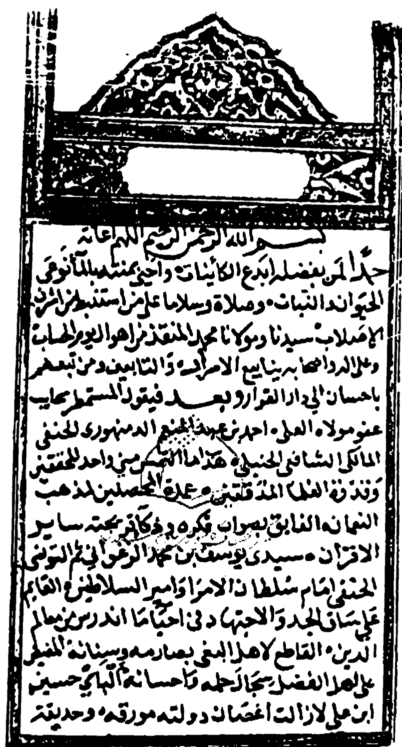
والورقة الأخيرة من المخطوطة التي بين أيدينا، عبارة عن خريطة فلكية يتوسَّطها قرصُ الشمس، وحوله دائرة فلك البروج. تحيط بها دائرةٌ أكبر، تضم مواضع الأقاليم المواجهة للبروج.. وهي خريطة ملونة بديعة الرسم.

وبعد، فإن هذه المخطوطة هي نموذجٌ دال على أن العرب في مصر؛ كانت لهم اهتماماتهم العلمية قبل مجيء الحملة. ومن ثم، فليس صحيحًا ما يقال من أن الحملة الفرنسية جاءت في وقت خلت فيه الديار العربية من أي اهتمامات علمية. ولكن المخطوطة تثبت، من جهة أخرى، أن العالم العربي كان منعزلًا عما يجري في العالم الخارجي، وأن العلوم العربية كانت قد انعزلت عن الواقع العالمي وتقوقعت على ذاتها. وهذا ما تؤكِّده إشارة الشيخ الدمنهوري في المخطوطة، حيث يقول: أما ناحية المغرب، فيمنع البحر المحيط السلوك فيه؛ لتلاطم أمواجه وشدة ظلمته.. هذا مع أن القارة الأمريكية كانت قد اكتشفت بالفعل آنذاك، ولم يعد المحيط الأطلنطي هو آخر الحدود الغربية للمعمورة. لكن انعزال الواقع العربي عما يجري في العالم، وعدم تفاعل العرب مع مكتشفات الغرب، كان السبب في تخلفهم نوعيًا عن العلوم المتقدمة، مع أن مبادئ تلك العلوم كانت موجودة لديهم.

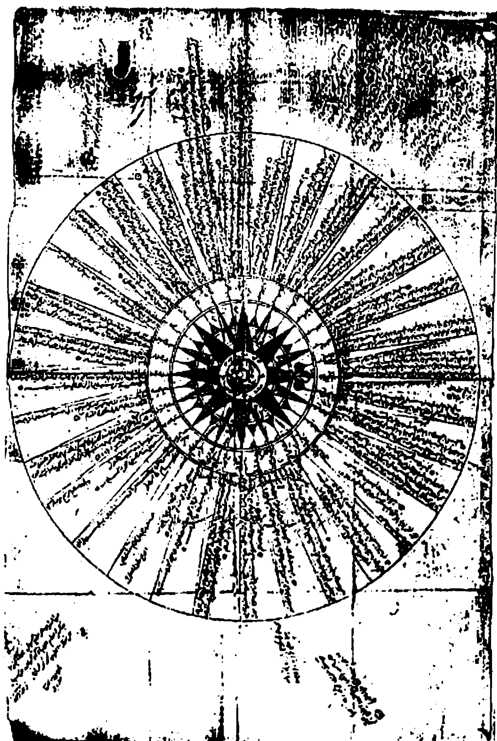



غلاف المخطوطة

(نسخة دار الكتب المصرية رقم 108 / طبيعيات تيمور)


بسم الله الرحمن الرحيم اللهم اعانة
حمداً لمن بفضله ابدع الكائنات واحيى بمنته بالماء نوعي
الحيوان والنبات وصلاة وسلاما على من استنبط من اثر
الاصلاب سيدنا ومولانا محمد المنقذ من اهوال يوم الحساب
وعلى اله واصحابه ينابيع الاسرار والتابعين ومن تبعهم
باحسان الى دار القرار وبعد فيقول المستمطر سحايب
عفو مولاه العلي احمد بن عبد المنعم الدمنهوري الحنفي
المالكي الشافعي الحنبلي هذا ما التمس مني احد المحققين
ونادرة الفضلاء المدققين وعمدة المحصلين لمذهب
النعمان الفائق بصواب فكره وذكائه بحثه سائر
الاقران سيدي يوسف بن محمد الزعفراني التونسي
الحنفي امام سلطان الامرا وامير السلاطين القائم
على ساق الجد والاجتهاد في احيا ما اندرس من معالم
الدين القاطع لاهل البغي بصارمه وسنانه المتفضل
على اهل الفضل بجميل حلمه واحسانه الباي حسين
ابن علي لازالت اغصان دولته مورقة وحديقة
ملكه

الورقة الأولى



الخريطة الفلكية الواردة بآخر المخطوطة

(صورة مصغرة)

# الفصل الثانى بعد العشرين

## (مخطـوطـة طبيـة)

# قَامُوسُ الأَطِبَّاءِ ونَامُوسُ الأَلِبَّاءِ

### للقـوصُـونِـى

تُثير إطلالتنا على هذه المخطوطة قضيتين. القضية الأولى: هى امتدادٌ لما تعرضنا له فى الفصل السابق، أعنى ضرورة إعادة النظر فى أحكامنا العامة على نتاج العقلية العربية، خلال القرون المسماة اعتباطًا بقرون التخلُّف. فقد رأينا عند الكلام عن الشيخ أحمد الدمنهورى أن العلم العربى فى مصر، لم يكن على هذا النحو المزعوم من التخلف. وإنما كانت لدى علمائنا اهتمامات فى شتى صنوف العلم، مما يكذِّب الدعوى بتخلفهم قبل مجىء الحملة الفرنسية. وغنىٌّ عن البيان أن مستوى البحث العلمى العربى آنذاك، كان أقل من مثيله فى بلدان أوروبا، لكنه لم يكن منعدمًا تمامًا، بدليل النهضة العلمية التى حدثت فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى (أوائل القرن التاسع عشر) والقفزة الحضارية التى قامت بها مصر، فى عصر محمد على، فأفزعت أوروبا، ودفعتها للتخطيط لإجهاض مشروع محمد على فى مؤتمر لندن الشهير. ولولا استعدادٌ سابق وتهيُّؤ، لما كانت العقلية العربية آنذاك قد استوعبت علوم أوروبا بهذه السرعة، ولما كان الكيان الحضارى الناهض فى مصر والشام، قد هدَّد أوروبا على هذا النحو الذى دفعها لاتخاذ التدابير اللازمة لتدميره، وعلى أىِّ حال، فسوف نعود مع مخطوطة هذا الفصل (قاموس الأطباء) إلى الوراء قليلًا، فنتوقف هذه المرة عند القرن الحادى عشر الهجرى، الذى وُصف هو الآخر بأنه كان من عصور التخلُّف. فنحاول أن نراه فى ضوء الجهود العلمية لأحد أعلامه فى مجال الطب (القوصونى) لعلنا نعيد النظر فى تهمة التخلف التى ألصقناها بالقرن الحادى عشر الهجرى.

والقضية الأخرى: واحدةٌ من القضايا المطروحة أمامنا اليوم فى بلدان العرب، أعنى قضية تعريب الطب. وهى قضيةٌ تختلف فيها الآراء، فالرافضون للتعريب يخشون من عدم قدرة اللغة العربية على استيعاب المصطلحات الطبية المعاصرة،

ويرون أن اللغة الإنجليزية هى لغة عالمية متقدّمة، تستطيع أن تساير التقدم العلمى العالمى فى مجال الطب. والرأى الآخر يؤيد تعريب الطب، ويراه ضرورة لا مفر منها لتأكيد الهوية. فكما يدرّس الطب فى فرنسا بالفرنسية، وفى ألمانيا بالألمانية، وفى إسرائيل بالعبرية؛ لابد وأن يُدرس الطب فى البلاد العربية بلغة هذه البلاد. ولا يزال الخلاف يدور حول هذه المسألة، وكل فريق يقدّم حُججه وأدلّته المؤيدة لرأيه. ولا تزال القضية معلّقة، فبعض البلدان العربية مثل سوريا، أقدمت بالفعل على تعريب الطب، بينما أغلب البلاد الأخرى فى الوطن العربى تدرسه بالإنجليزية . . ولعله من المفيد لنا، فى غمرة هذا الخلاف الدائر حول تلك القضية؛ أن ننظر فى هذه المخطوطة بعين الاعتبار، لعلنا نرى فيها ما يعين على وضوح القضية فى أذهاننا، وييسِّر اتخاذ الموقف الصائب بصددها .

مؤلِّف مخطوطة (قاموس الأطباء وناموس الألبّاء) هو: رئيس الأطباء، مَدْيَنُ ابن عبد الرحمن القوصُونى. . هكذا ورد التعريف به، فى المراجع القليلة التى أشارت إليه[1]. وهى إشارات، على قلّتها، متضاربة؛ مما يثير بعض الإشكالات التى أولها: لم توضِّح المراجع المراد بلفظ (رئيس الأطباء) فهل تنسحب رياسته على أطباء مصر كلهم، أم على مستشفى واحد بالذات؟ وثانيها: أن بعض المراجع كمعجم المؤلفين، تذكر أن لقبه القيصونى! وثالثها: أن كافة الإشارات المرجعية، لم تذكر تاريخ وفاته.

وسوف نسعى فيما يلى، إلى حَلِّ هذه الإشكالات، كمحاولة للتعريف بهذه الشخصية التى لم تحظ حتى الآن، بأية دراسة فى المكتبة العربية ولا الاستشراقية، ولم ينشر عنها، أو لها، أى كتاب. . وبخصوص الإشكال الأول، نقول :

أما رياسة الطب، فالثابت أن القوصونى كان مديرًا للبيمارستان المنصورى فى القاهرة، وهو المستشفى المعروف فى زمن القوصونى باسم: دار الشفاء. فهل كان رئيس

---

(1) باستثناء ترجمة القوصونى فى الجزء الرابع من كتاب المحبى (تاريخ خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر) فلا نكاد نجد عنه إلا بعض الشذرات المتناثرة فى: معجم المؤلفين لكحالة 213/12، هدية العارفين للبغدادى 423/2، كشف الظنون لحاجى خليفة ص 1306.

أطباء دار الشفاء فحسب، أم عموم أطباء مصر؟ إن الذى ذكرته المصادر صراحةً، أنه كان رئيسًا لأطباء مصر جميعًا، هو قُوصونىٌ آخر: الشيخ محمد شمس الدين القوصونى، طبيب السلطان الغورى ومدير دار الشفاء، المتوفى 917 هجرية. بينما اكتفت المصادر بصدد مَدْيَن القوصونى بأنه: رئيس الأطباء[1]. ومع ذلك، فإن دار الشفاء كانت أكبر مستشفى فى مصر آنذاك، وكان متولِّى إدارتها من الأطباء، هو عادةً رئيس عموم أطباء مصر[2]. وقد كان أول رئيس لهذا البيمارستان، هو العلاء ابن النفيس (رئيس أطباء مصر فى زمانه) ثم تولَّى هذا المنصب من بعده، جملةٌ من مشاهير الأطباء فى كل عصر[3].

أما بخصوص لقب (القيصونى) فقد انفرد به عمر كحالة[4]، وهو على كل حالٍ، ليس بحُجَّةٍ فى مسألة الألقاب، ولعل تصحيفًا وقع عند طبع الكتاب، فانقلب اللقب من قَوصونى، إلى قيصونى.. ويبدو لقب (القوصونى) للوهلة الأولى، كأنه نسبة إلى بلدة (قوص) الشهيرة بصعيد مصر، وهى بلدة كانت لها مكانتها فى القرون السالفة[5]. ولكن النسبة فى واقع الأمر، إلى منطقة (جامع قُوصونى) بالقاهرة! وقوصون هذا مملوك شهير فى زمانه، كان قد ملك المنطقة وبنى فيها مسجده الكبير، فعرفت باسمه.

أما وفاة القوصونى غير المحددة فى المصادر والمراجع، فهى حالةٌ فريدة، ففى

---

(1) ترك البغدادى فى هدية العارفين المسألة معلقة.. فقال: رئيس الأطباء بمصر.

(2) يقابل منصب (رئيس الأطباء) ما نسميه اليوم (وزير الصحة).. وكانت مهامه تتعدد بين متابعة أحوال الصحة العامة، وتخريج الأطباء الجدد وامتحانهم، ومراقبة الأوقاف الخاصة بالمستشفيات، وتفقد أحوال المرضى بها، وإدارة المستشفى المنصورى الذى كان بمثابة مقر وزارة الصحة.

(3) ظلَّ هذا البيمارستان (المستشفى) قائمًا ومفتوحًا للمرضى، بموضعه فى شارع بين القصرين بالقاهرة، حتى سنوات قليلة ماضية، فكان بذلك أقدم مستشفى فى مصر والعالم العربى. وهو يعرف باسم (مستشفى قلاوون للرمد) وكان اسمه قبل ذلك (دار الشفاء) وعرف فى زمن إنشائه باسم (البيمارستان المنصورى الكبير) نسبة إلى المنصور قلاوون الذى أمر بتشييده سنة 673، وبدأ العمل به بعد عام واحد من هذا التاريخ. وبخصوص تاريخ هذا البيمارستان خلال القرون الثمانية الماضية، يمكن الرجوع إلى الفصل البديع الذى أفرده له الدكتور أحمد عيسى فى كتابه: تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (دار الرائد العربى، بيروت ص 83: 171).. وقد عدد المؤلف أسماء الأطباء الذين تولوا رياسة هذا البيمارستان، ومن بينهم مدين القوصونى. لكنه لم يذكر (ابن النفيس) أول رؤسائه.

(4) معجم المؤلفين 213/12.

(5) يقول ياقوت الحموى عنها: قوص مدينة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، أهلها أرباب ثروة واسعة، وهى محط التجار القادمين من عدن.. (معجم البلدان 413/4) وهى اليوم بلدة صغيرة، منسية، تابعة لمحافظة قنا بجنوب مصر.

غالب الأمر، نجد تاريخ وفاة الأعلام محددًا بدقة فى كتب التراجم، أما تاريخ المولد فقد تسكت عنه التراجم، نظرًا لأنه لم تكن هناك سجلات للمواليد، أما الوفاة بعد الشهرة فأمرها معروف، لكننا فى حالة القوصونى نجد العكس! فقد أجمعت المصادر على أنه ولد سنة 969 هجرية، لكنها لم تذكر تاريخ وفاته.. وقد ذكر المُحبى أنه كان حيًا سنة 1044 هجرية، وقال فى آخر ترجمته للقوصونى: ولقد سعيتُ جهدى فى تحصيل وفاة صاحب الترجمة فلم أظفر، لكن غاية ما حقّقت من خبره أنه كان فى سنة أربع وأربعين وألف موجودًا فى الأحياء، كما يُعلم ذلك من تاريخه الذى وضعه، والله أعلم[1].. وربما يكون هذا الأمر الفريد، بسبب شهرة والد القوصونى من جهة، ولذلك أرَّخ الناس لمولد ابنه[2]. ومن جهة أخرى، بسبب اعتزال مدين القوصونى الحياة العامة فى آخر عمره، وانزوائه، كما فعل العديد من معاصريه[3]، بحيث غاب تاريخ وفاته عن أهل زمانه.. والذى يرجِّح ذلك، هو هذا الخبر الذى أورده ابن إياس، حين ذكر أن الأشرف قايتباى أمر، فى شعبان سنة 902 هجرية، أن تقطع الحيّات التى تصنع منها الأدوية فى بيمارستان قلاوون، بحضرته، حتى يتفرج عليها. فأحضروها بين يديه، فقطعت بحضرته وهو ينظر إليها، ثم خلع (منح مالا) على رئيس الطب شمس الدين القوصونى وولده[4].

والمعروف أن شمس الدين محمد القوصونى، المذكور، توفى سنة 917 هجرية، مما يعنى أن فى أسرة القوصونى، مشاهير قبل (مدين بن عبد الرحمن). ولا أحبُّ هنا أن أزيد فى الافتراضات غير المؤكدة، وإن كان ثمة افتراض يطوف بذهنى، هو: لماذا لا يكون رجلنا هو (أبو مدين عبد الرحمن بن محمد القوصونى) وبالتالى فهو ابن (شمس الدين محمد القوصونى) الذى خلع عليه قايتباى مع والده. خاصةً أن تاريخ الواقعة التى حكاها ابن إياس، سنة 902 هجرية، يوافق بلوغ صاحب

---

(1) خلاصة الأثر 333/4 .

(2) وقد نص القوصونى صراحة فى آخر مخطوطة «قاموس الأطباء» على أن مولده كان سنة 969 هجرية.

(3) تكثر فى أزمنة الاضطرابات والضعف الحضارى عملية انسحاب العلماء عن الحياة العامة فى آخر عمرهم.. والأمثلة على ذلك كثيرة، بداية من الإمام أبى حامد الغزالى، وحتى الدكتور جمال حمدان والدكتور عبد الرحمن بدوى.

(4) بدائع الزهور فى وقائع الدهور (اسطنبول 350/1) نقلا عن: تاريخ البيمارستانات، ص 100.

(قاموس الأطباء) الثالثة والثلاثين من عمره. وهي سنٌ مناسبة لحضوره واقعة قطع الحيات، بوصفه مساعداً لوالده رئيس الأطباء.. وهذا محض افتراض.

والمؤكد بعد كل هذه الترجيحات والافتراضات، أن القوصونى نشأ بالقاهرة، ودرس على جماعة من مشاهير عصره. فقد ذكر المُحِبّى أنه درس الطُّبَّ على يد أشهر أطباء عصره (الشيخ داود الأنطاكى صاحب التذكرة) وأخذ العلوم عن شهاب الدين أحمد بن أحمد المتبولى الشافعى، والشيخ عبد الواحد البرجى.

وقد أضاف القوصونى فى خاتمة مخطوطته (قاموس الأطباء) إلى قائمة مشايخه: محمد شمس الدين الغيطى، الشافعى المتوفى 982 هجرية. جمال الدين يوسف ابن شيخ الإسلام زكريا الأنصارى، المتوفى 984 هجرية. بدر الدين محمد بن محمد الكرخى الشافعى، المتوفى 1005 هجرية. شمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة الرملى، المتوفى 1004 هجرية.. وهكذا تلقى القوصونى الطب على أشهر أطباء العصر. واشتهر فى زمانه كطبيب، حتى تولَّى رياسة البيمارستان المنصورى (دار الشفاء) ومشيخة الطب بمصر، بعد ابن الصائغ.

ويذكر المؤرخون للقوصونى مجموعةً من المؤلفات التى لم تقتصر على الطب، ففى الأدب كتب: ريحان الألباب وريعان الشباب فى مراتب الآداب، وفى التاريخ: تاريخ مصر، وهو الكتاب الذى توقف فيه، عند سنة 1044 هجرية، على ما يقول المُحِبى[1]. وله فى الطب كتابان: طَيِّبات الأنباء فى طبقات الأطباء. والآخر: قاموس الأطباء وناموس الألباء[2].. وقد انتهى من هذا الكتاب الأخير، حسبما ذكر بخاتمته، سنة 1038 هجرية[3].



(1) ذكر القوصونى فى خاتمة مخطوطته (قاموس الأطباء) أن له كتاباً آخر فى التاريخ والتراجم بعنوان: الروح الباصر فى بعض وفيات أهل القرن العاشر.. وسوف يمر علينا بعد قليل، أن له كتابا فى العشق!

(2) خلاصة الأثر 333/4.

(3) اعتمدنا فيما يلى على النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب الظاهرية بدمشق (وقد قام مجمع اللغة العربية بدمشق بتصويرها).. وكان الدكتور أحمد عيسى قد ذكر فى كتابه (تاريخ البيمارستانات ص 165) أن فى خزانة كتبه الخاصة نسخة مخطوطة من الكتاب. وتجدر الإشارة إلى أن مخطوطة الظاهرية نقلها محمود صدقى الناسخ بدار الكتب المصرية (من نسخة أقدم محفوظة بالدار تحت رقم 30/ طب) سنة 1340 هجرية الموافقة 1922 ميلادية – كما هو مذكور بالطرة الأخيرة من الجزء الثانى للمخطوطة.

في مقدمة قاموس الأطباء، يبدأ القوصُوني بحمد الله تعالى : الذى جعل لسان العرب قاموسًا مديدًا، وناموسًا مفيدًا، وفردوسًا فريدًا، ولُجَّةً تُسْتَخْرَجُ منها صِحَاحُ الدُّرَرِ.. وكأنه بذلك يلفت الأنظار إلى مقدرة اللغة العربية على التعبير عن دقائق كل العلوم، وعدم قصورها عن اللحاق بما يتطور دائمًا من المعارف. ثم يتخذ القوصوني موقفًا تقدميًا، حين ينتقد قول بعض معاصريه (ما ترك الأوائل شيئًا للأواخر) وهى قولةٌ رجعيةٌ، كفيلة بتجميد العلم وتخلف المعرفة؛ ولذا ينتقدها القوصوني بشدة، موضحًا أن الاقتصار على ما قدّمه الأوائل فى العلم والمعرفة، هو نوعٌ من السهو والتخلف، فقد وضع الأوائل قواعد العلوم، كى يأتى من بعدهم فيستكملوا الفروع ويحرروا الدقائق.

ثم نرى القوصُوني وهو يوضّح لنا فضل علم الطب، قائلًا: إن كُلَّ علمٍ يشرف على غيره، إما بحسب موضوعه. ولا شك أن العلم الإلهى أشرف العلوم، لأن موضوعه أشرف موضوع، وهو ذات الله وصفاته، والطب يجب أن يكون بعده؛ لأن موضوعه هو بدن الإنسان، الذى هو أشرف المواليد، أو يكون شرف العلم، بحسب شدة الحاجة إليه، ولا شك أن الحاجة إلى الطب، أشدُّ منها إلى غيره.. ومما يُسْتدلُّ به على شرف الطب أيضًا، أن الإنسان إذا عرف علم التشريح، عرف قدر ما أودعه الله فى البدن من الأسرار. وهذا من أقوى الدلائل، وأعظم الوسائل إلى الاعتراف بالخالق العظيم.

والعبارة الأخيرة فى هذه الفقرة، توضّح تهافت رأى المستشرقين الذين زعموا أن الأطباء العرب لم يعرفوا التشريح، وأن اكتشافاتهم لأسرار البدن الإنسانى، هى محض آراء نظرية.. فها هو القوصُوني يشير بما لا يدع مجالًا للشك، إلى أن التشريح كان علمًا معترفًا به عند الأطباء العرب. وأنه لا يخالف الشريعة الإسلامية، بل هو دافعٌ لمعرفة قدرة الخالق فى صنع الأبدان، وهذا الأمر نراه أيضًا، عند غالبية أطباء المسلمين، مما يعنى أن هؤلاء الأطباء، على اختلاف عصورهم، لم يُنكروا الاشتغال بالتشريح، وإنما جعلوه مبحثًا أساسيًا من مباحث الطب، وطريقًا لا غنى عنه فى اكتشاف أسرار الجسم الإنسانى.

ويوضح لنا القُوصُونى طبيعة الكتاب، فيقول فى مقدمته : شرعتُ فى هذا الكتاب الذى لم يُنسج من قبل على منواله، لَمّا اشتمل عليه من ذكر أنواع المفردات من المعدن والحيوان والنبات، إلى ضبطِ لفظه بما ذكره أئمة اللغة بأصَحِّ ضبطٍ، وذكر أسماء المركَّبات وما يُستعمل منها وصفةِ تركيب بعضها كالتِّرْياق، وذكرِ أعضاء بدن الإنسان وضبطِ كُلِّ عضوٍ منها، مع ذكر تعريفه وتشريحه والأوصاف المتعلقة به. . وذكر الأمراض وضبطِ كل مرضٍ منها، وتعريفه، وسببه، وعلامته، وعلاجه بحسب الوقت والزمان، وقد رتَّبت الكتاب على ترتيب القاموس أبوابًا وفصولًا.

ولم يفت القُوصُونى أن يشير إلى الأصول التى اعتمد عليها فى إخراج قاموسه الطبى، وهو ما يعرف اليوم باسم (الأمانة العلمية) فنراه وهو يذكر المراجع الأساسية مثل: التهذيب فى اللغة للأزهرى، المخصَّص والمُحكم فى اللغة لابن سيده، لسان العرب لابن منظور، القانون فى الطب لابن سينا، الشامل فى الصناعة الطبية لابن النفيس. . وغير ذلك من أمهات كتب الطِّبِّ واللغة.



ومخطوطة (قاموس الأطباء) تقع فى مجلدين كبيرين. ومن خلالهما نتعرف على بعض المفردات التى يقدمها لنا القُوصونى، أو بالأحرى: يقدم لنا خلاصتها، ضمن المئات من الاصطلاحات الطبية والمفردات الصيدلانية. . فمن ذلك:

فى فصل الميم من باب الهمزة، يحدثنا القوصونى عن أحد الأمراض النفسية التى تعرِّض لها الأطباء العرب بالدراسة والبحث، فيقول فى معنى لفظ (المالنخوليا) ما نصه: المالنخوليا، بالنون الساكنة وفتح اللام الأولى وكسر الثانية اسمٌ لنوع من الجنون، وهو لفظ يونانى معناه (الخلط الأسود) وهو سبب هذا المرض، فسُمِّي باسم سببه. قال الثعالبى فى فقه اللغة: هو ضربٌ من الجنون، يُحدث بالإنسان أفكارًا رديئة، ويغلبه الخوف والحزن، وربما صرَّح ونطق بتلك الأفكار، وخلط فى كلامه. وقال الأطباء: هو عبارة عن تغيُّر الظنون عن المجرى الطبيعى، وعلامته الفكر والخوف والفزع والتخيلات الرديئة وحُبُّ الوحدة والظلمة، وعلاجه الفصد، وترطيب البدن بالأغذية والأشربة، وتقوية الدماغ والقلب بالمفرِّحات (الأدوية) المعتدلة. . ثم يسهب القَوصُونى

فى بيان الأنواع المختلفة من الجنون السوداوى، وعلامة كل نوع منها وعلاجه، ثم يكشف عن الاتجاه العلمى والابتعاد فى الطب عن الخرافة، حين يختم كلامه عن هذا المرض النفسى بقوله: قال بعض الأطباء: قيل إن المالنخوليا تحصل عن الجن، ونحن من حيث الطب لا نتقيّد بذلك.. وذلك يعود بنا إلى العبارة الرائعة التى نجدها عند ابن سينا، فى كتابه القانون، حيث يقول فيما يزعمونه من أن هذا المرض سببه الجن: ما علينا من حيث نتعلم الطب، إذا كان هذا المرض ينشأ عن جن أو غير جنٍ، بل نقول إن سببه القريب هو تصاعد الخلط السوداوى إلى الدماغ.. إلخ[1]. ويبدو أن القوصونى كان يقصد ابن سينا حين قال (قال بعض الأطباء) أو هو حفظ العبارة ونسى قائلها، فأشار إليه بقوله: (قال بعض الأطباء) كى لا ينسب الفضل فى ذلك لنفسه.. وهذا درسٌ آخر فى الأمانة العلمية، التى صرنا نفتقدها اليوم فى كثير من الأبحاث المعاصرة.

وفى فصل العين من باب القاف، يحدثنا القوصوني عن مرض نفسى آخر، هو العشق، فيقول: العِشق بالكسر: إفراطُ الحُبِّ، أو عُجْبُ المحبِّ بالمحبوب، قال أرسطو: هو عمى القلب عن عيوب المحبوب، وقال الشيخ الأكبر فى الفتوحات المكية: هو مأخوذ من العشقة، وهى اللبلابة التى تلتف على شجرة العنب، فهو يلتف بقلب المحب حتى يعميه عن النظر إلى غير محبوبه. وقال الشيخ (ابن سينا): هو مرضٌ وسواسىٌ شبيه بالمالنخوليا، يجلبه الإنسان إلى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمائل.. وقال بعض الحكماء: هو طمعٌ يتولد فى القلب وينمو مع حرص، وكلما قوى ازداد صاحبه فى الاهتياج واللّجاج والتمادى فى الطمع والحرص على الطلب، حتى يؤدى ذلك إلى الغمّ والسهر، وعند ذلك يحرق الدم وتلتهب الصفراء ويستحيلان إلى السوداء، وهى مفسدةٌ للفكر منقصة للعقل، موجبةٌ لرجاء ما لا يكون، وتمنى ما لا يتم، مؤديةٌ إلى الجنون، وحينئذ، ربما قتل العاشق نفسه، وربما مات غمًّا، وربما نظر إلى معشوقه فمات فرحًا.

على النحو السابق، ينتقل القوصونى من الدلالة اللغوية للفظ العشق، إلى الدلالة العامة له باعتباره مرحلة متقدمة من الحب، ثم يعرض لتلك الأمراض المرضية الجسمية

---

(1) ابن سينا: القانون فى الطب 66/2.

الناشئة عن هذه الحالة النفسية، وهو ما يعرف اليوم بالأمراض السيكوسوماتية. والقوصونى فى ذلك يستفيد من كل التراث السابق عليه، فيجمع على صعيد واحد آراء أرسطو (الفيلسوف اليونانى) وابن عربى (شيخ الصوفية الأكبر) وابن سينا (شيخ الأطباء الرئيس) وكأنه يشير بذلك إلى أن المعرفة الإنسانية، هى تراكمٌ معرفىٌ لا يقف عند حدود قومية أو تخصصات علمية. ولم يتوقف كلام القوصونى عن (العشق) عند هذه الفقرة التى ذكرناها، وإنما يسهب بعدها فى بيان: أصل العشق وسببه، علاماته فى الجسم، صلته بالنبض، مُهَيِّجاته، محاسنه، علاج الحاد منه.. وهو يختم ذلك، بإشارة إلى أنه ألَّف فى العشق ومعانيه كتابًا بعنوان: مُشتاق العشاق من أسواق الأشواق.

وبعيدًا عن الظواهر النفسية وحقائقها الطبية، يقدم لنا قاموس القُوصُونى شيئًا من الصيدلة والعلاج بالأعشاب. فيقول فى فصل التاء من باب اللام: التُّمْلُول، كعصفور، بقلٌ اسمه بالنبطية «فنابرى» وبالفارسية «برغشت» وهو شجر البهق، سمى بذلك لنفعه البهق نفعًا بينًا ظاهرًا سريعًا. وهو بقلٌ برى ينبت فى آخر الشتاء، ويكثر فى أول الربيع ويستمر إلى آخره، يؤكل مسلوقًا، وورقه أصغر من ورق الهندباء البرى، وثمره أبيض اللون، ويخلف بذرًا أغبر اللون دقيقًا، وهو حارٌ يابسٌ فى الأولى. قال الشيخ (ابن سينا) هو أنفع شىء للوضع أكلًا وضمادًا، يُذهب الكلف والبهق فى أيام يسيرة، وبهذا تعرفه العرب، ويفتح سُدَدَ الرئة والكبد والطحال، ومطلق للطبيعة ويزيل المغص، وقال القرشى (ابن النفيس): هو ملائم للمحرورين والمبرودين معًا، لقرب مزاجه من الاعتدال.. إلخ.



وعلى هذا النحو، يمضى (قاموس الأطباء) ليعرض لنا عبر المئات من صفحاته، خلاصة ما انتهى إليه العلم العربى فى ميادين الطب والصحة العامة وأمور العلاج والفسيولوجيا وتكوين الأعضاء وتشريح العظام والعضلات والصيدلة والموازين الطبية وخواص الحيوان، وقد صيغ ذلك كله فى القاموس، بلغةٍ عربيةٍ سليمة.

وبعد.. فهل نقول عن عصر القوصونى، إنه كان عصر تخلُّف! وهل سنظل نختلف حول قضية تعريب الطب! وهل سيظل (قاموس الأطباء) مخطوطًا؟

الصفحة الأولى، الجزء الأول
نسخة الظاهرية (ملونة في الأصل)

الصفحة الثانية من الجزء الأول

فصل العين

العُبال كعناب الورد الجبلي وهو يعظم ويغلظ ويقطع منه العصي قيل ومنه كانت عصاة سيدنا موسى عليه السلام العجل بالكسر ولد البقرة ومثله عجول بكسر العين وفتح الجيم المشددة وسكون الواو وجمع الأول عجول كقدر وقدور وجمع الثاني عجاجيل كسنور وسنانير ولحمه يتلو لحم الضأن في جودة الغذاء واعتدال الدم المتولد منه ويصلح لجميع الأعضاء.

العَسَل محركة لعاب النحل يذكر ويؤنث وجمعه اعسال قال له ائمة اللغة وقال الشيخ هو طل خفي يقع على الزهر وعلى غيره يلتقطه النحل وهو بخار يصعد فينضج في الجو فيستحيل ويغلظ في الليل فيقع عسلا وقد يقع العسل كما هو بجبال تمران ويختلف بحسب ما يقع عليه من الشجر والحجر والظاهر يلتقطه الناس والخفي يلتقطه النحل واظن ان لتصرف النحل فيه تأثيرا وانما يلتقطه ليغتذي به ويدخره. ومن العسل جنس حريف سمي انهب وقال الامام القرشي ان الرطوبات اذا تصعدت في النهار بحرارة الشمس ولم تكن كثيرة ولم يكمل تصعدها بل بقيت معلقة في الهواء القريب من الأرض لقلة الدخانية وغلبة البخارية وانطفت بحرارة الشمس فاذا جاء الليل بردت تلك الأجزاء لزوال المسخن لها فعادت بطبعها باردة متكاثفة ثقيلة هابطة الى ظاهر الأرض

الصفحة الأولى من الجزء الثاني
(نسخة الظاهرية المنقولة من نسخة دار الكتب المصرية)

# الفصل الثالث بعد العشرين

## (مخطوطة طبية)

# قَانُونُ الزَّمَانِ فِي تَدْبِيرِ الإِنْسَانِ

## لابن البَيْطَار

قامت شهرة ابن البيطار، على كونه واحدًا من أهم الصيادلة والعشّابين فى تاريخ الإسلام، بل لعله أهمهم على الإطلاق، وقد نال كتابه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) عناية كبيرة على مر العصور، ونُظر إليه على أنه أحد أهم الكتب العربية فى هذا المجال. لكننا فى هذا الفصل من الكتاب، ومن خلال هذه المخطوطة من تراثنا المجهول، سوف نرى ابن البيطار في ثوبٍ آخر، هو ثوب الطبيب النطاسي، لا الصيدلاني العَشّاب.. فلنتوقف أولًا عند ابن البيطار ومؤلفاته بعامة، ثم نلقى الضوء على مخطوطته (قانون الزمان فى تقويم الأبدان) ونسختها الفريدة.

.. ولعل أفضل مدخلٍ للتعرُّف إلى ابن البيطار، هو تلك الترجمة التى أوردها له أكبر مؤرِّخ طبى فى الإسلام (ابن أبى أُصَيبعة) وذلك لغزارة المادة التى قدمها المترجِم من جهة، ولأنه من جهة أخرى كان معاصرًا للمترجَم له.. نقرأ فى (عيون الأنباء) ما يلى:

هو الحكيم الأجلُّ، العالم، أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقى[1] النباتى، ضياء الدين، ويُعرف بابن البيطار[2]. أوحد أهل زمانه، وعلاّمة وقته فى معرفة النبات، وتحقيقه واختياره ومواضع نباته، ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها، سافر إلى بلاد الأغارقة[3] وأقصى بلاد الروم، ولقى جماعة يعانون هذا الفن، وأخذ عنهم معرفة نباتٍ كثير، وعاينه فى مواضعه. واجتمع أيضًا فى المغرب وغيره بكثير من الفضلاء

(1) مالقة: مدينة كانت عامرة بالأندلس، تقع على شاطئ البحرين، الجزيرة الخضراء وألمرية، ينتسب إليها جماعة من أهل العلم (ياقوت: معجم البلدان 43/4).. وهى المعروفة اليوم باسم: ملَجا.

(2) البيطار: الاسم القديم للطبيب البيطرى. وهو مشتقٌ من البيطرة (طب الحيوان) ولم يكن عالمنا يشتغل بذلك، إنما اكتسب هذا اللقب بانتسابه إلى عائلة (ابن البيطار) الأندلسية الشهيرة.. (راجع بخصوص هذه الأسرة، مقدمة إبراهيم بن مراد لكتاب: تفسير كتاب دياسقوريدس، دار الغرب الإسلامى ص 18، 19).

(3) يقصد اليونان.

فى علم النبات، وعاين منابته وتحقّق ماهيته. وأتقن كتاب ديسقوريدس[1] إتقانًا بلغ فيه إلى ألا يكاد يوجد مَنْ يجاريه فيما هو فيه، وذلك أننى وجدتُ عنده من الذكاء والفطنة والدراية فى النبات، وفى نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيه ما يُتعجب منه. وأول اجتماعى به كان بدمشق فى سنة 633 هجرية، ورأيتُ أيضًا من حسن عشرته وكمال مروءته وطيب أعراقه وجودة أخلاقه ودرايته وكرم نفسه، ما يفوق الوصف ويُتعجب منه، ولقد شاهدتُ معه فى ظاهر دمشق كثيرًا من النبات فى مواضعه، وقرأتُ عليه أيضًا تفسيره لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس، فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئًا كثيرًا جدًا. وكنتُ أُحضر عدة كتب من الكتب المؤلفة فى الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقى، وأمثالها من الكتب الجليلة فى هذا الفن. فكان يذكر أولًا ما قاله ديسقوريدس فى كتابه باللفظ اليونانى، على ما قد صحّحه فى بلاد الروم، ثم يذكر جُمل ما قاله ديسقوريدس من نعته وصفته وأفعاله، ويذكر أيضًا ما قاله جالينوس فيه من نعته ومزاجه وأفعاله وما يتعلق بذلك. ويذكر أيضا جُملًا من أقوال المتأخرين وما اختلفوا فيه، ومواضع الغلط والاشتباه الذى وقع لبعضهم فى نعته، فكنتُ أراجع تلك الكتب معه، فلا أجده يغادر شيئًا مما فيها. وأعجب من ذلك أيضًا أنه كان ما يذكر دواءً إلا ويعيِّن فى أى مقالةٍ هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس، وفى أى مقالة هو من جملة الأدوية المذكورة فى تلك المقالة.. وكان فى خدمة الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب، وكان يعتمد عليه فى الأدوية المفردة والحشائش، وجعله فى الديار المصرية رئيسًا على سائر العشابين وأصحاب البسطات، ولم يزل فى خدمته، إلى أن توفى الملك الكامل رحمه الله بدمشق، وبعد ذلك توجّه إلى القاهرة، فخدم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، وكان حظيًا عنده متقدّمًا فى أيامه، وكانت وفاة ضياء الدين العشاب، رحمه الله، بدمشق فى شهر شعبان سنة 646 هجرية فجأة.. ولضياء الدين ابن البيطار من الكتب:

---

(1) هو ديسقوريدس (دياسقوريدس) العين زربى. أصله من بلدة عين زربه، عاش فى القرن الميلادى الأول، وتوفى فى الربع الأخير منه، كان قد جمع خبرته النباتية فى كتاب أسماه: هيولى الطب Materia Medica وهو الكتاب الذى ترجمه حنين بن إسحاق وغيره إلى العربية، فاشتهر عند العلماء العرب بعنوان: كتاب الحشائش، وقد عكف على هذا الكتاب جماعة كبيرة من الصيادلة العرب القدماء، وشرحه واعتنى بتفسيره جماعة أخرى، منهم ابن البيطار.

- الإبانة والإعلام بما وقع فى المنهاج من الخلل والأوهام(1).
- شرح أدوية كتاب ديسقوريدس(2).
- كتاب الجامع فى الأدوية المفردة(3). وقد استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وأسماءها وتحريرها وقواها ومنافعها، وبيّن الصحيح منها، وما وقع الاشتباه فيه. ولم يوجد فى الأدوية المفردة كتاب أجلّ ولا أجود منه. وصنفه للملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل.
- كتاب المغنى في الأدوية المفردة(4)، وهو مرتب بحسب مداواة الأعضاء الآلمة.
- كتاب الأفعال الغريبة والخواص العجيبة(5). انتهى(6).



وعلى الرغم من أهمية هذه الترجمة التى دوّنها ابن أبى أصيبعة، فإن هناك بعض الأمور التى يمكن استخلاصها من المراجع والمصادر الأخرى، الخاصة بابن البيطار، التى من شأنها أن تزيد من معرفتنا بهذه الشخصية المهمة . . فمن ذلك:

---

(1) هو نقد لكتاب ابن جزلة (أبى على يحيى بن عيسى البغدادى المتوفى 493 هجرية) الشهير: منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان، وكتاب الإبانة لا يزال مخطوطًا، توجد منه نسخ نادرة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة الحرم المكى (تحت رقم 36 / طب) وقد عرض له وحقق بعض فقراته، إبراهيم بن مراد، ضمن كتابه: بحوث فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب (دار الغرب الإسلامى، بيروت 1991 ص 465 وما بعدها) .

(2) نشره إبراهيم بن مراد محققًا، وقدم له بدراسة جيدة عن ابن البيطار وكتابه، وقد صدر عن: دار الغرب الإسلامى سنة 1989، بعنوان : تفسير كتاب دياسقوريدس.

(3) هو أشهر كتب ابن البيطار، ذكر فيه أكثر من ألفى مادة مرتبةً ألفبائيًا، أحصاها إبراهيم بن مراد، فقال: يحتوى الكتاب على 1422 مادة طبية خالصة و931 مادة تفسيرية ترادفية، فكان الكتاب «جامعًا» بحق لمختلف ما انتهت إليه المعارف الطبية والصيدلانية، فى مجال الأدوية المفردة، منذ العصور القديمة حتى عصر المؤلف.
وقد نشر الكتاب، بدون تحقيق، فى أربعة أجزاء ببولاق سنة 1291 هجرية، وترجم منه أندريا ألباجو إلى اللاتينية أجزاء، كما ترجمه أنطوان جالان إلى اللاتينية أيضًا، فى القرن السابع عشر الميلادى. وفى سنة 1833 ميلادية صدرت له ترجمة ألمانية، قام بها ديتز Dietz وترجمة إلى الألمانية أيضًا: سونثايمر Sontheimer. . وأشهر ترجماته وأكملها، هى ترجمة لوسيان لوكلير إلى الفرنسية، فى ثلاثة مجلدات، صدر آخرها سنة 1883 ميلادية.

(4) لا يزال هذا الكتاب مخطوطًا.

(5) يعد هذا الكتاب اليوم، فى حكم المفقود.

(6) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (مكتبة الحياة، بيروت) ص 601.

أولًا: كان مولد ابن البيطار سنة 575 هجرية أو سنة 593 على اختلاف القولين، دون سند لكليهما[1]! وقد ذكرنا في مناسبة سابقة، أن العديد من مشاهير العلماء، كانوا مجهولي المولد، ومع ذلك فنحن نرجِّح أن يكون مولده سنة 593 هجرية. ذلك أن إشارة ابن أبي أصيبعة إلى أن ابن البيطار مات (فجأة) تجعل هذا التاريخ أقرب للصحة؛ إذ لو كان مولده سنة 575 هجرية، لكان عند وفاته قد بلغ الواحدة والسبعين. ومن يبلغ هذا العمر، لا تكون وفاته (فجأة) وإنما هي أمر محتمل، لا يثير أي دهشة، ولا تلزم الإشارة إليه، فالأرجح أنه مات في الثالثة والخمسين من عمره فجأة، سنة 646 هجرية.. وتاريخ وفاته هذا متفقٌ عليه.

ثانيًا: نشأ ابن البيطار في الأندلس بين أسرة مشهورة بالعلم، ودرس على يد جماعة من مشاهير الأطباء والعشَّابين منهم: أبو العباس ابن الرومية، ابن حجَّاج الإشبيلي، عبدالله بن صالح الكُتَامي، لكن علم ابن البيطار لم يكتمل إلا بعد ترحاله الطويل. وهو لم يدوِّن كتبًا إلا بعد استقراره في مصر والشام، أيام حكم الأيوبيين. وتلك سمةٌ عامة في علماء الإسلام، الذين وفدوا من المغرب العربي، فمعظمهم من أمثال ابن البيطار وابن عربي والتلمساني وموسى بن ميمون، لم يضعوا مؤلفاتهم إلا بعدما وفدوا على مصر والمشرق العربي.. لكن ذلك، بالقطع، لا يعني أن بلاد المغرب والأندلس، كانت خلوًا من التآليف، فهناك دوِّنت أعمال ابن سبعين وابن رشد وبنو زُهر وابن خلدون. لكن المناخ السياسي والاجتماعي في مصر والمشرق، كان آنذاك أكثر استقرارًا ومناسبةً للتأليف العلمي.. وفي مصر والشام وضع ابن البيطار مؤلفاته، وخلف من التلامذة المشهورين جماعة، من أمثال ابن أبي أصيبعة وعز الدين السويدي صاحب التذكرة.

ثالثًا: حظي ابن البيطار بتقدير كبير في مصر والشام تحت ظل الأيوبيين، ومُني أيضًا ببعض الحُسَّاد والحاطِّين من شأنه، فقد استنقص علمه عشَّابٌ مغمورٌ هو علي بن يوسف التنوخي، في مقدمة كتابٍ له بعنوان: الأشرف في صنعة الدرياق

(1) عرض إبراهيم بن مراد في مقدمة تحقيقه لتفسير كتاب دياسقوريدس (ص 19) لكلا التاريخين، دون ترجيح لأحدهما.

المنقذ للنفوس من التلف. فقال ما نصه: اجتمعت بعبد الله بن البيطار المؤلف وباحثته طويلا، وقد علم من حضر مباحثتي معه تميزي، مما لا أحتاج معه إلى زخرفة في القول. وكان رحمه الله، راوية دون مباشرة؛ لأنه اجتمع بي في أطراف جبال لبنان، وطلب مني أدوية موجودة بين رجليه، فعلمت أنه ناقل، غير مباشر[1].

وهكذا يظهر لنا أن تقنية النيل من الأعلام، هي مسألة قديمة، بل هي في واقع الأمر، موروثة من الحقدة القدماء.. فلم يكن ابن البيطار، هو أول المشاهير الذين منوا بالحاقدين ولن يكون آخرهم.

لكن الأمر الأغرب في تقنيات الحقد، هو أنها لا تقتصر على الحط من قدر العالم في علمه وخبرته، وإنما تتعدى ذلك إلى تشويه ذاته وشخصه. وقد كنت أظن أن آلية تشويه الأشخاص، هي من الأمور المستحدثة في واقعنا المعاصر، الذي يلجأ فيه ضعاف النفوس إلى النيل من الأعلام، بتشويه شخصياتهم اعتمادا على حكايات مختلقة، لا أساس لها من الصحة، فيسهل عليهم بعد ذلك الحط من شأن الواحد منهم، ومن فكره وعلمه.. ثم ظهر أنها حيلة قديمة! يقول إبراهيم بن مراد في مقدمة تحقيقه لتفسير ابن البيطار لكتاب ديسقوريدس: وأما النيل من سمعة ابن البيطار، فيبرزه ما نسجه البعض من قصة حول وفاته، فقد توفي في دمشق فجأة، في شهر شعبان من سنة 646 هجرية (بين 19 نوفمبر و17 ديسمبر من سنة 1248 ميلادية) إلا أن ابن فضل الله العمري، قد انفرد بذكر قصة مليئة بالإغراب القصصي. يقول: وحكى أنه سم نفسه فمات، حدثني الحكيم أمين الدين سليمان ابن داود المتطبب قال: كان الملك الصالح قد أعطى ابن البيطار ألف دينار، لنفقتها على أثمان أدوية دعت إليها حاجته، واجتناء حشائش شامية ورومية. فلما أتى ابن البيطار بيت المقدس، رأى امرأة نصرانية اسمها مريم، فأحبها وأنفق عليها ذلك المال حتى أنفده، وأهمل حاجة الملك الصالح. فلما قدم الملك الصالح، أراد منه أن يدخل البلد في الصباح، إلا أن ابن البيطار أحضر النصرانية، وبات معها في أكل

(1) نقل إبراهيم بن مراد هذه الفقرة من مخطوطة (الأشرف) وعقب عليها بما يدل على تهافتها.. انظر: مقدمة تحقيق تفسير كتاب دياسقوريدس، ص 28.

وشرب واستماع غناء واجتماع، حتى كان الثُلث الآخر من الليل، فأخرج حشيشة معه، سَحَنها فى هونٍ، ثم استفها، ثم نام وقال: غطونى، ثم إذا أصبحتم لا تحطُوا أشياء فى الهون حتى غدٍ، واغسلوه فإنه قد صار مسموماً، فلم يفهموا مقاله، إلى أن أصبحوا فرأوه ميتًا. ففهموا ما كان قاله، وغسلوا الهون، فلما دخل السلطان سأل عنه، فحُكيت إليه القصة فقال: لقد أساء بنا الظن، وإن مثله لأفتديه بشطر مُلكى، والله لو علمت لأعطيته عشرة آلاف دينار يصرفها فى لذته، وكان أمتعنا بنفسه !

يقول إبراهيم بن مراد: وفى هذه القصة إغرابٌ وخيال قصصيان، غير خفيين. فابن البيطار كما تظهره هذه القصة، كان خائنًا للأمانة، مبتذلًا فى أخلاقه، متهتكًا فى سلوكه، وهذا يتناقض كليًا مع ما ذكره عنه ابنُ أبى أُصيبعة، فقد قال عنه: ورأيتُ أيضًا من حُسن عشرته وكمال مروءته وطيب أعراقه وجودة أخلاقه وكرم نفسه، ما يفوق الوصف ويُتعجب منه. ونعتقد أن ابن أبى أصيبعة، ما كان ليقول عن ابن البيطار ما قال من ثناء على عشرته ومروءته وأعراقه وأخلاقه ونفسه، لو كان ما نسبته إليه هذه القصة صحيحًا، ثم إن ابن أبى أصيبعة أعلم بأحوال ابن البيطار وبسيرته من صاحب القصة، وهو أمين الدين سليمان بن داود. فهذا لم يعرف ابن البيطار، لأنه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع، والنصف الأول من القرن الثامن الهجرى، وكانت وفاته سنة 732 هجرية. يضاف لذلك أن سيرته كما أوردها ابنُ فضل الله العُمَرى، وقد ترجم له ترجمة موسعة، وكان على صلة به ؛ لا تخلو من المغامز[1].

ونضيف لما سبق: أن الكثير من الحكايات، التى أوردها ابن فضل الله العُمَرى فى كتابه هذا، الضخم (مسالك الأبصار)[2]. هى من نوع الخيال الروائى والقصص السائر، وفى تراجم الأعيان بالكتاب، كثير من هذه الحكايات المشوقة، ذات الطابع الفانتازى.. ومن جهة ثانية، فإن استخدام (تيمة) الانتحار للحطّ من شأن الأشخاص، لم ينفرد بها واضع قصة ابن البيطار، ففى ذاك العصر، استُخدمت

(1) المرجع السابق، ص 29 .
(2) هذا الكتاب هو موضوع الفصل الثامن والعشرين، فلينظر هناك.

هذه الطريقة مع أشخاص آخرين بغية الحط من شأنهم، فقيل: إن ابن سبعين انتحر بمكة! وقيل: إن السهروردى امتنع من التنفس فى سجنه بقلعة حلب، حتى مات! . . ومثل هذا كثير، ولا ينبغى أن يُؤَبه له، إلا فى إطار البحث حول تاريخ الحقد.

ثالثًا: لم يذكر ابن أبى أصيبعة كافة كتب ابن البيطار، فقد ذكر له خمسة كتب فقط. وقد ذكرت المصادر والمراجع الخاصة بابن البيطار، كتبًا أخرى، هى: ميزان الطبيب (له مخطوطة فريدة، محفوظة بمكتبة جامعة أوبسالا بالسويد تحت رقم 58) رسالة فى التداوى من السموم (مخطوطة بدار الكتب المصرية) الدرة البهية (طُبع قديمًا بمصر) . . وقد نشرتُ مؤخرًا ميزان الطبيب فى نسخة رقمية، ضمن مجموعة نوادر مخطوطات جامعة أوبسالا، الصادرة عن مكتبة الإسكندرية، وأشرتُ فى هذه النشرة، إلى أن نسبة هذا الكتاب لابن البيطار، على الرغم مما ذكرته المصادر، غير صحيحة، والأرجح أنه نسخة خطية من كتاب (الرسالة الشهابية) للماردينى.

وبالإضافة إلى هذه المؤلفات المذكورة، هناك كتاب قانون الزمان فى تقويم الأبدان لابن البيطار، وهو الكتاب الذى لم يذكره أى مرجع أو مصدر، بدايةً من ابن أبى أصيبعة . . وحتى يومنا هذا.



لا توجد من (قانون الزمان) غير نسخة واحدة مخطوطة، بمكتبة جامعة أوبسالا بالسويد، ولا أدرى كيف ذهبت إلى هناك . . وهى مصورة فى دار الكتب المصرية، عن تلك النسخة الفريدة.

وفى هذه المخطوطة، كما أسلفنا، يبدو ابن البيطار فى ثوب الطبيب لا العَشَّاب. والحقُ أن الطب والصيدلة كانا فى عصر ابن البيطار مرتبطين أشد الارتباط، ومن النادر أن نجد طبيبًا آنذاك لا علم له بالصيدلة، أو صيدلانيًا لا علم له بالطب. لكننا نَصِفُ علماء تلك المرحلة، بما يغلب عليهم من فنون العلم، فنقول مثلًا عن ابن النفيس، إنه كان طبيبًا، مع أن له اشتغالًا بالصيدلة وغيرها. ونقول عن ابن البيطار، إنه صيدلانىُ عَشَّاب، وهاهو ذا يؤلِّف فى الطب . . وغير هذا كثير.

وقد اتخذ التأليف الطبى فى هذه المخطوطة، نظامًا جديدًا، غير معهود فى عصر ابن البيطار، هو نظام الجدولة. فالمخطوطة بكاملها، عبارة عن جداول طبية، تعكس محاولة مبتكرة لتنظيم المعارف الطبية، ونَظْمها فى نسقٍ واحد لا يعتمد على السرد النثرى وتوالى العبارات، وإنما يضم الشتات فى (نظامٍ) واحد، يكشف عن رغبة تنظيمية كامنة، تسعى لتطوير شكل الكتابة العلمية، وتعدُّ حلقةً مهمةً فى تطور اللغة العلمية، وانتهائها فى العصر الحديث إلى الترميز الذى يستغنى تمامًا عن اللغة. وإذا كان الترميز فى العلم المعاصر، قد استفاد من البحوث الحديثة فى المنطق، إلا أن كتابة ابن البيطار لا تقل عن المنطق المعاصر أهميةً فى مسيرة اللغة العلمية وتطويرها. ولابد هنا من الإشارة إلى أن (قانون الزمان) ليس المؤلَّف الوحيد لابن البيطار على هذا النسق المجدول، فكتابه (الدرة البهية) عبارة عن جداول أيضًا. وأيضًا، كتب ابن التلميذ البغدادى[1]، قبل ابن البيطار، بطريقة مماثلة فى كتابه المغنى[2] الذى أورد فيه مجموعة من الجداول، يحتوى كل جدول على ثلاثة أقسام: الأول فى المرض الواحد، والآخر فى أسبابه، والأخير فى أعراضه، ثم يضع تحت الجدول فقرة نثرية، متصلة، فى تدبير هذا المرض، ثم يبدأ فى جدول آخر، لمرض آخر.. وهكذا جاء الكتاب، نصفُ مُجَدْوَل!

يبدأ (قانون الزمان) بدائرة كبيرة تحت البسملة وقبل الحمدلة، تضم الأقسام الأربعة والأربعين للكتاب، وهى تبدو كأنها فهرسٌ دائرى للمحتويات، ثم تتوالى الجداول على نحو ما سنرى فى النماذج التالية، حيث نقرأ فى صفحة العنوان: بيان العلل والأمراض: حُمى يوم[3]، حُمى العفن وهى الدِّق، الأورام وأصنافها، الأمراض العارضة فى ظاهر البدن لأسباب من باطنه ولا تختص بأحد أعضائه، الأمراض العارضة لظاهر الرأس والوجه، الأمراض العارضة لظاهر اليدين

(1) هو الحكيم الأجل، موفق الملك أمين أبو الحسن هبة الله بن التلميذ، أوحد زمانه فى صناعة الطب، ورئيس أطباء بغداد فى وقته.. توفى سنة 560 هجرية (انظر ترجمته المطولة فى: عيون الأنباء، ص 349 وما بعدها).

(2) المغنى فى الطب. توجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم 353/طب، وهى ماتزال مخطوطة لم تنشر.

(3) هى الحمى التى تشتد نوبتها يومًا وتهدأ فى اليوم التالى، وهكذا.

والرجلين، الجراحات والقروح، القروح وحرق النار وإخراج الأزجة والمداواة من الضرب بالسياط، نهش الحيوان ذى السم ولدغه، الأدوية القتالة (ثلاثة أقسام) الصرع وأقسامه، أمراض الدماغ (قسمان) أمراض النخاع، أمراض الجفن (قسمان) أمراض الملتحمة، أمراض القرنية، أمراض الحلق وما يعرض بين القرنية والجلدية، أمراض عصب البصر وأوجاع الأذن، أمراض الأنف والأذن، علل الشمّ وأمراض اللسان، أمراض الشفتين والأسنان، تحريك الأسنان واللحم النابت بينهما وأمراض اللثة، أمراض الحلق والحنجرة وقصبة الرئة - نَفْث الدم وأمراض غدة الأضلاع والحجاب، أمراض القلب، أمراض المرىء وفم المعدة، أمراض المعدة (ثلاثة أقسام) أمراض الأمعاء، أمراض الكبد، الاستسقاء وأمراض المرارة والطحال، أمراض الكلى، أمراض المثانة، أمراض الأنثيين والقضيب، أمراض الرحم وأقسامها، أمراض الرحم وعلاماتها، أمراض الرحم والثدى، أمراض الوركين والرجلين.

وبعد هذا الحصر العام، فى الجدول الدائرى؛ تأتى صفحات المخطوطة، لتزيد جداولها الأمر تفصيلًا، فأمام أمراض الدماغ، سنجد فى الجدول: السدر، الدُّوَار، الصداع، السكتة، الكابوس، المالنخوليا، القطرب[1] - العشق[2]. . وأمراض الوركين والرجلين: عِرق النَّسا، النِّقرس عن حرارة، النِّقرس عن برودة، وجع المفاصل من برودة، وجع المفاصل من حرارة، الصلابة والنفخ فى المفاصل، الافتراق. . وهكذا سار الأمر، فى الأقسام الأربعة والأربعين.



. . وعلى هذا النحو، تأتى مخطوطة (قانون الزمان) فى هذه الجداول الدقيقة، لتشهد بأن المعرفة الطبية كانت في عصر ابن البيطار قد تقدمت، حتى وجب عمل هذه التصنيفات والتقسيمات. فهل نؤكد في هذا الختام القول بضرورة نشر هذه المخطوطة وتحقيقها ودراستها فى ضوء تصنيف العلوم عند العرب. . لعل أحدًا يهتم بالأمر!

(1) المقصود بمرض القطرب، المشى أثناء النوم. . وفى كتب اللغة (مثلث قطرب) وهو كتاب لأحد كبار اللغويين، أطلق عليه أستاذه هذا اللقب (قطرب)؛ لأنه كان يأتى الأستاذ فى وقت متأخر من الليل، ليسأله عن أشياء فى العلم، فقال له الأستاذ: أنت قطرب وهو اسم لدودة صغيرة، تسعى فى الليل فقط.

(2) نظر الأطباء العرب إلى (العشق) على أنه حالة مرضية، نظرًا لما يعترى العاشق من أمور غير طبيعية، إذا اشتد به الحب. . راجع ما ذكرناه عن ذلك سابقًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

مخطوطة جامعة أوبسالا

(صفحة العنوان)

الورقة الثانية

الورقة الثالثة

# الفصل الرابع بعد العشرين
# (مخطوطة فلكية)

## كِفَايَةُ التَّعْلِيمِ فِي مَعْرِفَةِ وَضْعِ التَّقَاوِيم

للرّيشي

يردِّد كثيرون أن القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كان مرحلة تخلُّف وتدهور علمى في ديار الإسلام.. وهذا وَهْمٌ عظيم! فالحق أن المخطوطات العربية والإسلامية المدوَّنة فى هذا القرن، والآثار الباقية عنه؛ تشهدان بأن الحركة العلمية ظلت مستمرة آنذاك، فى عديد من بلدان المسلمين.

وشبهةُ التخلُّف المزعومة هذه، ترجع إلى أمرين: الأول: أن الحركة العلمية فى القرون السابقة، كانت أنشط منها فى القرن الثامن، وكان عنصر الإبداع العلمى، متوافرًا بشكل أكثر كثافة حتى القرن السابع الهجرى، فى شتى العلوم والمعارف، حتى إذا جاء القرن الثامن، صار الجهد العلمى العربى متجهًا بشكل واضح نحو التدوين والحصر. لكن ذلك لا يعنى التخلُّف العلمى، بقدر ما يدل على استجابة العلم العربى لظروف خاصة، مثل انعدام المركزية العلمية، وتدهور الواقع الاقتصادى فى معظم البلدان، وابتلاء المسلمين فى مصر والشام والمغرب والعراق، بحكامٍ من النوع الردىء. وقد أدى ذلك كله، إلى انكفاء العلماء على تدوين ما سبق من علوم القرون الخالية لحفظه، واكتفائهم بالحفاظ على صيرورة البحث العلمى، من دون أن تواتيهم الفرصة لتطويره.

والأمر الآخر الداعى إلى الظنّ بأن القرن الثامن، كان عصر تخلُّف فى ديار المسلمين؛ هو النقص الملحوظ في الدراسات المعاصرة، التى تلقى الضوء على الحالة العلمية آنذاك.. ولا أظن أن فى المكتبة العربية حتى الآن - على كثرة كتبها - كتابًا واحدًا يؤرخ للعلم العربى فى القرن الثامن الهجرى.. وهذا أمرٌ عجيب.

ولا يفوتنا هنا، أن هذا القرن كان بداية للنهوض المعرفى فى أوروبا، وهو النهوض الذى أثمر الحضارة الغربية المعاصرة، التى أسهم فيها العرب بشكل

مباشر .. إذ ظلت المؤلفات العربية طيلة القرنين السابقين، السادس والسابع الهجريين، تُترجم من العربية إلى اللاتينية لتمهِّد للنهضة تمامًا، كما مهَّدت حركة النقل والترجمة من اليونانية إلى العربية، للنهضة العلمية العربية قبل ذلك بستة قرون.. مع فارق مهم، هو أن العرب حين نقلوا كتب الهند واليونان في القرنين الثانى والثالث الهجريين، نسبوا الأعمال إلى مؤلفيها الأصليين، واعترفوا لهم بالفضل، بينما نقل بعض الأوروبيين علوم العرب، ونسبوها لأنفسهم! أو تركوها دون إشارة إلى مؤلِّفيها.

ولأننا هنا بصدد الكلام عن مخطوطة (فلكية) من القرن الثامن الهجرى، فلابد لنا من التأكيد على أن علم الفلك لم يكن آنذاك متخلفًا، بالمرة في ديار الإسلام، بل هناك من الشواهد المؤكَّدة، أنه كان أكثر تقدمًا من مثيله في أوروبا.. ففى القرن الثامن، وفى المشرق الإسلامى، كان (مرصد مراغة) الذى بناه نصير الدين الطوسى، المتوفى 672 هجرية، لا يزال يقوم بدوره الكبير فى عمل الأرصاد والبحوث والحسابات الفلكية[1]. وفى أواخر القرن الثامن، وبالتحديد سنة 796 هجرية، ولد الإمبراطور الفلكى ألغ بك الذى دفع بعلم الفلك إلى الأمام، فشيَّد مرصد سمرقند الذى كان يعد فى زمانه، إحدى عجائب الدنيا[2]، وقد جهَّزه بأحسن الآلات، وجمع فيه أعظم علماء الفلك فى المشرق، من أمثال غياث الدين جمشيد، وقاضى زاده الرومى، وعلاء الدين على القَوْشَجى؛ فكان منهم فريق العمل الذى صحَّح أرصاد بطليموس اعتمادًا على الرصد الذى ابتدأ من سنة 827 إلى سنة 839 هجرية. ووضع الفريق الفلكى الباهر نتائج حساباته الفلكية فى كتاب الزيج السلطانى الذى حظى بشهرة كبيرة، ونال عناية الفلكيين، فشرحه ميْرم جلبى والقوشجى، واختصره محمد بن أبى الفتح المصرى الصوفى، ونُقل فيما بعد إلى اللغات الأوروبية[3].

(1) لا تزال بقايا هذا المرصد موجودة حتى اليوم.
(2) راجع مادة ألغ بك بدائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) 514/2.
(3) مرحبا: الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب، ص 428.

وفى أواخر القرن الثامن، وأوائل التاسع الهجرى ؛ قام غياث الدين ببحوثه الفلكية، ورصد كسوفات سنوات 809، 810، 811 هجرية، ووضع كتابه نزهة الحدائق الذى يبحث فى استعمال آلة خاصة، هى (طبق المناطق) يمكن بواسطتها الحصول على تقاويم الكواكب وعرضها وبُعدها مع الخسوف والكسوف وما يتعلق بهما[1].

وفى هذه الفترة، وفى المغرب الإسلامى؛ كانت تراجيديا سقوط الأندلس قد ابتدأت، ثم اختتمت المأساة فى القرن العاشر الهجرى، ومع ذلك فقد كان بيد العرب هناك، آنذاك، حصيلة فلكية كبيرة أورثتها إياهم القرون السابقة.. حصيلة تتمثل فى الأعمال الفلكية للزرقالى، وجابر بن الأفلح الإشبيلى، وإبراهيم السهلى، وغيرهم من علماء الفلك الذين عاشوا فى الأندلس، خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين. وفى القرن الثامن كانت هذه الحصيلة لا تزال بيد العرب، ومن هنا نشطت حركة انتقالها إلى أوروبا.

وفى مصر، ظل علم الفلك ممتداً بجهود جماعة من الفلكيين المصريين، مما دعا إلى اتساع نطاق البحث الفلكى.. حتى إن ابن الأكفانى، المتوفى بمصر سنة 749 هجرية، يزيد من فروع علم الهيئة فى كتابه: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد فيجعلها خمسة: علم الزيجات (الأزياج) والتقاويم، علم المواقيت، علم كيفية الأرصاد، علم تسطيح الكرة والآلات الشعاعية الحادثة عنه، علم الآلات الظِّلِّية[2]. ولم تكن هذه التصنيفات قد اتسعت بهذا الشكل، قبل القرن الثامن الهجرى[3]، وما يهمنا هنا من تلك الأقسام، هو (علم التقاويم) الذى امتد البحث فيه بمصر، من خلال جهود جماعة من الفلكيين، منهم الشيخ أحمد الريشى صاحب مخطوطة: كفاية التعليم فى معرفة وضع التقاويم.

---

(1) المرجع السابق، ص 425.

(2) كارلو ألفونسو نللينو: علم الفلك، ص 24 .

(3) كان الفارابى، المتوفى سنة 339 هجرية، يقرر أن علم النجوم ينقسم لقسمين، هما علم دلالات الكواكب وعلم التعليم.. وبعده بقليل، قرر إخوان الصفا أن علم النجوم، ينقسم إلى ثلاثة أقسام (راجع، نللينو: علم الفلك ص 25).

ولد الشيخ أحمد الريشى[1] فى الربع الأخير من القرن الثامن الهجرى، وتوفى فى النصف الأول من القرن التاسع. يقول عنه السخاوى: أحمد بن غلام الله بن أحمد بن محمد الشهاب (شهاب الدين) الريشى القاهرى الميثاقى، قال شيخنا فى إنبائه[2]: كان اشتغل فى فن النجوم، وعرف كثيراً من الأحكام، وصار يحل الزيج ويكتب التقاويم واشتهر بذلك؛ مات فى صفر سنة 36 وثمانمائة، وقد نيف على الخمسين[3].

وترك أحمد الريشى من المؤلفات الفلكية كتاباً بعنوان: اللمعة فى حل الكواكب السبعة، وهو كتاب مخطوط، ذكر له بروكلمان عدة نسخ خطية فى مكتبات: برلين، مانشستر، الرباط، سليم أغا، لندبرج، رامبور، القاهرة[4]. أما (كفاية التعليم) فهو كتاب فلكى آخر للريشى، وهو كسابقه، له مخطوطات كثيرة لم تُنشر.

ويبدو أن الكتابين متصلان، وهذا ما يظهر من مقدمة (كفاية التعليم) التى جاء فيها بعد البسملة والصلاة على النبى وآله وصحبه: يقول فقير رحمة ربه الريشى.. وبعد، فهذه مقدمة لطيفة ضمنتها نكتاً شريفةً، تشتمل على معرفة استخراج التقويم، من كتابى المسمى باللمعة فى حَلِّ السبعة، على ألسنة العربية، وعلى طريق المصريين.

ومن العبارة الأخيرة يظهر أنه كان للمصريين، وقتذاك، طريقتهم الخاصة فى استخراج التقاويم، التى تخالف طريقة الفرس والمغاربة.. وهذا شاهدٌ آخر على تعدد المدارس الفلكية فى ديار الإسلام، وتنوع المعرفة بالسماء، آنذاك.

تقع المخطوطة فى 34 صفحة من القطع المتوسط، وتشتمل على ثمانية فصول وخاتمة. الفصل الأول منها بعنوان (فى رسم الدستور) وفيه يقول الريشى: اعلمْ أنه جرت العادة أن يقوِّم القمر ليومٍ يوم، وعطارد لخمسةٍ خمسة، والبقية لعشرة

(1) فى معجم المؤلفين 39/2: الريشى نسبة إلى كوم الريش.
(2) يقصد شيخه ابن حجر فى كتابه: إنباء الغمر بأبناء العمر.
(3) السخاوى، الضوء اللامع 62/2.
(4) Gieschichte der Arabischen Litteratur TT,398

عشرة. فإذا أردتَ ذلك فاتخذْ أوراقًا عِدَّتها أربع عشرة قائمة، ثم ابتدئ بدستور الشمس، فسطِّرْ له نصف الصفحة الأولى، ثم بعده القمر له اثنتا عشرة تحته، لاثنى عشر شهرًا، كل شهرٍ صفحة. ثم عطارد له صفحتان، كل ستة أشهر صفحة؛ والأربع الباقية، لكل كوكبٍ صفحة. والأوراق الأربع الباقية لكل كوكب صفحة. ثم بعد ذلك ترسم صفحة، وتسميها الدستور الجامع. ثم الممازجات لها صفحة، والاجتماع والاستقبال له صفحة، والأهِلَّةُ لها صفحة. وصفحة لانتقال الشمس فى الفصول، بغير رسم، وكذا الكسوف والخسوف، وصفحة للسهام وطلوع الشِّعْرى ومداخلة التواريخ، فذلك ست وعشرون صفحة، منها ثلاث عشرة قائمة. فأما تسطير ذلك، فهو أن تقسِّم دستور الشمس فى الطول بأربعة عشر قسمًا.. إلخ.

ولا شك فى أن الحسابات الفلكية اليوم، قد اتخذت طابعًا أكثر دقة. وصارت تعتمد فى عملها، على آلات الرصد المتقدمة. ولكن (النظرية) نفسها، لا تزال كما هى.. ونحن إذ نُلقى الضوء على مثل هذه المخطوطة وندعو لنشرها، مع غيرها من مخطوطات التقاويم العربية؛ فإننا لا نعنى بذلك الدعوة إلى الرجوع بعلم التقويم المعاصر إلى الوراء؛ إذ إن ما ندعو إليه، هو إخراج مثل تلك الصفحات المخطوطة إلى النور، كى نتعرَّف إلى حلقة مهمة من تطور علم الفلك وعمل التقاويم، وكى نكتشف المزيد مما قدَّمه العرب من تطوير فى هذا الباب.

أما عن مخطوطات (كفاية التعليم) فقد اعتمدنا هنا على نسخة دار الكتب المصرية، المحفوظة تحت رقم 117/ميقات. وهناك عدة نسخ أخرى منها، فى الدار ذاتها، وفى مكتبات أخرى. فلعل محققًا له إلمام بالفلك، يقبل على هذا النص فينشره محققًا بعد طول انتظار.

١٧

كتاب

كفاية التعليم في معرفة

وضع تقويم الاعمال

ر ١٢٧ ميقات الدار

غلاف المخطوطة

(نسخة دار الكتب المصرية)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه [illegible]
[illegible] غلام الله بن احمد الرشيدي [illegible]
[illegible] رب العالمين [illegible] والسلام على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه اجمعين وبعد فهذه مقدمة لطيفة [illegible]
تشتمل على معرفة استخراج التقويم [illegible]
[illegible] السنة العربية على طريق المصريين مشتملة على ثمان
فصول وخاتمة [illegible]
[illegible] الفصل الاول
[illegible]
يوم [illegible] عشرة فاذا اردت
ذلك [illegible] اربعة عشر [illegible]
الشمس [illegible] في نصف الصفحة الاولى ثم [illegible] اثني عشر
[illegible] الاثني عشر شهرا [illegible]
اشهر [illegible] والاربعة الباقية [illegible] لكوكب [illegible]
[illegible] الدستور [illegible] الاجتماع
والاستقبال [illegible]
[illegible] الكسوف [illegible]
الشمسي [illegible] التواريخ فذلك ستة وعشرون صفحة [illegible] ثلاثة
عشر [illegible] الشمسية الطول
[illegible] اربعة عشر [illegible]
[illegible] عدد شهور السنة على ان [illegible] يشتمل على ثلاثة اسطر والقسم
[illegible]
الاعلى [illegible] والثاني للمعقود منها [illegible] الوسط [illegible]

[illegible]

الصفحة الأولى

ثم التعديل ثم المقوم ثم البهت واما القمر فتقسيم جيد ولهذه الفروق
لم يجد فيه احدي عشر قسما الاول الذي للكتابة [illegible] وتعديل
في الشمس والعشرة الباقية كل قسم يوضع فيه ثلاث سطور
ومنها العرض في قسم ثلاثة عشر قسما الاول الذي لمدة الايام ثم
الوسط ثم الخاصة ثم مركز ثم التعديل الاول ان شئت ثم ذكرت
النسب ثم الى سبعة المعدلة ثم التعديل الثاني ثم اذا تمادت البعد
الاقرب ثم الخارج من الضرب ثم التعديل المحكم ثم المقوم ثم البهت
الثلاثة يعني هذه الاقسام [illegible] يعني بحساب يوضع
فيها من المراتب واما تقسيم الكواكب الثلاثة العلوية والزهرة
فتقسيم دستور يعمل منها في الطول كالشمس وفيه العرض ثلاثة عشر قسما
الاول الذي للشهور والثاني للعقود ثم تقسيم حركات الكواكب
وفيه الوسط والخاصة المعدلة والتعديل الثاني واختلاف
البعد الاقرب وخارج الضرب والتعديل المحكم ثم المقوم ثم البهت
واما عطارد فارسم دستوره في صفحتين كما تقدم في العلوية
كل صفحة ستة اشهر كما يتهيأ بموازيه ستة اشهر واما الدستور
الجامع فيقسم في الطول كالشمس معنزها كل قسم ثلاثة اسطر
وفيه العرض بخمسة وعشرين قسما بعضها افضل من بعض اما الاول
الابجدي ثم بعده الشهور وفي الذي يليه العقود ثم تقسيم الشمس
ثم القمر ثم الزهرة ثم الستة الاولى لعطارد ثم عقود
تقويمها في الستة اشهر الثانية وعقود عطارد تقويمها ثم عقود
الراس ثم غاية الارتفاع ثم ساعات النهار ثم نصف قوس ساعات
العصر ثم الايام لليوم يوم والميلادة بالشمس ثم العلوية
ثم الزهرة ثم عطارد في قسمين واما الممازجات فيرسم دستورها

الورقة الثانية

# الفصل الخامس بعد العشرين

## (مخطوطة أصول دين)

# لُبَابُ المُحَصَّل

## لابن خَلْدُون

للعلماء العرب والمسلمين مع الزمان شأنٌ عجيب! فبعضهم ينال في أثناء حياته أعظم التكريم، حتى إذا انقضى بالوفاة أجله، طواه الزمانُ في زوايا النسيان. وبعضهم يعيش مغمورًا، ويموت مطمورًا، ثم يرفع الزمانُ ذكره بعد حين. وبعضهم يروج اسمه مع الأيام، وتعتاده الألسنة، حتى يخلع عليه الزمان شهرةً ربما كان لا يستحقها. وبعضهم يبدد الزمان أثره وآثاره، فينزوي وكأنه لم يكن.. والأمثلة على هذه الأفعال الزمانية المتناقضة كثيرة، منها:

ممن نالوا في حياتهم أعظم التكريم، ثم طواهم الزمان بعد وفاتهم: سيف الدين البَاخَرْزي، وأبو طاهر السِّلَفي. الأول كان واحدًا من تلاميذ نجم الدين كُبْرى، ثم ارتقى في المقام وذاع صيته حتى إن كبار أمراء المغول أسلموا على يديه، وكان له أكبر الفضل في كسر شوكة المغول التي انغرست حينًا في قلب دولة الإسلام. ومَنْ يقرأ ترجمة الباخرزي المطوَّلة في سير أعلام النبلاء للذهبي، يتعجَّب من علو مكانة الرجل في عصره وتودُّد الملوك إليه، والدور الكبير الذي لعبه في حياته، ثم يتعجَّب من نسياننا له اليوم[1]. وبالمثل، كان الإمام المحدِّث العظيم أبو طاهر السِّلَفي ذا شأن كبير في عصره، وقام هو ومعاصروه من مشايخ السُّنَّة بالإسكندرية بالتخطيط لإزالة الحكم الشيعي من مصر، وسيادة مذهب السنة، على يد تلميذ السِّلَفي القائد الشهير صلاح الدين الأيوبي. ولقد عاش الشيخ أكثر من مائة سنة، وأخباره وسيرته كامنة في المصادر التي تؤرِّخ لعصره، ومع هذا فلا يوجد اليوم في المكتبة العربية أي كتاب له أو عنه، ولا يكاد المعاصرون يعرفون عنه شيئًا[2].

(1) راجع ما ذكرناه عن سيف الدين الباخرزي في دراستنا الممهدة لتحقيق: فوائح الجمال وفواتح الجلال، لنجم الدين كبرى.

(2) ذكر لي د. السيد عبد العزيز سالم أنه كاد يكشف عن مقبرة أبي طاهر السلفي بالإسكندرية، لكن الحفائر توقفت.

وممن عاش مغمورًا ومات مطمورًا، ثم ارتفع ذكره بعد حين: محمد بن عبد الجبار النِّفَّرى، فهذا الرجل لا يكاد اليوم أديبٌ أو شاعرٌ معاصر، ناهيك عن غالبية المثقفين؛ إلا وهو يشير إلى روعة كتابه المعروف المتداول: المواقف والمخاطبات. مع أنه قبل خمسين سنة، لم يكن للنِّفَّرى ذكرٌ مشهور لدى الأدباء أو الصوفية، ولم يحظ كتابه الجامع بين (المواقف والمخاطبات) بالعناية والشروح. وربما كان شرح عفيف الدين التلمسانى عليه، هو الشرح الوحيد الذى دُوِّن عليه. ثم يحقِّق المستشرق الإنجليزى جون آرثر آربرى نصَّ المواقف والمخاطبات، ويروِّج الشاعر الحداثى أدونيس للكتاب باعتباره نصًّا (حداثيًّا) فإذا بالنفرى يتردَّد اسمه على كل لسان.. ولولا نشرة آربرى واحتفاء أدونيس، لظل النِّفَّرى مثلما كان منذ وفاته، مغمورًا مطمورًا.

وممن راج اسمه هذه الأيام واعتادته الألسنة، طائفة من أهل الولاية ومشايخ الطرق الصوفية، الذين روى عنهم العامة من الكرامات المبهرة ما خلع عليهم اشتهارًا فوق كل اشتهار، بينما لم ينل متصوفةٌ كبار غيرهم، مثل هذه المكانة والشهرة، وتفصيل هذا الأمر يطول، وليس هذا موضعه.

وممن بدَّد الزمان أثره وآثاره فانزوى؛ طائفةٌ من الرجال يمرون فى ذاكرتنا التراثية كالطيف. نقرأ مثلًا قول البيرونى وهو يذكر مؤرخى العقائد والديانات: ما وجدتُ من أصحاب كتب المقالات أحدًا، قصد الحكاية المجردة من غير ميل ولا مراهنة، سوى أبى العباس الإيرانشهرى؛ إذ لم يكن من جميع الأديان فى شىء، بل منفردًا بمخترع له يدعو إليه، ولقد أحسن فى حكاية ما عليه اليهود والنصارى، وما تتضمَّنه التوراة والإنجيل، وبالغ فى ذكره المانوية وما فى كتبهم من خبر الملل المنقرضة[1]. ونبحث اليوم عن الإيرانشهرى، فلا نجد عنه ذكرًا، ونعلم أن للرجل كتابين، لكننا لا نجد لهما أصولًا ولا خبرًا فى خزائن المخطوطات، ولقد قضيت سنوات طويلة أنقِّب عن الإيرانشهرى ومقالاته، فلم أظفر بشىء.

---

(1) البيرونى: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة (عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية المزورة) ص 15.. وفى الطبعة الأصلية من كتاب البيرونى، بتحقيق المستشرق سخاوى ص 6 من الجزء الأول.

فماذا عن ابن خلدون؟

لا يمكن اليوم، الكلام عن ابن خلدون بغير إسـراف، فقد نال الرجل فى العقود الأخيرة من اهتمام المعاصرين، ما لم يتيسر إلا للقلائل من أعلام الرجال فى الإسلام، مع أنه ظل لعدة قرون فى زوايا النسيان.. فما سر الاهتمام المفاجئ بابن خلدون؟

يتخذ علمُ الاجتماع اليوم مكانةً متميزةً على خريطة العلوم (الإنسانية) التى تضم الفلسفة والتاريخ وعلم النفس والأنثروبولوجيا.. بل يحلو للبعض تسمية هذه العلوم باسم (العلوم الاجتماعية) وذلك فى مقابل (العلوم الطبيعية) التى تضم الفيزياء والكيمياء والفلك والطب. وكانت قد جرت العادة حتى سنوات قريبة، أن يؤرِّخ لعلم الاجتماع ابتداء من أوجست كونت (1798 - 1857) الذى وضع مصطلح Sociologie، Sociology الذى تُرجم إلى العربية بعلم الاجتماع، وقد عرَّفه كونت فى كتابه: دروس فى الفلسفة الوضعية، بأنه: العلم الذى يتخذ له موضوعًا هو ملاحظة الظواهر العقلية والأخلاقية التى تتكون بها الجماعات الإنسانية وترتقى[1].

وبعد وفاة أوجست كونت بعام واحد، وبالتحديد سنة 1858 ميلادية، صدرت فى مصر طبعتان فى العام ذاته، لمقدمة ابن خلدون. وما لبثت طبعات (المقدمة) أن توالت، فأصدرت بولاق طبعتها سنة 1868، ونشر الدكتور على عبد الواحد وافى طبعة محقَّقة لها سنة 1957، وما بينهما طبعاتٌ لا تقع تحت الحصر[2].. ومن هنا، أعيد النظر فى ابتداء علم الاجتماع، وتحديد رائده الأول.

وكتاب المقدمة هو مدخلٌ نظرىٌ فلسفى لكتاب ضخم فى التاريخ، جعله ابن خلدون بعنوان: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر

---

(1) د. غريب سيد أحمد: تاريخ الفكر الاجتماعى (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1988) ص 238.

(2) عُرفت مقدمة ابن خلدون فى أوروبا، منذ أواخر القرن السابع عشر، وكان أول من تكلم عن المقدمة ومؤلفها، هو دربيلو عام 1697. ثم نشر سيلفستر دى ساسى أجزاء من المقدمة مع ترجمة للفرنسية سنة 1896، وقدم البارون دى سلان ترجمة كاملة لها سنة 1868 بالفرنسية.. وتوالت ترجماتها بعد ذلك فى الإيطالية والألمانية والإنجليزية والبرتغالية والأردية.

ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر[1]. وهو يقع فى عدة مجلدات، اشتهر منها المجلد الأول الذى هو (المقدمة) التى أعلن فيها ابن خلدون، تأسيس علمٍ جديدٍ أسماه علم العمران البشرى.

يقول ابن خلدون فى المقدمة: اعلمْ أنه لما كانت حقيقة التاريخ، أنه خبرٌ عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال.. ولما كان الكذب متطرقًا للخبر بطبيعته، وله أسبابٌ تقتضيه.. فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار، بالإمكان والاستحالة، أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران، ونميِّز ما يلحقه من الأحوال لذاته، وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضًا لا يعتدُّ به، وما لا يمكن أن يعرض له. فإذا فعلنا ذلك، كان لنا قانونًا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار، والصدق من الكذب، بوجهٍ برهانى لا مدخل للشك فيه.. وكان ذلك لنا معيارًا صحيحًا يتحرَّى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه، وهذا هو غرض هذا الكتاب. وإن كان هذا علمًا مستقلًا بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد الأخرى. وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعيًا كان أو عقليًا. واعلمْ أن الكلام فى هذا الغرض مُستحدث الصنعة، غريب النـزعة، غزير الفائدة، أَعْثَرَ عليه البحثُ وأدَّى إليه الغوصُ.. ولعمرى لم أقف علي الكلام فى منحاه لأحـدٍ من الخليقة، ولا أدرى غفلتهم عن ذلك.. ونحن ألهمنا الله إلي ذلك إلهامًا، وأعثرنا على علمٍ.. فإن كنتُ قد استوفيتُ مسائله وميَّزتُ عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه، فتوفيقٌ من الله، وإن فاتنى فى إحصائه، واشتبهت بغيره فى مسائله، فللناظرِ المحقق إصلاحه، ولى الفضل؛ لأنى نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق، والله يهدى بنوره من يشاء. ونحن الآن نبيِّن فى هذا الكتاب، ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من أحوال العمران فى الملك والكسب والعلوم والصنائع، بوجوه برهانية.. إلخ[2].

---

(1) طبع الكتاب بالقاهرة، بولاق، سنة 1284 هجرية فى سبعة مجلدات.

(2) ابن خلدون: المقدمة (المطبعة الأزهرية، مصر 1349 هـ) ص 31 وما بعدها.

وبعد أن يمضى ابن خلدون فى بيان (قوانين) الاجتماع أو ما يسميه (علم العمران) فيعرض لتطور المجتمع، وأشكال السُلطة، وأثر البيئة على المجتمعات، وأسباب قيام الدول واندثارها، والعلاقة بين الاقتصاد والسياسة، وغير ذلك من (قضايا) علم الاجتماع وفلسفة التاريخ؛ نراه يختتم مقدمته بقوله: وقد كدنا نخرج عن الغرض، فعزمنا أن نقبض العنان عن القول فى هذا الكتاب الذى هو فى طبيعة العمران وما يعرض فيه، وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية، ولعل من يأتى بعدنا، ممن يؤيده الله بفكرٍ صحيح وعلمٍ مبين، أن يغوص فى مسائله على أكثر مما كتبنا، فليس على مُسْتَنْبِطِ الفَنِّ إحصاءُ مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم، وتنويع فصوله، وما يتكلم فيه. والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئًا فشيئًا، إلى أن يكمل[1].

تلك هى مقدمة ابن خلدون التى أُسست علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، على نحو علمى دقيق؛ مما جعلنا اليوم نؤرخ لعلم الاجتماع، ابتداءً بابن خلدون، وصارت له مؤخرًا، مكانة كبيرة في تاريخ العلم الإنساني، وصارت لمقدمته تلك الشهرة الذائعة، حتى إن دائرة المعارف الإسلامية تصف (المقدمة) بأنها: ستظل دائمًا أعظم مؤلفات ذلك العصر، وأهمها من جهة العمق فى التفكير، والوضوح فى عرض المعلومات، والإصابة فى الحكم. ويظهر أنه لم يَفُقْها كتابٌ ما، لأى مؤلف إسلامى[2].

.. يبقى لنا بعد ما سبق أن نتعرَّف إلى شخصية ابن خلدون، وإلى كتابه الأول لباب المحصَّل.



وبدايةً، فإن كلمة خلدون هى صيغة مغاربية لتعظيم الأسماء، فمثلما يُقال لزيد (زيدون) ولحمد (حمدون) يقال لخالد: خلدون.. وأما عالمنا، فهو: أبو زيد

(1) المرجع السابق ص 537.
(2) ألفرد بل: مادة ابن خلدون بدائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) المجلد الأول ص 100، ونرى فى العبارة شيئًا من المبالغة.

ولىّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد، الحضرمى الإشبيلى التونسى القاهرى المالكى، ولد فى أول رمضان سنة 732 هجرية بتونس، ودرس الأدب والتاريخ وعلوم الدين، على يد والده وجماعة من مشايخ بلاد المغرب، ثم تعلّق، كما يقول السخاوى، بالخدمة السلطانية[1].

وكان أول منصب شغله ابن خلدون فى (الخدمة السلطانية) هو وظيفة كاتب العلامة، لدى سلطان تونس. وكان آنذاك في الواحدة والعشرين من عمره. ثم ما لبث أن ارتحل إلى فاس بعدما شبّت الفتنُ فى تونس، والتحق بخدمة أبى عنان المرينى. وهناك اعتُقل قرابة عامين، ثم أُخلى سبيله، فعاد ليتولى وظيفة كاتب السر، لدى أبى سالم المرينى الذى عيَّنه بعد فترة قاضيًا للقضاة. وبعد مقتل أبى سالم، ارتحل ابن خلدون إلى غرناطة ببلاد الأندلس، فتلقاه السلطان ابن الأحمر وضَمَّه لحاشيته. لكنه مالبث أن رحل إلى (بجاية) تلبيةً لدعوة أميرها أبى عبد الله الحفصى الذى عيَّنه حاجبًا له، وفوَّض إليه تدبير مملكته. ولما سقطت بجاية بعد عام من نزوحه إليها، سنة 765 هجرية، تنقل ابن خلدون ببلاد المغرب وتقلب فى عدة مناصب، وعانى الكثير جراء صحبة السلاطين، فاعتقل ونُفى عدة مرات، حتى أُنهك ومَلَّ من صحبة أهل الرياسة، وزهد فى مناصبهم، فاعتكف فى قلعة ابن سلامة (وهران، الجزائر) لتأليف كتابه فى التاريخ كتاب العبر، لكنه احتاج للمراجع، فنزل إلى تونس بعد أن كتب المقدمة سنة 779 هجرية بقلعة ابن سلامة.. وهنا نلفتُ النظر إلى أن المقدمة كانت عملًا تأمليًا يغلب عليه التفكُّر الفلسفى[2]. بينما الكتاب نفسه، كان عملًا بحثيًا يغلب عليه الطابع الاستقصائى؛ ولذا احتاج ابن خلدون الكتب والمراجع عند كتابة (التاريخ) ولم يحوج لذلك وهو يكتب (المقدمة).. ويبدو أن ابن خلدون آنذاك، كان قد ضاق تمامًا بالحياة فى بلاد المغرب. ويقال إن حُساده هناك أكثروا من السعاية ضده. وربما كانت أحوال الممالك المغربية، وتقلبات السلطة قد أغمّته

---

(1) السخاوى: الضوء اللامع 145/2.

(2) العجيب أن ابن خلدون، يهاجم الفلسفة فى مقدمته.

ونغصت عليه عيشه. المهم أنه نزل من تونس إلى الإسكندرية قاصدًا الحج، سنة 784 هجرية.. يقول السخاوى: ثم قدم ابن خلدون الديار المصرية، فحجَّ، ثم عاد إليها، وتلقاه أهلها وأكرموه، وأكثروا ملازمته والتردد إليه، بل تصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة، إلى أن قرَّره الظاهرُ برقوق فى تدريس القمحية[1] بمصر، ثم فى قضاء المالكية بالديار المصرية فى جمادى الآخرة سنة 786 هجرية. فتنكّر للناس؛ بحيث لم يقم لأحد من القضاة، لما دخلوا للسلام عليه، مع اعتذاره لمن عتبه عليه فى الجملة. وفتك فى كثير من أعيان الموقّعين والشهود، وصار يعزر بالصفع ويسميه الزَّجّ، فإذا غضب على إنسان قال زُجُوه فيُصفَع حتى تحمر رقبته.. وعُزل ثم أعيد، وتكرَّر له ذلك، حتى مات قاضيًا فجأة فى يوم الأربعاء، لأربع بقين من رمضان سنة 808 هجرية، عن ست وسبعين سنة، ودُفن بمقابر الصوفية، خارج باب النصر[2].

وفى حياة ابن خلدون تفاصيل كثيرة أفاض فيها المؤرخون الأوائل والدارسون المحدثون. وقد وضع هو لنفسه ترجمة ذاتية بعنوان: التعريف بابن خلدون، استقصى فيها الكلام عن شيوخه ورحلاته وعلاقاته بأهل زمانه. وقد طبعت هذه الترجمة فى آخر كتاب العبر، كما تُرجمت إلى الفرنسية، وإلى بعض اللغات الأوروبية الأخرى.

ولابن خلدون مجموعةٌ من المؤلفات، بالإضافة إلى المقدمة والتاريخ والتعريف، منها: تلخيص كتب ابن رشد، شرح قصيدة البردة، كتاب فى الحساب، رسالة لتيمورلنك فى وصف بلاد المغرب، شفاء السائل فى تهذيب المسائل (فى التصوف) شرح قصيدة ابن عبدون الإشبيلى، طبيعة العمران، رحلة.. وقد قام الدكتور عبد الرحمن بدوى بدراسة هذه الآثار والكتابات، وأصدر عنها بحثًا مهمًا بعنوان: مؤلفات ابن خلدون.

---

(1) يقصد: التدريس بالمدرسة القمحية بالقاهرة.

(2) السخاوى: الضوء اللامع 146/2.

وبعد هذه الإطلالة السريعة على سيرة ابن خلدون[1]، نقف فيما يلي عند كتابه «لُباب المحصل» الذى نعرض له فى هذا الفصل من كتابنا، فنقول:

المُحَصَّل كتابٌ مشهور للإمام فخر الدين الرازى، المتوفى 606 هجرية، عنوانه الكامل: مُحَصَّل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين. وهو كتاب فى أصول الدين وعلم الكلام، يقول الرازى فى مقدمته: الحمد لله المتعالي بجلال أحديته عن مشابهة الأعراض والجواهر.. أما بعد، فقد التمس منى جمعٌ من أفاضل العلماء وأماثل الحكماء أن أصنِّف لهم مختصرًا فى علم الكلام، مشتملًا على أحكام الأصول والقواعد، دون التفاريع والزوائد؛ فصنَّفتُ لهم هذا المختصر[2].

وجمع الرازى فى هذا الكتاب، شتات الأقوال فى أركان علم الكلام، ومقدماته الضرورية، وتقسيم الموجودات على قول الفلاسفة والمتكلمين، وبيان ماهية الحياة والعقل الذى هو مناط التكليف، والإدراك الحسى، والمسائل المتعلقة بحدوث العالم، وطبيعة الذات الإلهية والصفات، وطبيعة النفس الإنسانية وخلودها، واختلاف الفرق الإسلامية.. وغير ذلك الكثير من الموضوعات.

وكان العلامة نصير الدين الطوسى، المتوفى 672 هجرية، قد قام بمعارضة كتاب المُحَصَّل فى رسالة يقول فى بدايتها:.. وبعد، فإن أساس العلوم الدينية علمُ أصول الدين، الذى يحوم سائله حول اليقين، ولا يتم بدونه الخوض فى سائرها كأصول الفقه وفروعه، فإن الشروع فى جميعها يحتاج إلى تقديم شروعه.. وفى هذا الزمان، لما انصرفت الهمم عن تحصيل الحق بالتحقيق، وزلَّت الأقدام عن

---

(1) للمزيد عن ابن خلدون، انظر: شذرات الذهب لابن العماد 76/7، نفح الطيب للمقرى 6/4، نيل الابتهاج للتنبكتى 169، البدر الطالع للشوكانى 337/1، ظهر الإسلام لأحمد أمين 225/3، دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصرى، مقدمة ابن خلدون بتحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى، حياة ابن خلدون لمحمد الخضر حسين، ابن خلدون ومقدمته لعمر فروخ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين Brockelmman: Gieschechte.TT342 – 344. وهناك أيضًا، عديد من المقالات التى لا تكاد تقع تحت الحصر.. راجع: معجم المؤلفين لكحالة 188/5.

(2) الرازى: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، نشرة طه عبد الرءوف سعد (مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، بدون تاريخ) ص 15.

سواء الطريق، بحيث لا يوجد راغبٌ فى العلوم ولا خاطب للفضيلة.. ولم تبق فى الكتب التى يتداولونها من علم الأصول عيانٌ ولا خبر، ولا من تمهيد القواعد الحقيقية عينٌ ولا أثر، سوى كتاب المحصل الذى اسمه غير مطابق لمعناه، وبيانه غير موصل إلى دعواه، وهم يحسبون أنه في ذلك العلم كاف، ومن أمراض الجهل والتقليد شاف. والحق أن فيه من الغث والسمين ما لا يُحصى، والمعتمد عليه فى إصابة اليقين بطائل لا يحظى، بل يجعل طالبَ الحق بنظره فيه، كعطشان يصل إلى السراب. ويصيِّر المتحيِّر فى الطرق المختلفة، آيسًا عن الظفر بالصواب. رأيتُ أكشف القناع عن وجوه أبكار مخدراته[1]. وأبين الخلل فى مكامن من شبهاته، وأدل على غثّه وسمينه.. وأسمى الكتاب تلخيص المحصل.. إلخ[2].

وراح الطوسى يتتبّع عبارات الرازى بادئًا بتعليقات مثل: خالف المصنِّف (الرازى) سائر الحكماء فى التصديق.. فى هذا الكلام مغالطة صريحة.. هذه الدعوى غير صحيحة، لم تقم عليها حُجّة.. وإلى غير ذلك، من عبارات النقد اللاذع.

ولكي تتضح لنا طبيعة الخلاف الفكرى بين الرازى والطوسى، لابد أن نشير إلى أن الرازى كان أشهر متكلم سُنّى فى عصره، وهو من أكبر ممثلى (الأشعرية) ذلك المذهب الذى جعل من نفسه المتحدث الرسمى باسم أهل السنة والجماعة، منذ تأسيسه الأول على يد أبى الحسن الأشعرى. وفى المقابل، كان الطوسى أكبر متكلم شيعى فى القرن السابع الهجرى، وقد كان فى ابتداء أمره على مذهب الشيعة الاثنى عشرية، ثم تحول إلى مذهب الشيعة الإسماعيلية، بعدما اعتكف (أو اعتقل) بقلعة ألَموت معقل الإسماعيلية. وعلى كلا المذهبين، الاثنى عشرية والإسماعيلية، فهو فى المعسكر الفكرى المقابل للأشاعرة وأهل السنة[3].. ومن هنا جاءت المعارضة لكتاب المحصل فى تلخيص الطوسى.

---

(1) يقصد الأفكار الدقيقة.. والمخدرات، هن الفتيات المتواريات فى الخدور والخيام.
(2) الطوسى: تلخيص المحصل (مكتبة الكليات الأزهرية) ص 16.
(3) أعتقد أن الطوسى كتب (التلخيص) وهو فى المرحلة الأولى من منحنى فكره الشيعى، وهى المرحلة الإمامية الاثنا عشرية.

أما ابن خلدون، الذى نشأ فى محيط سُنّى أقرب إلى فكر الرازى، فإنه درس كتاب المُحَصّل على يد شيخه الأبلى، المتوفى 757 هجرية، ذى العقلية الفلسفية التى هى أقرب إلى فكر الطوسى. ومن هنا شرع ابن خلدون فى استخلاص (لباب) كتاب المُحَصّل، متابعًا نص الكتاب وتعليقات الطوسى، فى محاولة لتقويم الخلاف بين الرازى الأشعرى، والطوسى الشيعى.. فكان يميل فى الأمور الفلسفية لرأى الطوسى، بعض الشىء، بينما يميل بصدد العقائد إلى رأى الرازى.

وكتاب (لباب المحصل) وضعه ابن خلدون، وهو فى حدود العشرين من عمره. ولم يكن وقتها قد انشغل بالتاريخ والعمران البشرى، وإنما بأصول الدين وعلم الكلام. ولا توجد من هذا الكتاب، غير نسخة خطية فريدة فى العالم، محفوظة بمكتبة دير الأسكوريال تحت رقم 1609/ قديم (1614/ جديد) وهى بخط ابن خلدون نفسه. وتبدأ هذه المخطوطة بما يلى:

أحمد مَنْ تفرَّد بعظمته وكبريائه، وتقدَّس بصفاته وأسمائه.. وبعد، فإن العلوم كثيرةٌ، والمعارف جَمَّةٌ غزيرة. وأشرفها العلم الإلهى الذى فاز عالمه بالسعادة، وأُعدَّت له الحسنى وزيادة. تفتقر العلومُ إليه ولا يفتقر إليها، وتعوِّل فى مقدماتها عليه ولا يعوِّل عليها. لا جَرَم كان الأولى صرف العناية إليه، وإرسال سهم القريحة عليه. وكانت له مُدَّةٌ منذ ركدت ريحهُ، وخبت مصابيحه. فلا تجد إلا طالب علم ينيله رئاسة دنياه، ولا يشتغل بأخراه ولا بأولاه. إلى أن طلع الآن بسمائه شمسُ نور آفاقه، ومدَّ على الخافقين رواقه. وهو سيدنا ومولانا الإمام الكبير العالم العلاَّمة فخر الدنيا والدين، حُجَّة الإسلام والمسلمين، غياث النفوس، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلى[1]. رضى الله عن مقامه، وأوزعنى شكر أنعامه[2].. قرأنا بين يديه كتاب المُحَصَّل، الذى صنَّفه الإمام الكبير فخر الدين ابن

(1) لعل لقب (الأبلى) نسبة إلى الأبلة، وهى بلدة على شاطئ دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة (ياقوت: معجم البلدان 77/1) وربما تكون النسبة إلى بلدة مغربية اسمها آبِل.

(2) يفهم من العبارة أن الأبلى كان وقت كتابة المخطوطة لا يزال حيًا، مما يعنى أنها كتبت قبل سنة 757 هجرية.

الخطيب[1]؛ فوجدناه كتابًا احتوى على مذهب كلّ فريق، وأخذ في تحقيقه كلّ مسلك وطريق، إلا أن فيه إسهابًا لا تميل همم أهل العصر إليه، وإطنابًا لا تعول قرائحهم عليه، فرأيتُ بعون الله أن أحذف من ألفاظه ما يُستغنى عنه، وأترك منها ما لابُدّ منه، وأضيفُ كلّ جوابٍ إلى سؤاله، وأنسج في جميعها على منواله؛ فاختصرته وهَذَّبته، وحذو ترتيبه رتَّبته، وأضفتُ إليه ما أمكن من كلام الإمام الكبير نصير الدين الطوسي، وقليلًا من بُنيَّات فكري. وعبَّرتُ عنهما بـ «ولقائل أن يقول» وسميته لباب المُحَصَّل. فجاء بحمد الله رائق اللفظ والمعنى، مشيَّد القواعد والمبنى، ورتَّبته على أركان، الركن الأول في المقدمات.. إلخ.

.. وأول من اهتم بمخطوطة اللباب، كان الأب الأوغسطيني لوسيانو روبيو أستاذ الفلسفة في دير الأسكوريال؛ إذ اختارها لتكون موضوعًا لرسالته للدكتوراه من كلية الفلسفة والآداب بمدريد، ثم قام بنشرها مع ترجمة للإسبانية صدرت سنة 1952 ضمن منشورات معهد مولانا الحسن في تطوان، دار الطباعة المغربية، معتمدًا في ذلك على نسخة الأسكوريال الفريدة.

وعن نشرة الأب لوسيانو، يقول د. عبد الرحمن بدوي: جاءت هذه النشرة حافلة بالأخطاء، مما يستدعي الأمر معه إعادة النشر من جديد، على أساس هذه المخطوطة نفسها؛ لأنها وهي بخط المؤلف؛ يجب أن تكون وحدها الأساس لنشر الكتاب[2].

---

(1) يعرف فخر الدين الرازي بهذا اللقب؛ لأن والده كان خطيب بلاد الري.
(2) د. بدوي: مؤلفات ابن خلدون (دار المعارف بمصر، 1962) ص 8.

# لباب المحصل

في

أصول الدين تصنيف العبد الفقير إلى الله

تعالى الغني به عمن سواه الراجي عفوه

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

مخطوطة الإسكوريال الفريدة

(صفحة الغلاف)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لله المتعزز بعظمته وكبريائه المتفرد بصفاته
وأسمائه المتنزه عن مشابهة خلقه بقدمه وبقائه المحيط
بكل شيء علما فلا يعزب عنه مثقال ذرة في أرضه وسمائه
وسعت قدرته الممكنات فلا تبرح عن إبداعه وإنشائه
ودل بحدوثها وتخصيصها بوقت دون وقت على إرادته
وقضائه وأصلي على أولي النفوس القدسية المختص
بتشريفه واعتنائه خصوصا على سيدنا محمد المصطفى
خاتم أنبيائه وعلى آله وأصحابه وعترته وأوليائه صلاة
دائمة أعدها ليوم لقائه وبعد فإن العلوم
ثمرة المعارف جمة غزيرة وأشرفها العلم الإلهي
الذي بان عالمه بالشهادة واعترف له بالحسنى وزيادة
لشرف المعلوم إليه ولا يفتقر إليها ونحن لا نعرف ما نحن عليه
ولا نعرف عينها ما حرم كان لا إلى معرفة عنان الغاية الذي

الورقة الأولى (بخط المؤلف)

وانتسال بهم الفرقة عليه وكانت له مرة منذ
ولدت ركيه وخبت مضاجعه فلا تغتر الطالب
بعلم ينيله رياسة دنياه ولا يشتغل باخراه
ولا باولاه الى ان طلع الان بسماء شمس فوز
ايامه ومر على الخافقين رواقه وهو سيدنا
ومولانا الامام الكبير العالم العلامه جنيد الدنيا
والدين حجة الاسلام والمسلمين غياث الفرس
ابو عبد الله محمد بن ابرهيم الابلي رضي الله عنه
مقامه واوزعني شكر انعامه شيخ الجلالة
واماميها ومنبر المعارف وختامها القي
العلم زمامها بيده وملكته ما لا يبتغي احد
من بعده بحيازة عز وفق مراده ما بعده
له جالت اميرا وابداء بانقطعنا عن تابع
ازماره واغتر بنا من بعد انهاره واما من علينا
سبب علومه زحلانا بمنثوره ومنظومه

الورقة الثانية

# الفصل السادس بعد العشرين
## (مخطـوطـة أصـول ديـن)

# مَحْوُ الشُّبهَاتِ

لإبراهيم حلمي القادري

قِـفَـا نَـبْـكِ جَـهَـابِـذَةَ الأَنَـــام
وَعَـهْـدًا قَـدْ تَـقَـضَّـى فِـى وِئَـامِ
أَيُـغْـنِـى مَـا أَضَـرَّ مِـنَ الـغَـرَام
وَدَمْـعِـى لانْـصِـرَامِ الـعَـهْـدِ دَامِ
خِـيَـامٌ قَـدْ أَرَاهَـا كَـالخِـيَـام
وَلَـكِـنْ أَيْـنَ أَعْـطَـارُ الأَنَـامِ
وطَـرْفِـى قَـدْ يُـسَـارِعُ بِالتِفَاتٍ
وَلَـكِـنْ لاَ أَرَى غَـيْـرَ الـنَّـعَامِ
وَصَمْتِى عَـنْ عِـتَابِ الحُـرِّ جُـرْمٌ
وَعُـتْـبِـى لِـلـدَّنِـىِّ مِـنَ الحَـرَامِ
وَلَـكِـنْ أَيْـنَ ذَاكَ الحُـرُّ يَـأْوِى
وَغَـايَـةُ أَهْـلِـهَـا جَـمْـعُ الحطَـامِ

هذه الأبيات، وغيرها الكثير؛ هى من شعر الشيخ إبراهيم حلمى القادرى، الإسكندرانى المولد والمنشأ والإقامة والوفاة.. ولد الشيخ سنة 1322 هجرية، وتوفى وهو يصلى بتلاميذه تراويح ليلة السابع والعشرين من رمضان، سنة 1390 هجرية.

جمعت شخصية الشيخ بين عديد من الجوانب، فهو العالم والفقيه والمربِّى والمحقِّق. وكانت أوقاته موزعةً، بين التعبُّد والتربية والتأليف فى العلوم الإسلامية.

فكان مجلسه اليومى، فى مسجده الكائن بمنطقة (فيكتوريا) بالإسكندرية، أشبه ما يكون بالجامعة الدينية. ففى يوم السبت من كل أسبوع، يجتمع التلاميذ والإخوان حول الشيخ، لتدارس كتب السُّنَّة النبوية. ويوم الأحد لدرس الحديث الشريف، والإثنين للفقه، والثلاثاء للتوحيد، والأربعاء للتفسير، والخميس للذكر، والجمعة لقراءة «يس» بعد الصلاة.. وعلى هذا النحو، سارت أيامُ الشيخ وامتدت فى تلاميذه من بعد وفاته.

ومع أننى لم ألتق بالشيخ، أو أشرف لحظةً برؤيته فى عالم الحس؛ إلا أنى شغفتُ دومًا بالحديث حوله، والكتابة عنه؛ لما رأيت فى مؤلفاته وسيرته العطرة وتلاميذه، من دلالةٍ على أن هذه الأمة لا تخلو من خير وبركة حتى قيام الساعة.. وقد تحدثتُ عن طريقته القادرية فى كتابى (الطريق الصوفى وفروع القادرية بمصر) وتناولتُ أشعاره فى فصلٍ من فصول كتابى (شعراء الصوفية المجهولون) وفيما يلى، أتوقف عند مخطوطته غير المنشورة، التى جعلها بعنوان: محو الشبهات عن مشروعية طلب المحو والإثبات.. وهى واحدة من مجموعة كبيرة من المؤلفات، المطبوع منها ثلاثة: مدارج الحقيقة فى الرابطة عند أهل الطريقة، تكذيب المُدَّعى بصحة رحلة الإمام الشافعى، القرب فى محبة العرب.. والكتابُ الأخير، عبارة عن تحقيق علمى رصين لمخطوطة القرب فى محبة العرب للعلاَّمة زين الدين العراقى، المتوفى 806 هجرية، قدَّم له الشيخ بمقدمةٍ وافية حول موضوع الكتاب ونسخه الخطية، وأهمية دراسة اللغة العربية كمدخلٍ لفهم الدين الإسلامى. واختتم مقدمته بقصيدة من شعر المخمسات، عنوانها: سمط مفاخر العرب، يليها نصُّ كتاب العلاَّمة العراقى محققًا، مضبوطًا، مذيلًا بالهوامش.

وللشيخ طائفة من التآليف المخطوطة، منها شرح لكتاب تعليم المتعلم طريق التعلُّم لبرهان الدين الزُّرْنُوجى، وكتاب السير والسلوك وكتاب العدوى والوباء الذى تعرَّض فيه للمسائل الخلقية وأثر الصحبة والرفقاء فى سلوك الفرد. وله أيضًا: الرسائل الصغرى، مناقب الصِّدِّيق، مناقب الإمام الجيلانى، رسالة التوحيد، سهام الإصابة.. بالإضافة إلى كتابه: محو الشبهات.

لا يزال (محو الشبهات) في نسخته الأصلية، التى كتبها الشيخ بخطه. وعلى غلاف المخطوطة يرد اسم الكتاب مفصلًا، كالتالى: محو الشُبهات عن مشروعية طلب المحو والإثبات وزيادة العمر والرزق والسعادة واستجابة الدعوات والكلام في القضاء والقدر. أما فى مقدمة الكتاب، فقد قصر الشيخ العنوان على: محو الشبهات عن مشروعية طلب المحو والإثبات.

تقع المخطوطة فى 157 صفحة من القطع الكبير، وهى تتناول فى جملتها، الحقائق الكامنة لقوله تعالى ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾.. الرعد/ آية 39. وما يتعلق بالآية من مسائل الدعاء، والحرية والجبرية، والقدر.. وغير ذلك من القضايا الكلامية، المرتبطة بعلم أصول الدين.

وفى مقدمة المخطوطة، يتبنَّى الشيخ الموقف الأشعرى فى مسألة الجبر والاختيار، وهو الموقف المعروف باسم (نظرية الكسب) حيث يتم التوفيق بين حدود الحرية الإنسانية وقضاء الله وقدره، على النحو الذى عبَّر عنه الشيخ بقوله: بل المؤثِّر قدرةُ الله لا علمه، وقُدرة العبد كَسْبًا واكتسابًا. منح الله عباده الاستطاعة والاختيار، ورفع عنهم إصر الإكراه والإجبار. فلا جبر ولا تفويض، بل أمرٌ بين أمرين. ولا بقدرة مستقلة، بل بتعلُّق القدرتين. ومن رحمته (تعالى) أن جعل للعبد كَسْبًا فى أمرى معاشه ومعاده (آخرته) فلله الحجة البالغة على عباده.

ويوضِّح الشيخ فى المقدمة أيضًا، أن سَبْق قضاء الله وقدره، لا يتعارض مع وجوب التضرُّع إليه بالدعاء، كما ورد فى قوله تعالى: ﴿ادعونى أستجب لكم﴾ غافر/الآية 60. وقوله: يا عبادى كلكم ضال إلا مَنْ هديته، فاستهدونى أهدكم. وهو يحذِّر من الوقوف فى موقف الجبرية، قائلًا: طوبى لمن عرف ربه بالقدرة والعلم وسائر صفاته القديمة، وأنه خالقٌ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل.. وعرف نفسه بالحدوث من العدم، وأنه مخلوقٌ كاسبٌ، يتغيَّر ويتبدَّل ويقف عند حَدِّه. وويلٌ ثم ويل لمن ينشغل بالقدر، وعلمه مغيبٌ عنه ولا سبيل إليه، ويهمل علم الميسَّر له من أثر اختياره، ومن التكاليف الشرعية، متعللًا بما كُتب عليه. نعوذ بوجه الله تعالى، من الخروج عن مناهج أهل الحق الواضحة، والاغترار برعونات النفس المضلَّة الفاضحة.

والكتاب ينقسم لقسمين، يضم كل قسم منها خمسة فصول. في القسم الأول نجد فصول: الاستطاعة، أفعال العباد، العلم الإلهى، القضاء والقدر، أم الكتاب، الفاتحة. وفى القسم الثاني: المحو والإثبات، تعميم المحو والإثبات، استجابة الدعوات، زيادة الآجال والأرزاق ونقصانها، السعادة والشقاوة.. وينتهى الكتاب بخاتمة حول ليلة البراءة (ليلة النصف من شعبان) وليلة القدر.

ومن لطائف ما جاء في المخطوطة، تفرقةُ الشيخ بين القضاء والقدر. وهو ما يورده الشيخ على النحو الآتى: القدر هو تحديدُ الله تعالى، أزلا، كُلَّ مخلوقٍ بحدِّه الذى يوجد عليه، من قبحٍ وحُسْنٍ وتغيير وتبدُّل، وانتقال من شرك إلى إيمان، ومن شقاوة إلى سعادة، والعكس. أما القضاء فهو إبراز الكائنات وإيجادها فى الخارج، بعد أن كانت معلومة لله تعالى بتفاصيلها، على ما اقتضته حكمته الباهرة.. والقضاء من الصفات العلمية لله، أما القدر فهو من الصفات الفعلية.

ثم يقول الشيخ: وعلى هذا، فيمكن دفع القدر بالقدر، الذى هو ضِدُّه. أما القضاء بمعنى المقضى، فهو لا يتغير ولا يتبدَّل، فلا محو فيه ولا إثبات. فالمحو والإثبات، واقعٌ على القدر.

ويستدلُّ الشيخ على صحة تلك المسألة الأخيرة، بما ورد من رَدِّ عمر بن الخَطَّاب رضى الله عنه، حين قال له أبو عبيدة بن الجراح لما أراد الفرار من الطاعون بالشام: أتفر من قَدَرِ الله يا عمر؟ قال: أفرُّ من قدر الله إلى قدر الله.

ونظرًا لوضوح النماذج الخطية، التى نقدمها على الصفحات التاليات. فمن الممكن للقارئ أن يتابع عبارات الشيخ فى مخطوطته الأصلية، بخطه. وسوف نلاحظ أن الورقة الأخيرة، تحمل رأى الشيخ فى الإمام محمد عبده وتفسيراته الواردة فى التفسير الشهير بعنوان: (المنار) الذى جمعه محمد رشيد رضا من كلام أستاذه محمد عبده، حيث ينعى الشيخ القادرى، إمعان هذا التفسير فى العقلانية والتأويل المتعسف. بينما يسجل الشيخ إعجابه برأى الدكتور طه حسين، وهو أحد رموز العقلانية والتنوير فى مصر الحديثة، بصدد هذه المسألة.. فتأمَّل.

محو الشبهات
عن مستدعية طلب المحو والإثبات
وزيادة العمر، والرزق، والسعادة واستجابة
الدعوات، والكلام في القضاء والقدر

عنوان المخطوطة

بسم الله[1] الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي سجدت له العقول اقرارا بعظمة قدرته وكمال
جلاله، وعجزت الألسن عن وصف ابداعه واحصاء مواد رحمته وآثار
جماله، قيوم السموات والأرضين مالك الملك ورب العباد، العليم
الحكيم المنفرد بالخلق والايجاد، السميع المجيب لمن لبى امره فدعاه،
المتفضل بالتوفيق والعون لمن سلك سبيل هداه، اللطيف الخبير
المتصرف في ملكه وملكوته كما يريد، الحكم العدل المنزه عن الجور والتقييد،
يمحو ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب، ويبدل ويغير حسبما يقتضيه
الكسب والاكتساب، لا تتغير صفة اسعاده باشقاء ولي، ولا تتبدل
صفة اشقائه باسعاد شقي، يزيد في الارزاق والآجال، ويرد
البلاء ويحول الاحوال، قدر افعال عباده على ما علم صدورها منهم
لا برغم الانف، وكتبه القلم في اللوح لا بالحكم بل بالوصف، لا تتوقف
تجليات صفاته ومقتضيات قضائه وقدره الازلي، ولا يزال متفضلا
بابراز شئونات الموجودات بفيضه الأبدي، وقد استوى علمه
بما كان وما هو كائن وما سيكون، فلا تخفى خافية اذ انكشف له الظاهر
والمكنون، تنزهت صفات ذاته واسمائه عن أن يعطلها عاطل، وجل
عن أن يلزم من محوه واثباته انقلاب علمه جهلا كما يتوهمه ذاهل او يتصوره
جاهل، فسبحانه من اله علمه القديم قد استتبع المعلوم والمفهوم تعالى
شأنه عن أن يتغير علمه بتغير المعلوم، أو أن يكون علمه علة وقوع الافعال،
وهو المحيط بالمبدأ والمآل والحال بعد الحال، وكيف وشأن التابع ان لا يؤثر في
المتبوع سلبا ولا ايجابا، بل المؤثر قدرة الله لا علمه وقدرة العبد كسبا
واكتسابا، منح عباده الاستطاعة والاختيار، ورفع عنهم اصر الاكراه
والاجبار، فلا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، ولا بقدرة مستقلة
بل بتعلق القدرتين، ومن رحمته أن جعل للعبد كسبا في أمري معاشه

الورقة الأولى (بخط الشيخ)

فكاد ينقلب الى ضده ، ومن أمثلة المبالغة في تحكيم العقل في « تفسير المنار »
ذكره أن الملائكة هي القوى والأفكار الموجودة في النفوس ، وأن المراد بسجود الملائكة
لآدم هو تسخير القوى للانسان في هذه الحياة ، وأن قصة آدم بما فيها من
محاورة الملائكة ، وتعليمه الأسماء ، وسجود الملائكة له ... الخ هي من باب
« التمثيل » لا أنها وقعت بالفعل ..... الخ

ثم ذكر له تناقضات ، ثم قال : والعجيب أن الدكتور طه حسين مال الى عدم
اخضاع التفسير للعقل : « لي على الشيخ محمد عبده اعتراض ، فان تأويله لنصوص
القرآن ، وحرصه على ان يكون نص القرآن ملائما لكل الملاءمة للعلم الحديث ،
مما اخالفه فيه ، فهو مثلا يقول عن الحجارة الموصوفة في سورة الفيل بأنها من
سجيل : انها جراثيم وهذا توسع في تحكيم العقل ، والمسلمون الاوائل وهم صحابة
الرسول لم يفهموا هذا .

والله يفعل ما يشاء ، ولكن الانسان يفعل ما يستطيع ، والانسان الذي
وصل الى القنبلة الذرية والهيدروجينية والغازات السامة ، مما لم يكن العرب
يعرفونه في ذلك الوقت ، فالله يخبرنا بأنه ارسل حجارة من سجيل ، ولابد أن آخذ
القرآن بلا تأويل ، وأن اقبل النص القرآني كما هو ، والعلم لم يحط بكل شيء ، والله
وحده هو الذي يعلم كل شيء »

ثم أضاف الدكتور طه قوله : بأن بعض المستشرقين يذهب هذا المذهب
فيقول : ان الفيل لم يكن فيلا ، بل كان كائنا من قواد الروم جاء مع ابرهه واسمه
( أنيليس ) ، وقد سمعت هذا من المسيو جاستون فييت الذي كان مدير دار
الآثار العربية » اهـ

ثم ذكر فضيلة الدكتور ملاحظات على تفسير المنار لها قيمتها ، وحقيق
بكل من يرجو أمر كتاب الله الكريم أن يقرأ هذا المقال مرة بعد مرة ، متع الله تعالى
به حسنات الدكتور ، وجزاه احسن الجزاء أبيه

الورقة الأخيرة

# الفصل السابع بعد العشرين
## (مخطوطة سير وتراجم)

# مُخْتَصَرُ غِبْطَةِ النَّاظِرِ
لابن حَجَرِ العَسْقَلانيّ

تجمع هذه المخطوطة بين ثلاثة من الرجال، منهم اثنان من أعلام النبلاء فى التراث العربى، أما الثالث فهو رجل مجهول! فالأول منهم هو المُتَرْجَمُ له فى المخطوطة (الإمام عبد القادر الجيلانى) والثانى هو المُتَرْجِمُ ومؤرِّخ السيرة (ابن حجر العسقلانى) والثالث هو الرجل المغربى، كما يبدو من خطه، الذى اختصر كتاب ابن حجر العسقلانى فى هذه المخطوطة الفريدة: مختصر غبطة الناظر فى ترجمة الشيخ عبد القادر.

وقد توقفنا فيما سبق، فى أحد فصول هذا الكتاب، عند الإمام عبد القادر الجيلانى المتوفى 561 هجرية[1]. كان ذلك بمناسبة الإطلالة على مخطوطة مواعظه المسماة: جلاء الخاطر فى الظاهر والباطن. وقد تحدثنا هناك عن مؤلفات الإمام الجيلانى، وبقى لنا هنا أن نلقى بعض الضوء على شخصيته، من خلال ما أورده ابن حجر عنه فى (غبطة الناظر) واستبقاه صاحب المختصر.

ولابدُّ أولًا من الإشارة إلى أن هذه المخطوطة الفريدة، هى واحدةٌ من مجموعة كبيرة، من تراجم الإمام عبد القادر الجيلانى. فقد حظى الإمام بالكثير من عناية المؤرخين، وخَصَّه المؤلفون بالترجمات المفردة، التى يمكن معها أن نُقرِّر أن الإمام عبد القادر الجيلانى، هو صاحب أكبر قدر من الترجمات فى التراث العربى.. ونورد فيما يلى، قائمةً بما عرفناه من هذه الترجمات:

1- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، للشطنوفى (طُبع بمصر، بدون تحقيق).

2- قلائد الجواهر فى مناقب الشيخ عبدالقادر، للتادفى (طبع بمصر، بدون تحقيق).

3- شمس المفاخر في الذيل على قلائد الجواهر، للبخشى الحلبى.

---

(1) وراجع أيضًا كتابنا: عبد القادر الجيلانى، باز الله الأشهب (دار الجيل، بيروت 1991).

4- خلاصة المفاخر فى اختصار مناقب الشيخ عبد القادر، لليافعى.
5- عقد جواهر المعانى فى مناقب عبد القادر الجيلانى[1]، لأحمد بن عبد القادر.
6- تُحفة الأبرار ولوامع الأنوار فى مناقب السيد عبد القادر وذريته الأكابر الأخيار، لعلاء الدين الجيلانى.
7- ضَمُّ الأزهار فى الذيل على تحفة الأبرار، لمحمد سعدى الأزهرى.
8- نزهة الخاطر الفاتر فى ترجمة سيدى عبد القادر، لمُلا على القارى.
9- بستان الأصاغر والأكابر فى ترجمة الشيخ عبد القادر، لعبد الحىّ المغربى.
10- رياض البساتين فى أخبار الشيخ عبد القادر مُحيى الدين، لمحمد الأمين الكيلانى.
11- الشجرة النورانية بطريقة القادرية، لعبد القادر القادرى.
12- الجَنَى الدّانى فى نبذة من مناقب القطب عبد القادر الجيلانى، للبَرْزَنْجى.
13- دُرّ المفاخر فى مناقب سيدى عبد القادر، لعبد القادر العَيْدرُوس.
14- الشرف الباهر فى مناقب الشيخ عبد القادر، لمحمد اليُونينى.
15- دُرّ الجواهر فى مناقب سيدى عبد القادر، لابن الملقّن.
16- أنوار الناظر فى معرفة أخبار الشيخ عبد القادر، لأبى بكر الصيقى البغدادى.
17- نزهة الناظر فى أخبار الشيخ عبد القادر، للنّرْسى.
18- روضة الناظر فى ترجمة سيدنا الغوث عبد القادر، للفَيْروزآبادى.
19- روض النواظر فى مناقب سيدى عبد القادر، للزّنجَارى.
20- مناقب الشيخ عبد القادر، للطالبانى.
21- السيف الربانى فى عنق المعترض على الغوث الجيلانى، لمحمد بن عَزُّوز (طُبع بتونس سنة 1310 هجرية).
22- الإمام عبد القادر الجيلانى، لأبى الحسن الندوى (طُبع بالقاهرة، دار المختار الإسلامى).
23- الشيخ عبد القادر الجيلانى، ليونس السامرائى (طُبع ببغداد، مطبعة الأمة).
24- الشيخ عبد القادر الجيلانى، لعبد الغفار العباسى (طُبع ببغداد، على نفقة مؤلفه).

---

(1) مخطوط الإسكندرية رقم 1609 (ب) وجاء فى خاتمته: هذا كتاب موسوم بنزهة الناظر وبهجة الخاطر.

وما لم نذكر عنه في هذه القائمة أنه (مطبوع) فهو إما مخطوط أو مفقود. وينضاف لهذه القائمة، مخطوطتان مجهولتا المؤلف، محفوظتان بالمعهد الأحمدى بطنطا: الأولى تحت رقم 216/683 عنوانها: مناقب سيدى عبد القادر، والأخرى تحت رقم 216/684 وعنوانها: فضائل عبد القادر الجيلاني. الأولى مؤرخة بسنة 1005 هجرية، والأخرى بسنة 1269 هجرية.

كما ينضاف لقائمة ترجمات الإمام الجيلاني، مجموعة من الترجمات الشعرية التي ورد بعضها في كتاب (سفينة القادرية) وأشهرها القصيدة المطولة، المعروفة باسم: قصيدة الباز الأشهب، لعبد الباقي العُمَري، فرغ منها سنة 1255 هجرية. ويوجد عليها شرح لشهاب الدين الآلوسي، بعنوان: الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب[1].

ولابن حجر العسقلاني كتابان عن الإمام الجيلاني، الأول بعنوان: روض الزاهر في ترجمة السيد عبد القادر. والآخر عنوانه: غبطة الناظر في أخبار سيدنا عبد القادر. وكلاهما مخطوط لم ينشر، بل هما اليوم في حكم المفقود.. فلا يوجد بأيدينا، إلا مخطوطة مختصر غبطة الناظر.

والآن، فلننظر في شيء من سيرة الإمام عبد القادر الجيلاني، لنتلمس هذه المكانة التي جعلت المؤرخين يُفردون له هذا القدر الوافر من التراجم المفردة. ناهيك عن أخباره المطولة، في كتب التاريخ وسِيَر الأعلام من الرجال.

تروى لنا مخطوطة (المختصر) على لسان ابن حجر، أن الإمام الجيلاني ولد بجيلان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. وهو تاريخ غير صحيح! فالواقع أن الإمام، ولد سنة 470 هجرية[2]. وقد ورد في المخطوطة أن الإمام سُئل عن تاريخ مولده فقال: لا أعلمه حقيقةً، ولكنى نزلتُ بغداد وسِنّى ثماني عشرة سنة، في السنة التي مات فيها التميمي، شيخ الحنابلة. فإذا كان التميمي (أبو محمد رزق الله بن

(1) توجد منه نسخة خطية، محفوظة بمكتبة عباس عزاوى تحت رقم 9091.
(2) راجع مناقشتنا لهذه المسألة، في كتابنا: عبد القادر الجيلاني.. ص 34 وما بعدها.

عبد الوهاب الحنبلى) قد مات سنة 488 هجرية، فإن مولد الإمام كان سنة 470 هجرية.. وذلك ما يتأكَّد من طريق آخر، وهو أن الإمام توفى بإجماع المؤرخين، سنة 561 هجرية وله من العمر تسعون سنة، أو يزيد قليلًا. فهو إذن مولود فى السنة التى حدَّدناها، وليس فى السنة الواردة فى المخطوطة.

والجدير بالذكر هنا، أن ابن حجر لم ينفرد بذكر هذا التاريخ غير المضبوط لمولد الإمام؛ إذ وقع فى نفس الخطأ، مؤرِّخٌ مشهورٌ آخر هو ابن شاكر الكتبى، الذى نصَّ فى كتابه (فوات الوفيات) على أن مولد الإمام كان سنة 491 هجرية.

وتحكى المخطوطة أن الإمام نشأ فى أسرة مشهورة بالفضل، وأنه تلقى العلم على يد جده، الشيخ الزاهد أبى عبد الله الصومعى. الذى قيل عنه إنه كان مجاب الدعوة، ومن جلة مشايخ جيلان. وعمته ووالدته، كانتا من فضليات النساء، بل رويت عن كلتيهما الكرامات، التى ليس هذا موضع سردها.. ثم تصف المخطوطة، هيئة الإمام، فتقول ما نصه: كان نحيف الجسم، ربع القامة، عريض الصدر واللحية، طويلها، أسمر اللون، مفروق الحاجبين. له صوتٌ جهورى، وسمتٌ بهىٌّ، وقدرٌ علىٌّ. يلبس زىَّ العلماء، ويتطيلس، ويركب البغلة.

وتنقل المخطوطة عن الإمام عبد القادر الجيلانى، قوله: كنتُ صغيرًا فى بلدنا، فخرجتُ إلى السواد فى يوم عرفة، وتبعتُ بقر الحراثة، فالتفتت إلىَّ بقرة وقالت: يا عبد القادر ما لهذا خُلقت، ولا بهذا أُمرت. فرجعت فرقًا (خائفًا) إلى دارنا[1]، فصعدتُ للسطح فرأيتُ الناس واقفين بعرفة، فذهبتُ إلى أمى وقلت لها: هَبينى لله تعالى، إنى أرى المسير إلى بغداد، لأشتغل بالعلم وأزور الصالحين. وأخبرتها بما جرى، فبكت وقالت لى: عندى ثمانون دينارًا، ورثتها من أبيك. فتركتُ لأخى أربعين، وخاطتْ فى دلقى (ثوبى) تحت إبطى أربعين، وأذنت لى فى المسير، وعاهدتنى على الصدق فى كل أحوالى، وخرجت مودعةً لى وقالت: يا ولدى اذهب، فقد خرجتُ عنك لله، وهذا وجهٌ لا أراه إلى يوم القيامة. فسرتُ مع قافلة

(1) رويت هذه (الكرامة) عن غير واحد من الأولياء، منهم إبراهيم بن أدهم.

صغيرة تطلب بغداد، فلما تجاوزتُ همدان وجزنا بأرض فلاة (صحراء) خرج علينا ستون فارسًا، فأخذوا القافلة (نهبوها) ولم يتعرَّض لى أحدٌ. ثم مَرَّ بى واحدٌ، فقال لى: ما معك؟ قلت: أربعون دينارًا. فقال: وأين هى؟ قلت: مخيطة تحت إبطى. وظنَّ أنى استهزأت به، فتركنى وانصرف. ومَرَّ بى آخر فقال لى مثل الأول، فأجبته بمثله، فتركنى وانصرف. واجتمعنا عند مقدمهم (رئيس العصابة) فأخبراه بما سمعاه منى، فقال: علىَّ به. فأتى بى إليه، وهم على تلٍّ يقسمون أموال القافلة، فقال لى: ما معك؟ قلت:أربعون دينارًا. قال: وأين هى؟ قلت: مخيطة فى دلقى تحت إبطى. فأمر فأخرجوها، فقال: ما حملك على هذا؟ قلت: إن أمى عاهدتنى على الصدق، فأنا لا أخون عهدها. فبكى وقال: أنت لا تخون عهد أمك، وأنا أخون عهد ربى. فتاب على يدى، فقال له أصحابه: أنت كنت مقدمنا فى قطع الطريق، فأنت الآن مقدّمنا فى التوبة، وردُّوا للقافلة ما أخذوا منهم، فهم أول من تاب على يدى[1].

وتمضى المخطوطة فى سرد أخبار الإمام بعد نزوله بغداد، فتحكى عن صلته بمشايخ وقته، وأساتذته فى الطريق الصوفى، ووقائع رحلته الروحية، وشىء من كراماته.. وقد احتوت المخطوطة على بعض النصوص الجيلانية الباهرة، مثل قول الإمام:

اسم الله الأعظم هو الله.

وإنما يُستجاب إذا قلت (الله) وليس فى قلبك غيره.

بسم الله من العارف، بمنزلة (كُنْ) من الله.

الله، هذه كلمةٌ تزيل الهَمَّ.

هذه كلمةٌ تكشف الغَمَّ.

هذه كلمةٌ تبطل السُّمَّ.

(1) مختصر غبطة الناظر، ورقة 2أ.

هذه كلمةٌ نورُها يعم.

الله، يغلب كل غالب.

الله، مظهر العجائب.

الله، سلطانه رفيع.

الله، جنابُه منيع.

الله، مُطْلعٌ على العباد.

الله، رقيبٌ على القلب والفؤاد.

الله، قاهرُ الجبابرة.

الله، قاصمُ الأكاسرة.

الله، عالمُ السرِّ والعلانية.

الله، لا تخفى عليه خافية.. . إلخ(1).

أما مؤلِّف (غبطة الناظر) فهو أحد مشاهير الأعلام فى تاريخ الإسلام، وهو صاحب العشرات من المؤلفات المشهورة، مثل: فتح البارى بشرح صحيح البخارى، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، إنباء الغمر بأبناء العمر، الإعلام بمن ولى مصر فى الإسلام، الزهر النضر فى أنباء الخضر، المرجمة الغيثية عن الترجمة الليثية.. وله من وراء ذلك قرابة 150 كتابًا، بعضها يقع فى عدة مجلدات.

وقد ترجم ابن حجر لنفسه، فقال: ابن حجر العسقلانى أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن أحمد، العسقلانى الأصل، المصرى المولد والمنشأ، نزيل القاهرة.

---

(1) يوجد اضطراب فى النص الوارد بالمخطوطة، ويمكن مراجعة النص الكامل محققا، فى كتابنا: ديوان عبد القادر الجيلانى، ص 244 وما بعدها.

ولد فى شعبان سنة 773، ومات أبوه فى رجب سنة 777، وماتت أمه قبل ذلك وهو طفل، فنشأ يتيمًا ولم يدخل الكُتّاب حتى أكمل خمس سنين، فأكمل حفظ القرآن وله تسع سنين، ثم لم يتهيأ أن يصلى بالناس التراويح، إلا فى سنة 785 وقد أكمل اثنتى عشرة سنة.. وسمع صحيح البخارى على مسند النشاورى، ولم يضبط سماعه، ثم كان سماعه بقراءة الشيخ شمس الدين محمد بن عمر السلاوى.. وحفظ بعد ذلك كُتُبًا من مختصرات العلوم، ونظر فى فنون الأدب، فقال الشعر، ونَظَمَ مدائح نبوية ومقاطيع.. ثم رحل إلى الإسكندرية فسمع من مسنديها (علماء الحديث النبوى) ثم حَجَّ ودخل اليمن، فسمع بمكة والمدينة وينبع وزبيد وتعز وعدن وغيرها.. ولازم الشيخ سراج الدين البلقينى، إلى أن أذن له (فى رواية الحديث النبوى) وأذن له شيخه زينُ الدين العراقى. ثم ولى درس الحديث بالمدرسة الجمالية الجديدة (بالقاهرة) فأملى فيها.. ثم ولى مشيخة (مدرسة) البيبرسية، ثم تدريس الشافعية بالمدرسة المؤيدية الجديدة، ثم ولى القضاء فى السابع والعشرين من المحرم سنة 827، ثم عقد مجلس الإملاء فى أوائل صفر منها، إلى الآن[1].

ولقد أوجز ابن حجر هنا، وهو يترجم لنفسه، عملًا بقوله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ وبالتالى لم يوفِّ نفسه حَقَّها أو يناسب قدرها، وترك الحكم عليه للتاريخ وللمؤرخين من بعده. وقد أوفاه هؤلاء بعض حقه، وأفاضوا فى الترجمة له. لكن أجمل ترجمة لابن حجر، هى ما كتبه تلميذه المباشر شمس الدين السخاوى فى (الضوء اللامع) وهى ترجمة تعد آية أدبية فى مجال الولاء للأستاذ.. فلنختتم هذا الفصل بنصِّ هذه الترجمة، ولنتأمل فى أسلوبها، ولنتعرَّف من خلالها إلى بعض مناقب ابن حجر. يقول السخاوى:

أحمد بن على.. شيخى الأستاذ، إمام الأئمة، الشهاب أبو الفضل الكنانى العسقلانى المصرى، ثم القاهرى الشافعى، ويُعرف بابن حجر، وهو لقبٌ لبعض آبائه. ولد فى ثانى عشر من شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمصر العتيقة،

---

(1) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، ص 73 (نقلا عن مقدمة د. عدنان درويش لكتاب: ذيل الدرر الكامنة. نشرة معهد المخطوطات العربية، القاهرة 1412هجرية، ص 15).

ونشأ بها يتيمًا فى كنف أحد أوصيائه: الزّكىّ الخَرُوبىّ، فحفظ القرآن وهو ابن تسع عند الصدر السِّفطى شارح مختصر التبريزى، وصلى به على العادة بمكة حيث كان مع وصيِّه بها.. وبحث فى صغره وهو بمكة، العمدة، على (الشيخ) الجَمال بن ظهيرة. ثم قرأ على الصدر الأبشيطى بالقاهرة شيئًا من العلم، وبعد بلوغه، لازم أحد أوصيائه: الشّمسَ بنَ القَطّانِ، فى الفقه والعربية والحساب وغيرها، وقرأ عليه جانبًا كبيرًا من الحاوى. وكذا لازم فى الفقه والعربية: النُّورَ الأدمى، وتفقّه بالأبناسى.. وبابن الملقِّن.. ولازم العزَّ بن جماعة، فى غالب العلوم التى كان يُقرئها دهرًا.. وعن الجمال الماردانى المؤقت الحاسب، واللغة عن المجد (مجد الدين الفيروزآبادى) صاحب القاموس.. والقراءات عن التنوخى.. وجَدَّ فى الفنون حتى بلغ الغاية، وحبَّب الله إليه الحديث (النبوى) وأقبل بكليته عليه.. فعكف على الزين العراقى، وتخرَّج به وانتفع بملازمته، وقرأ عليه ألفيته وشرحها، ونكته على ابن الصلاح درايةً وتحقيقًا.. وتحوَّل إلى القاهرة فسكنها قبيل القرن (قبل سنة 800 هجرية) وارتحل إلى البلاد الشامية والمصرية والحجازية، وأكثر جدًّا من المسموع (من الأحاديث).. واجتمع له من الشيوخ المشار إليهم والمعوَّل فى المشكلات عليهم، ما لم يجتمع لأحد من أهل عصره. لأن كل واحد منهم كان متبحرًا فى علمه، ورأسًا فى فنه الذى اشتهر به، لا يُلحق فيه. فالتنوخى فى معرفة القراءات وعلو سنده فيها، والعراقى فى معرفة علوم الحديث ومتعلقاته، والهيثمى فى حفظ المتون واستحضارها، والبلقينى فى سعة الحفظ وكثرة الاطلاع، وابن الملقِّن فى كثرة التصانيف، والمجد الفيروزآبادى فى حفظ اللغة واطلاعه عليها، والغمارى فى معرفة العربية ومتعلقاتها.. والعز بن جماعة فى تفنُّنه فى علومٍ كثيرة، بحيث إنه كان يقول: أنا أُقرئ فى خمسة عشر علمًا، لا يعرف علماء عصرى أسماءها. وأذن له جُلُّهم أو جميعهم، كالبلقينى والعراقى، فى الإفتاء والتدريس. وتصدى لنشر الحديث، وقصر نفسه عليه مطالعةً وقراءةً وإقراءً وتصنيفًا وإفتاءً، وشهد له أعيان شهوده (علماء الحديث) بالحفظ، وزادت تصانيفه التى معظمها فى فنون الحديث، وفيها من فنون الأدب والفقه والأصلين (الكتاب والسُّنَّة) وغير ذلك، على مائة وخمسين تصنيفًا. ورزق فيها من السعد

والقبول، خصوصًا: فتح البارى بشرح البخارى، الذى لم يسبق له نظير أمرًا عجبًا، بحيث استدعى طلبه ملوك الأطراف، بسؤال علمائهم له في طلبه. وبيع بنحو ثلثمائة دينار، وانتشر فى الآفاق. ولما تم (فتح البارى) لم يتخلف عن وليمة ختمه وجوه من سائر الناس، إلا النادر. وكان مصروف ذلك إليهم، نحو خمسمائة دينار[1].. وكان مصممًا على عدم دخوله في القضاء، حتى إنه لم يوافق الصدر المناوى، لما عرض عليه قبل القرن، النيابة عنه (في القضاء) ثم قدّر أن المؤيد ولّاه الحكم في بعض القضايا، ولزم من ذلك النيابة، لكنه لم يتوجه إليها ولا انتدب لها. إلى أن عُرض عليه الاستقلال بالقضاء، وأُلزم.. فقبل واستقر.. وصرّح بأنه جنَى على نفسه.. وزهد فى القضاء زهدًا تامًا، لكثرة ما توالى عليه من الأنكاد والمحن بسببه، وصرّح بأنه لم تبق فى بدنه شعرةٌ، تقبل اسم القضاء. ودرّس فى أماكن.. ووُليّ مشيخة البيبرسية ونظرها، والإفتاء بدار العدل، والخطابة بالجامع الأزهر ثم بجامع عمرو، وخَزَنَ الكتب بالمحمودية؛ وأشياء غير ذلك.. وأملى ما يزيد على ألف مجلس (من مجالس الحديث النبوى) من حفظه، واشتهر ذكره وبَعُد صيته، وارتحل الأئمة إليه، وتبجح الأعيانُ بالوفود عليه، وكثرت طلبته حتى كان رءوس العلماء من كل مذهب، من تلامذته. وأخذ الناس عنه طبقة بعد أخرى، وألحق الأبناء بالآباء والأحفاد، بل وأبناءهم بالأجداد[2]. ولم يجتمع عند أحد مجموعهم، وقهرهم بذكائه وتفوّق تصوره وسرعة إدراكه واتساع نظره ووفود آدابه. وامتدحه الكبار. وتبجح فحول الشعراء بمطارحته، وطارت فتواه التى لا يمكن دخولها تحت الحصر، فى الآفاق. وحَدّث بأكثر مروياته، خصوصًا المطولات منها[3]. كل ذلك مع شدة تواضعه وحلمه وبهائه وتحرّيه (الحلال) فى مأكله ومشربه وملبسه وصيامه وقيامه، وبذله وحُسن عشرته، ومزيد مداراته ولذيذ محاضراته، ورضى أخلاقه، وميله لأهل الفضائل، وإنصافه في البحث، ورجوعه إلى الحق، وخصاله التى لم تجتمع لأحدٍ من أهل عصره. وقد شهد له

---

(1) انظر تفاصيل الاحتفال فى (البدر الطالع) للشوكانى 90/2.

(2) يقصد أنه اجتمع فى مجلس التعليم عدة أجيال فى وقت واحد.

(3) يقصد، الأحاديث النبوية التى رواها ابن حجر عن السابقين بالإسناد.

القدماء بالحفظ والثقة والأمانة والمعرفة التامة والذهن الوقّاد والذكاء المفرط وسعة العلم في فنون شتى، وشهد له شيخه العراقي بأنه أعلم أصحابه بالحديث (النبوى) وقال كُلٌّ من التقي الفاسي والبرهان الحلبي: ما رأينا مثله. وسأله الفاضل تَغْرى برمش الفقيه: أرأيت مثل نفسك؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ النجم/ الآية 32. ومحاسنه جَمَّة، وما عسى أن أقول في هذا المختصر، أو من أنا حتى يعرِّف بمثله؟! خصوصًا وقد ترجمه (أرّخ حياته) من الأعيان، في التصانيف المتداولة بالأيدي: التقي الفاسي في ذيل التقييد[1]، والبدر البشتكي في طبقاته للشعراء، والتقي المقريزي في كتابه العقود الفريدة، والعلاء بن خطيب الناصرية في ذيل تاريخ حلب، والشمس بن ناصر الدين في توضيح المشتبه، والتقي ابن قاضي شُهبة في تاريخه، والبرهان الحلبي في بعض مجاميعه، والتقي ابن فهد المكي في ذيل طبقات الحُفّاظ، والقطب الخيضري في طبقات الشافعية، وجماعةً من أصحابنا كابن فهد النجم في معاجمهم[2]، وغير واحد في الوفيات، وهو نفسه في رفع الإصر[3]. وكفى بذلك فخرًا. وتجاسرتُ فأوردته في معجمي والوفيات وذيل القضاة، بل وأفردتُ له ترجمةً حافلةً لا تفي ببعض أحواله، في مجلد ضخم أو مجلدين كتبها الأئمة عني، وانتشرت نسخها. وحدثتُ بها الأكابر غيرَ مرة، بكلٍّ من مكة والقاهرة. وأرجو كما شهد به غير واحد، أن تكون غاية في بابها، سميتها: الجواهر والدرر (في ترجمة ابن حجر) وقد قرأتُ عليه الكثير جدًّا من تصانيفه ومروياته، بحيث لا أعلم مَنْ شاركني في مجموعها. وكان رحمه الله يودُّني كثيرًا، وينوِّه بذكرى في غيبتي مع صغر سني، حتى قال: ليس في جماعتي مثله. وكتب لي على عدة من تصانيفي، وأذن لي في الإقراء والإفادة، وأمرني بتخريج حديث ثم أملاه[4]. ولم يزل على جلالته وعظمته في النفوس، ومداومته على أنواع الخيرات. إلى أن توفي في أواخر ذى الحجة سنة اثنتين وخمسين

(1) التقييد، كتاب مشهور لابن نقطة.
(2) يقصد، في معجم شيوخهم.
(3) رفع الإصر عن قضاة مصر، لابن حجر.
(4) يدل ذلك على ثقة ابن حجر في السخاوى.

(852 هجرية) وكان له مشهد (جنازة) لم يرَ مَنْ حضره من الشيوخ فضلًا عمن دونهم، مثله. وشهد أمير المؤمنين والسلطان، فمن دونهما، الصلاة عليه. وقدَّم السلطانُ الخليفة للصلاة (عليه) ودفن تجاه تُربة الديلمي بالقرافة، وتزاحم الأمراء والأكابر على حمل نعشه، ومشى إلى تُربته مَنْ لم يَمْشِ نصف مسافتها قط. ولم يخلف بعده في مجموعه، مثله. ورثاه غير واحد بما مقامه أجَلُّ منه، رحمه الله وإيانا. ومن نظمه مما قرأته وأنشدنيه لفظًا (من الطويل):

خَلِيلِيَّ وَلَّى العُمْرُ مِنَّا وَلَـمْ نَتُبْ
وَنَنْـــوِى فِعَـــالَ الصَّالحاتِ وَلَكِنَّا

فَحَتَّى مَتَى نَبْنِي بيُوتًا مَشِـــيدَة
وَأَعْمَـــارُنا مِـــنَّا تُـــهَـدُّ وَمَا تُبْنَى

وقوله (من الطويل):

أَخِـــى لاَ تُسَوِّفْ بِالْمَتَابِ فَقَدْ أَتى
نَذِيـــرُ مَشِيبٍ لاَ يُفَارِقُهُ الهَـمُّ

وَإِنَّ فَتًى مِـــنْ عُمْـرِهِ أَرْبَعُونَ قَـدْ
مَضَتْ مَعْ ثَلاَثٍ، عَدُّهَا: عُمْرٌ جَمُّ

* * *

والمخطوطة الفريدة، ولعلها الوحيدة، من كتاب: مختصر غبطة الناظر. محفوظة بالخزانة العامة بالرباط (المغرب) ضمن المجموعة رقم 330/د. وهى مكتوبة بخط مغربى دقيق، وتقع فى 44 صفحة. وبها تآكل فى وسطها وأطرافها، وتلك واحدة أخرى من (أفعال) الزمان، فالظاهر أن المخطوطة دُوِّنت فى زمن يعود تقديرًا، إلى القرن العاشر الهجرى.

مخطوطة غبطة الناظر
(الورقة الأولى)

الورقة الأخيرة

# الفصل الثامن بعد العشرين

## (مخطـوطـة موسـوعيـة)

# مَسَالِكُ الأَبْصَارِ فِي مَمَالِكِ الأَمْصَارِ

لابن فَضْلِ اللهِ العُمَرِي

بدأت معرفتي بمخطوطة هذا الكتاب الموسوعي، أيامَ كنت أنقِّب في تراث ابن النفيس وأتنسَّم أخباره في كتب التاريخ وطبقات الرجال. وكنت آنذاك في ضيق شديد من قلة المصادر التي تؤرِّخ لابن النفيس، ومن اكتفاء المؤرخين بتناقل عبارات بعينها، عنه، دون إضافة شيء جديد. لكن الضيق تبدَّد، واتسعت معرفتي وأُثلج صدري، يوم وقعت على ترجمته الوافية وأخباره المطوَّلة، في موسوعة ابن فضل الله العُمَري (مسالك الأبصار) إذ وجدت فيها أغزر المعلومات وأدق الوقائع الخاصة بابن النفيس؛ مما فتح أمامي مجالات البحث في حياة الرجل، وإسهاماته العلمية. وقد لاحظت أن ابن فضل الله العمري، ينفرد في ترجمته لابن النفيس، بأخبار لم ترد عند غيره من المؤرخين والمترجمين[1].

ثم عاودت الاعتماد على (مسالك الأبصار) أيام كنت أبحث في أخبار عفيف الدين التلمساني، تمهيداً لتحقيق ديوانه. ومرةً أخرى، وجدت ابن فضل الله العُمَري ينفرد بذكر أشياء عن التلمساني، لم يرد ذكرها عند غيره. ولكن شتَّان ما كان بين المرتين! ففي ترجمته لابن النفيس، بالغ ابن فضل الله العُمَري في ذكر فضائل الرجل، ولم يورد ما يغضُّ من شأنه، إلا خبراً واحداً مفاده أن ابن النفيس: كان قليل البصر بأمور العلاج. وهو الخبر الذي ظهر لنا تهافته، بأدلة كثيرة. وفيما عدا ذلك، فبقية الأخبار التي أوردها عنه، تمتدح فضائل ابن النفيس العلمية والذهنية.. وعلى العكس تماماً، جاءت ترجمة العفيف التلمساني في: مسالك الأبصار، فباستثناء شهادة ابن فضل الله العمري بجودة شعره، جاءت كل الأنباء حاطَّةً من شأنه. ولما

---

(1) تقع الترجمة في الجزء السابع من مخطوطة (مسالك الأبصار) المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم 99/ تاريخ. وقد نقلها د. بول غليونجي، كاملة، في آخر كتابه عن ابن النفيس (سلسلة أعلام العرب) ص 186 وما بعدها.

كانت ترجمة ابن النفيس فى مسالك الأبصار منشورة مشهورة[1]، فسوف نورد هنا نص ترجمة التلمسانى التى لا نعتقد أنها نُشرت من قبل. نوردها هنا، لنرى (كمْ) الأخبار التى يذكرها عنه ابن فضل الله العُمَرى و(كَيْف) الحكايات العجيبة التى يقصها عنه.. ولنتأمل فى الأسلوب البديع، الذى يترجم به المؤلف للتلمسانى، قائلًا ما نصه:

ومنهم العفيف التلمسانى، وهو سليمان بن علي.. رجلٌ قُلَّب، وسحابٌ ممطرٌ خُلَّب. يباشر مرةً الخَدَم[2]، ويثابر مرةً على التخلُق بالندم. ووقتًا حرصًا، ووقتًا زهدًا. وآونةً صابًا، وآونةً شهبًا. يتطوَّر فى هذا كله على غير نظام، وينتقل فى أحواله جميعا من غير استعظام. مختلف الأحوال، مؤتلف الأقوال. يجيد الشعر لا لكلفٍ ولا نوال، ويطوف بالطلل لا لردِّ جوابٍ ولا سؤال. يكلف بليلي ولا ليلي وأترابها[3]، ويهيم بجَزْوى ولا جَزْوى ولا ترابها. صرَّح بهواه المقيَّد الجمال المطلق، وبرِّح به الحبُّ ولا حبٌّ يُعرف ولا مليح يعشق. وإنما هى أسماءٌ سَمَّاها، وأشياءُ لا يدرك مُسَمَّاها. وأمورٌ ادَّعى أنها الحقيقة[4] وهى الباطل، وقد خَيَّلَتْه – لا بل خَتَلَتْه– وقال إنها الطريقة[5]. وسلكها جاهلًا لا يخبر أرضها، فقتلته. سلك طريقة القوم[6] بزعمه فأخطأها، واستسقى تلك السُّحُب فما قصد إلا أبطأها. وظن أنها المعارف وهى النُّكُر.. وَجَدَ فى زجاجة أهل الاتحاد[7] نفثةً شربها وحده، وبقى فى خمارها حتي نزل لحده. وتُحكى عنه سامحه الله أمورٌ متناقضة، وأحوالٌ متعارضة. وتمسُّكٌ بباطل، وتنسُّكٌ من حُلية عاطل. وتهتُّكٌ لا يليق بعاقل، ولا يقبل عثرة ناقل. هذا إلي ارتكاب عظايم، واحتقاب حرايم. لايزعُه وازعٌ، ولا ينزعه عن قبح فعلاته نازعٌ. قليل المبالاة لمحذور الفضائح، ومحظور القبائح، والإصرار علي المآثم الشنيعة، والمحارم المخالفة للشريعة.

---

(1) انظر الهامش السابق.
(2) أى أنه كان يخدم السلاطين ويتولى الوظائف العامة.
(3) الإشارة إلى الرموز التى استخدمها التلمسانى فى شعره.
(4) الحقيقة: مصطلح صوفى يقابل الشريعة.
(5) أى طريقة الصوفية.
(6) القوم: الصوفية والأولياء.
(7) مذهب القائلين باتحاد الله والخلائق (العالم) فى وحدة تامة.

.. وبعد هذه (الأوصاف) التى خلعها ابن فضل الله العمرى فى كتابه (المسالك) على العفيف التلمساني، نراه وقد راح يحكى عنه من عجائب الحكايات ما لا يمكن تصديقه، ولا يتمكن الباحث من تحقيقه، بل يُتَشَكَّك فى تصديقه! ثم يعاود سرد (الأوصاف) فيقول عن التلمساني: ويُحكى عنه من هذا ومثله، من سقوط الغَيْرة وعدم النخوة وقلة المبالاة، وتساوى الخير والشر لديه والمدح والذم عليه؛ ما تقشعر منه الجلود، وتعقم بمثله أُم الدهر الولود.. وكان على هذا كلّه، وسرعة انجذابه فى يد مضلّه. أديب دهره، ورقيب التخوم على دُرّه. إلا أنه خلط شهده بالسُّمّ الناقع، وبنى بيوته فى القفار البلاقع.. إلخ[1].

وهذه الحدة فى تناول سير الأعلام، ما بين إعجاب مفرط وانتقاص مدهش، بالإضافة إلى الكثير من (الحكايات) التى جمعها ابن فضل الله العُمَرى وهو يترجم للأعلام، خاصةً من كانوا قريبى العهد بعصره؛ وذلك الأسلوب الأدبى البديع الذى كُتب به (مسالك الأبصار).. كان وراء اهتمامى بالكتاب ومؤلفه.



مؤلف (المسالك) وفقًا لما اتفقت عليه المصادر، هو: شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن يحيى بن فضل الله بن مجلى بن دعجان بن خلف.. بن عمر بن الخطاب، القرشى العدوى الدمشقى الشافعى، المعروف بابن فضل الله العمرى. ولد سنة 700 هجرية وتوفى 749 هجرية، من دون أن يكمل الخمسين من عمره[2].

درس ابن فضل الله علوم عصره بالقاهرة ودمشق، فسمع الحديث النبوى من كبار المحدِّثين آنذاك، وأخذ الأدب عن والده وعن شهاب الدين محمود وشمس الدين ابن الصائغ الكبير وأبى حيان وابن الزملكانى والوادعى، وتعلَّم فنون اللغة العربية على يد كمال الدين بن قاضى شُهْبة، وقرأ الأحكام الصغرى على ابن تيمية، والفقه عن برهان الدين الفَزَارى.. ويستلفت النظر فى قائمة شيوخ ابن فضل الله، أنه درس

(1) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار 399/7 وما بعدها.
(2) انظر ترجمته فى: الدرر الكامنة 331/1، شذرات الذهب 160/6، النجوم الزاهرة 234/10، معجم المؤلفين 205/2، Brockelmann TT 176-2/205.

فى شبابه المبكر، على يد الفقيه الحنبلى المجاهد: ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم، تقى الدين، المتوفى سنة 728 هجرية). مما يعنى أن ابن فضل الله العمرى درس على يده عندما كان فى حدود العشرين من عمره، لأن ابن تيمية قضى السنوات الأخيرة من عمره، مشتغلًا بالجهاد الذى يعوق عن التدريس. وقد كان ابن تيمية يهاجم الصوفية بعامة والعفيف التلمسانى بخاصة، حتى إنه كان يُسمِّيه (الفاجر التلمسانى) فالراجح أن ابن فضل الله، تأثر برأى شيخه ابن تيمية فى العفيف التلمسانى، ولذلك انتقصه فى (المسالك) هذا الانتقاص الشديد.. ومع ذلك، فنحن نعتقد أن ابن فضل الله كان ميَّالًا لحشد الحكايات السائرة عن أعلام الرجال الذين ترجم لهم، وقد مَرَّ علينا من قبل، ما رواه عن ابن البيطار من حكايات عجيبة[1].

ونعود لسيرة ابن فضل الله؛ فنراه بعد أن استكمل درس الفنون والعلوم المتاحة فى عصره، يبزغ نجمه فى سماء الوقت، ويشتهر أمره بين الرجال. يصفه ابن حجر العسقلانى بأنه: كان يتوقَّد ذكاءً، مع حافظة (ذاكرة) قوية، وصورة جميلة، واقتدار على النظم والنثر. حتى كان يكتب من رأس القلم (فورًا) ما يعجز عنه غيره فى مدة، مع سعة الصدر وحُسْن الخُلُق وبِشْر المحيا[2]. وقد أهَّلته هذه الصفات لتولِّى المناصب العامة، فصار كاتب الإنشاء بمصر، وناب عن والده فى وظيفة (كاتب السر) بمصر، وكان يقرأ البريد السلطانى.. ثم وقعت له مع السلطان واقعة:

كان السلطان الناصر ينوى إسناد منصب (كاتب السِّرِّ بدمشق) إلى علم الدين ابن قطب الدين، وهو رجل نصرانى. فلم يرض ابن فضل الله العمرى، وحَطَّ من شأن علم الدين عند السلطان الناصر، فلم يلتفت إليه.. فواجه السلطان بكلام غليظ، وقام بين يده غاضبًا فقال: إنَّ خدمتك علىَّ حرام! فغضب السلطان عليه، وأبعده وصادر أملاكه وحدَّد إقامته بمنزله. فالتمس الرحيل إلى الشام، فتحرَّكت حفيظة السلطان الناصر ضده مرة أخرى، وأمر باعتقاله. وقد زاد الطين بلةً أحد

(1) راجع ما أوردناه من ذلك، عند الكلام عن ابن البيطار ومخطوطته: قانون الزمان.
(2) الدرر الكامنة 332/1.. وقد ذكر ابن العماد شيئًا آخر، إذ وصف ابن فضل الله العمرى بأنه: كان قوى النفس وأخلاقه شرسة.. (شذرات الذهب 160/6).

معاصريه من الكتاب؛ إذ زعم أن ابن فضل الله حين كان كاتبًا للسِّرّ، زوَّر توقيعًا.. فأمر السلطان بحبسه وقطع يده، فقطعت. وتلك صفحةٌ أخرى، من كتاب العلاقة الدامية بين المثقف والسلطة، فى تاريخنا العربى.

وقضى ابن فضل الله العُمَرى عامًا فى الاعتقال، مقطوع اليد، ثم أُفرج عنه سنة 740 هجرية. واستدعاه الناصر، وأخذ عليه عهدًا، وأرسله إلى دمشق ليتولى كتابة السِّرّ (مرة أخرى!) فظل هناك عامين يشغل المنصب. لكنه قُبض عليه سنة 743 واقتيد إلى القاهرة لمحاكمته على الشكايات الكثيرة التى قُدِّمت فيه، فشفع فيه أخوه علاء الدين، فعاد إلى دمشق معزولًا.

وفى سنة 749 هجرية خرج ابن فضل الله العُمَرى من الشام قاصدًا الحج، وكان الطاعون منتشرًا، فماتت زوجته فى الطريق، فدفنها فى القدس، ثم استكمل طريقه إلى مكة، لكنه مالبث أن أصيب بحمى شديدة، جعلته يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يقف بعرفة مع الحجيج.. خاتمةٌ طيبةٌ، بعد حياة حافلة.

وترك ابن فضل الله مجموعة من المؤلفات التى حفظ الزمان لنا نسختها الخطية، لكننا لم ننشر شيئا منها، فمن ذلك: التعريف[1] بالمصطلح الشريف (مخطوطاته بمكتبات: دار الكتب المصرية، ليبزج، الاسكوريال) النبذة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية، مختصر قلائد العقيان، رسالة فى أمر مشاهير مماليك الفرنج عُبَّاد الصليب فى أيام نور الدين زنكي وأواخر دولة المماليك.. تلك هى مؤلفاته التى ذكرها بروكلمان فى موسوعته: تاريخ الأدب العربى[2]. وذكر له العسقلانى وابن العماد، زيادة على ذلك: فواصل السِّمر فى فضائل آل عمر، وهو كتاب فى أربع مجلدات. أما حاجى خليفة، فقد ذكر لابن فضل الله، مجموعة المؤلفات السابقة، وأضاف عليها:

- نفحة الروض.

---

(1) ويعرف أيضًا بعنوان: عرف التعريف.

(2) Brockelmann II/175,176.

- صبابة المشتاق (ديوان مدائح نبوية).

- سفرة المسافر.

- ذهبية العصر (فى أخبار وأشعار أهل القرن الثامن).

- دمعة الباكى ويقظة الساهى.

- الدعوة المستجابة.

- حُسن الوفاء لمشاهير الخلفاء.

- تذكرة الخاطر[1].

أما أشهر مؤلفات ابن فضل الله العُمَرى، فهو كتابه الموسوعى الذى يقع فى 27 مجلدًا: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار. وهو يعد من روائع الكتب وبدائع الموسوعات فى التراث العربى. وصفه ابن العماد بأنه: كتاب جليل ما صُنِّف مثله. وقال عنه ابن شاكر الكتبى: كتاب حافل ما أعلم أن لأحدٍ مثله. وقال جورجى زيدان:

مسالك الأبصار.. موسوعة ضخمة فى بضعة وعشرين مجلدًا مخطوطًا، من الكتب الهامة فى الأدب والتاريخ والجغرافية والتاريخ الطبيعى وغيرها. منه أجزاء متفرقة فى مكاتب أوروبا، لكن أحمد زكى باشا استحضر منه نسخة كاملة، من مكتبتى أيا صوفيا وطوبقبو بالآستانة فى 16 جزءًا كبيرًا، صفحاتها 9381، وهو من حيث مواضيعه.. يُقسم إلى قسمين: الأول فى الأرض، أى الجغرافيا وما يلحقها، والثانى فى سكان الأرض. ويُقسم هذا إلى ما يتعلق بالحيوان الناطق، وغير الناطق. فبحث فى الأجزاء الأولى منه، فى التاريخ الطبيعى والجغرافية وما يتبع ذلك من مسالك الممالك والرياح وعجائب البر والبحر ومواقع مشاهير البلاد، وخصوصًا مملكة مصر والشام والحجاز وترتيبها ونظامها، واختص وأفاض فى منازل العرب كما كانت فى زمانه، وأفاض فى وصف سكان الغرب وسكان

(1) كشف الظنون.. صفحات: 385، 668، 756، 761، 829، 992، 1070، 1968.

الشرق، وترجم رجالهم فى شكل التفاضل بين البلدين، فأتى على تراجم الأطباء والعلماء والفقهاء وسائر رجال العلم والسياسة والإدارة فيهما، وهو باب كبير. ثم نظر فى غير الناطق والجماد، وبحث فى العلوم الطبيعية كالمعادن والحيوان والنبات، وتوسّع فى وصف الطيور وسائر الحيوان. وقسّم التاريخ حسب الأمم والبلدان على اختلاف الزمن والأصقاع إلى سنة 744 هجرية، ودقّق فى تواريخ المغول والهنود والأتراك والأكراد، فضلا عن الأمم الأخرى.

ويقول د. محمد زكريا عنانى، فى مقال له بعنوان: لماذا تبقى مسالك الأبصار دون تحقيق؟ إن هذه الموسوعة تمثل الطابع الموسوعي بمعناه الشامل المستوعب الدقيق.. فإذا تركنا الإطار العام إلى ما هو أخص وأدق، وجدنا أن الموسوعة نابضة بالوعي والجدة والدقة، فمن أمثلة ذلك تناول المؤلف للبرهنة على أن الأرض كروية، ولحركات الأفلاك وتقسيم الأقاليم، وآراء العلماء فى الكواكب الثابتة والمتحركة وأبعاد الأرض، خاصةً آراء هرمس وبطليموس والإدريسي. وانتهى ابن فضل الله العمرى إلى أن الأرض «غير صادقة الاستدارة» وتناول الجبال ومنابع النيل، وسَجّل جهود المسلمين فى هذا المجال، كما تحدث عن الآثار المبنية كالكعبة والمسجد النبوى وقبة الصخرة والهياكل والأهرامات والأديرة والرجل -ابن فضل الله- يخوض فى التاريخ وفى الجغرافيا وفى الفلك وفى البحار والرياح والمعتقدات، بل ويخوض فى أسماء التراب والعفار والرمال وصفاتها، فتبهرك هذه الغزارة فى المادة، والحصر والترتيب. فإذا انتقل إلى مواد الأدب والتراجم، وجدت الدربة والذوق والوعى الشامل لتاريخ الأدب وروائع النصوص، ثم تجد مع عديد من المواقف الرأى والتمحيص والفكر الوهّاج المستنير. والمدهش، أن جهود ابن فضل الله العمرى، لم تقتصر على تدوين وتأليف هذه الموسوعة الهائلة، بل له بالإضافة إليها عدة مؤلفات.



وعلى غير العادة مع الموسوعات الضخمة، تبقى لدينا قدرٌ كبير من مخطوطات (مسالك الأبصار) وقد كان بدء الالتفات إليها، كالعادة، من جهة المستشرقين لا

العرب. فقد بدأ الاهتمام بالكتاب بعد أن لفت إليه الأنظار، المستشرقُ الفرنسى كاترمير سنة 1838. ثم قام شيخ العروبة أحمد زكى باشا بنشر الجزء الأول منه فى القاهرة، سنة 1924، الجزء الأول فقط.

وعاد المستشرقون لاهتمامهم بالكتاب، فنشر المستشرق الألمانى كلاوس لش الباب الثانى من القسم الخاص بممالك جنكيزخان، وصدر هذا الجزء سنة 1968 فى مدينة فسبادن الألمانية.. والجزء الخاص بمملكة مصر والشام والحجاز واليمن فى زمن المماليك، نُشر مرتين! الأولى بعناية أيمن فؤاد سيد، وأصدره المعهد الفرنسى بالقاهرة، والثانية بعناية المستشرقة دوروتيا غرافولكس، وأصدرته فى بيروت. النشرة الأولى لهذا الجزء صدرت سنة 1985، والنشرة الثانية للجزء ذاته صدرت سنة 1986 بعد عام واحد.. ومع هذا، فلا تزال أجزاء الكتاب الأخرى، التى قد تصل بعد تحقيقها إلى قرابة الخمسين مجلدًا، مخطوطةً لم ينشر منها شىء. وهذه واحدة من المفارقات الهزلية فى واقع تعاملنا مع التراث العربى. كتاب كهذا يظل حتى اليوم بأجزائه الكثيرة، مخطوطًا؛ ثم ينشر جزءٌ صغيرٌ منه مرتين، فى عامين متتاليين.

وفى الطبعة الأولى من الكتاب الذى بين أيدينا، اختتمت هذا الفصل بقولى: لاشك فى أن صدور هذه الموسوعة فى أجزاء متفرقة، من الأمور التى ينبغى للعرب المعاصرين أن يخجلوا منها.. فإذا كان إصدار هذا الكتاب اليوم قد يكلِّف العرب بعض المال وبعض الجهد، فإن الكثير من المال ومن الجهد، يضيع من العرب المعاصرين فيما هو أقل منفعة من الاهتمام بالتراث العربى.. بل، فيما هو تافهٌ وجالبٌ للخزى والعار.. ثم حدث اهتمامٌ مفاجئ بالكتاب! وقامت فى الوقت ذاته، عدةُ جهات عربية بالمبادرة إلى نشر أجزاء الكتاب الضخم. وكان من تلك الجهات، المجمع الثقافى فى (أبو ظبى) الذى تم إلغاؤه العام الماضى، بعدما أصدر عديدًا من أمهات الكتب العربية، منها أجزاء كثيرة من مسالك الأبصار. وقد كلَّفنى (المجمع) قبل عشر سنوات، بتحقيق الجزء الخاص بالنبات والحيوان من (المسالك) وبعدما حققته، فُقدت منى أصوله.. ورأيت بعد ذلك نشرةً للجزء ذاته، قام بها د. عبد الحميد صالح حمدان، وأصدرتها إحدى دور النشر القاهرية!

بسم الله الرحمن الرحيم    على الله توكلت

## ثم لم يبق الا ذكر الشعراء بالجانب الغربي

واول ما نبدأ به منهم ابن سعيد، وهو المتأخر المجيد، المتصرف المشهور، والمقتصر على تحسين صنعتهم، من اول المائة الرابعة، وسائرهم الى زمانه في المائة السابعة، مرتبا على السنين، منتظما لهم نظم العقد الثمين.
واول ما قال انذكر منهم ما صورته شعراء المغرب من اول الديار المصرية الى البحر المحيط، والجاهلية وما بعدها الى المائة الرابعة عطلا مما هو من شروط هذا الكتاب، ثم ذكرهم على الترتيب، وادخل مصر في قسم المغرب لسوء حظها البعيد، وقد زدنا على من ذكر ابن سعيد اضعافا مضاعفة من اصلها اذ كان كتابنا هذا ولله الحمد على غير نمطه، ولا على حد مشترطه لما بينهما بعد المشرقين، واني ما بين الخافقين ولعل جملة كتب المغرب تاليف ابن سعيد ومن قبله لا تجمع جمعه قدر السدس، ولا توابعه الا دون السبع، هذا الى ما تضمنه كتابنا من علوم جمة، وامور مهمة، وتراجم اعيان هم الناس، وسيرهم من شئت منهم واستطرد في القياس بما لا يتكلم فيه الا المنصف ولا يرتاب فيه الا ولي المحق لا المتعصب، وقد جعلنا المصريين في اخر الجانب الغربي منفردين على ارائه وتراه، وعلى ما نقضي به عليها سابق القدرة و [illegible] سوء الحظ الذي لا ينفع معه الحذر فاما نجعل اهل المغرب ممن ذكر ابن سعيد

تراجم شعراء المغرب
أول الجزء 17 من مخطوطة باريس
(المكتبة الوطنية 2327) بخط المؤلف

فأولهم أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم الأموي مولاهم
جده سالم مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل أبو عمر صاحب كتاب العقد
وهو عقد كله جوهر، ومعدن لا أنه لما عنّ أظهره، ما شاء ما غالى
فيه الناس، ولا يحتج بما نظر عليه الناس، بل حلّى عقده الثمين عن قصد
لمن انتهب وجانب ـــــــــه صبابة على رضب
الذهب وقد استغرقه ابن سعيد شعراء المغرب في المرقص والمطرب
وقال ـــــ هو بالأندلس إمام أدبائها، وفارس شعرائها، فذكر
من شعره قوله

[illegible]

يا ذا الذي خط العذار بخده — خطين هاجا لوعة وبلابلا
ما كنت أقطع أن لحظك صارم — حتى رأيت بعارضيك حمائلا

وقوله وقال إنه الذي لما سمعه المتنبي حكم له بأنه شاعر الأندلس وهو

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا — ورشا بتعذيب القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله — درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه — أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة — ما بال قلبك لا يكون رقيقا

ومن شعره قوله

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة — إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع — عليها ولا اللذات إلا مصائب
وكم سخنت بالأمس عين قريرة — وقرت عيون دمعها الآن ساكب

الورقة الثانية من الجزء 17

زهدا وآونة متابا وآونة شهد سعفوزيني هذا كله على غير نظام ومقال
في أحواله جميعها من غير استعظام تختلف الأحوال ويتلف الأقوال
عند الشعر لا الكتب ولا نوال ويطوف بالطلل لا نزدحم بواب ولا نوال
كأنه ملي ولا لبس ولا ازدانها ويهيم بحزوى ولا حزوى ولا من بسيد
صرح بهواه المقيد للجمال المطلق وبرح به للحب ولا حب به ولا تعلق
بعشق إنما في أسماء تشاهد وأشياء لا تدرك منها إلا أسماؤها ولهوزادتي
أنها الحقيقة وهي الباطل وقد خيلته لا يخلته وقال لها طريقه
وسكنتها جبلا لا تجتاز أرضها فضلته شكلته تبقية القوم بزعمه
فأحضاها وانتشى تلك النخب فاقصد الا ابقاها وطن أنها المعارف
وهي المنكر والسكر شراب القوم فهو يبدي السكر وجلى في زجاجة
أهل الاتحاد نغمة شربها وجفى ويبقى في خمارها حتى نزل الجدث وتخلى به
شانه الله أمور مناقضة ولحوال متعارضة وتمسك بباطل ونسك
من حليه عاطل وتمسك لا يليق بعاقل ولا ينفك عن نائل هذا إلى
ارتكاب عظائم واجتناب جرائم لا يرتدع وازع ولا ينزجر عن فعلة لها
مانع فليس إلا مناله محذور الفضائح ومحظور القبائح ولا مراعي ماء
الشنيعة والمحارم المخالفة للشريعة وحكى لي شيخنا شهاب
الدين أبو الثناء محمود قال ... قصدته في جماعة من الأدباء فطرقنا
عليه الباب فأذن لنا من داخل الدار بصوت رخيم كأنه صوت امرأة فدخلنا
إليه فرأيناه قد خضب يديه ورجليه ولبس ثياب النساء ...

ترجمة العفيف التلمساني في المخطوطة

صورة قضبان الكرم
مخطوطة بلدية الإسكندرية 3355/ج
كتبت أوائل القرن التاسع الهجرى

# الفصل التاسع بعد العشرين

## (مخطوطة فلكية)

# نِهَايَةُ الإِدْرَاكِ فِي دِرَايَةِ الأفْلاَكِ

للشيرَازي

فى فصل سابق تحدثنا عن العلامة نصير الدين الطوسى (المتوفى 672 هجرية) باعتباره إحدى العلامات المهمة فى تاريخ العلم العربى الإسلامى، خصوصًا فى مجالى الرياضيات والفلك. وقلنا هناك: إن الطوسى بنى أعظم المراصد الفلكية فى عصره (مرصد مراغة) وجمع فيه من علماء الفلك جماعة نبغوا فى الفلك والرياضيات على يديه. وعلى يد هؤلاء، امتدت مدرسة الطوسى الفلكية فى القرن الثامن الهجرى، وكان من أهم رجال هذه المدرسة: قطب الدين الشيرازى.

هو محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي الشيرازى، ولد فى شيراز سنة 634 هجرية، وتوفى فى تبريز سنة 710 هجرية، بعد حياة حافلة بالعلم[1]. وهناك خلاف فى اسمه الأول، بين (محمود) و(محمد).. فهو فى طبقات الشافعية[2] وفى بعض مواضع من كشف الظنون[3] (محمد) وفى بقية المراجع وأغلب المواضع من كشف الظنون[4] (محمود) وقد أدى ذلك بعمر كحالة، إلى أنه ترجم للشيرازى مرتين،

---

(1) أشار عمر كحالة (معجم المؤلفين 202/12) إلى مصادر الشيرازى التالية.. الأسنوى: طبقات الشافعية 135/2، كتاب التراجم 12/1 (مخطوطة الظاهرية رقم 4616/ عام) طاهر الجزائرى: التذكرة 32/1 (مخطوطة الظاهرية رقم 49) ابن حجر: الدرر الكامنة 339/4، ابن رافع السلمى ص 219، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة 213/9، أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر 65/4، السيوطى: بغية الوعاة ص 390، حاجى خليفة: كشف الظنون 367/ 368 / 684 / 1235 / 1477 / 1695 / 1763 / 1853/ 1985، الشوكانى: البدر الطالع 299/2، الخوانسارى: روضات الجنات 214، طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة 165/1، جول رووانيت: تاريخ الموسيقى العربية، ص 23، رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى ص 199، فهرست الخديوية 225/5، الزركلى: الأعلام 65/8، محمد أسعد طلس: الكشاف ص24، كتبخانة ولى الدين ص 123، كوبريلى زاده 56/5، البغدادى: إيضاح المكنون 250/1، كويتتش: فهرس المخطوطات المصورة 107/3، هدية العارفين 406/2.

(2) السبكى: طبقات الشافعية 248/6.

(3) حاجى خليفة: كشف الظنون ص 392.

(4) راجع ترجماته المذكورة فى الهامش الأول من هذا الفصل.

الأولى تحت اسم (محمد بن مسعود) والأخرى تحت اسم (محمود بن مسعود) وقد أفاض فى الترجمة الثانية أكثر من الأولى[1]!

وبعيدًا عن هذا الخلاف اليسير فى الاسم الأول للشيرازى، إذ الراجح أن (محمد) هو محض تصحيف وقع فيه البعض؛ تتفق المصادر والمراجع على أنه نشأ فى بيت علم، فكان لأبيه وعمه اشتغال بالطب، فقرأ عليهما المعارف الطبية. وتلقاها أيضًا من زكى الدين البركشائى (أو: الركشاوى) وشمس الدين الكتبى. كان ذلك فى شبابه المبكر، ولذلك عمل الشيرازى فى ابتداء أمره طبيبًا بمستشفى شيراز. لكنه مالبث أن تاق لدراسة الفلك والرياضيات، فسافر إلى (مراغة) كى يدرس على نصير الدين الطوسى، حتى قيل إنه لم يفته شىء من علوم الطوسى، ولم يبق له حاجة علمية عنده[2].

وبعدما استكمل الشيرازى تحصيل العلوم، تنقل فى ديار الإسلام؛ بل إنه زار بلاد الروم حيث أكرمه حاكمها، وارتحل إلى مصر، ولم يمكث بها، واستقر فترة بسيواس وملطية، وتولى هناك منصب القضاء، كما تولى بعض المناصب الدبلوماسية، وعمل سفيرًا لبعض الحكام. ويبدو أنه أقام فترة بمدينة (قونيه) حيث أخذ التصوف وسمع كتاب (جامع الأصول، للترمذى) من شيخ قونيه الشهير، تلميذ ابن عربى وربيبه: صدر الدين القونوى.

واستقر الشيرازى أخيرًا ببلاد المشرق، واستوطن تبريز التى توفى بها. وكان إمبراطور المغول (غازان) يعظِّمه ويصله بالأموال، حتى إن دخله السنوى بلغ ثلاثين ألف درهم. كان لا يدخر منها شيئًا، بل ينفقها جميعًا على تلامذته كمعونة لهم على طلب العلم.

وكان الشيرازى شغوفًا بالموسيقى، محبًا للشطرنج[3]. يصفه ابن حجر بأنه:

(1) عمر كحالة: معجم المؤلفين، 12/ 200، 202.
(2) ابن حجر: الدرر الكامنة 339/4، 340.
(3) معجم المؤلفين 200/12، 202.

كان كثير المخالطة للملوك، متحرزًا. وكان ظريفًا مزَّاحًا، لا يحمل همًّا. ولم يغيِّر زِىّ الصوفية. وكان يجيد اللعب بالشطرنج ويديمه، حتى فى أوقات اعتكافه.. إذا صنف كتابًا، صام ولازم السهر، ومُسَوَّدته مُبيَّضة[1]. وكان يخضع (يتواضع) للفقراء[2]، ويلازم الصلاة فى الجماعة، ويتقن الشعبذة ويضرب بالرباب، ويورد الهزليات (النكات) فى دروسه، كثير الشفاعات. وكان بحرًا من بحور العلم، وأجود علومه الرياضيات. وكان أحد أذكياء العالم، لقبه عند الفضلاء (الشارح العلامة).. وكان فى الاعتقاد على دين العجائز[3]، يخضع للفقهاء ويوصى بحفظ القرآن. إذا مُدح يخشع، وكان يقول: أتمنى أن لو كنتُ فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لى سمع ولا بصر، رجاءَ أن يلحظنى بنظره.. وكان ذا مروءة وأخلاق حسان ومحاسن، وتلامذته يبالغون فى تعظيمه[4].

وللشيرازى حسبما يصفه ابن حجر، صفاتٌ تبدو متناقضة. فهو متصوفٌ زاهدٌ من جهة، ومن الجهة الأخرى ظريفٌ مَزَّاح يلقى النكات فى دروسه. وهو متدين كثير الخشوع والاعتكاف، لكنه أيضًا محبٌ للفنون، يضرب الرباب ويصحب الشطرنج فى خلوة اعتكافه. ولا أدرى كيف؟ فالشطرنج لا يلعبه الواحد منفردًا، بل لابد من خصم ملاعب له. فهل كان ذلك الاعتكاف جماعيًا؟! وهو يخالط الملوك، ويجالس الصوفية؛ مع أن الصوفية كانوا دومًا يحذرون من مخالطة الملوك. وهو بارعٌ فى العلوم، محبٌ لتلاميذه مُغدقٌ عليهم، ومتفنّن فى نفس الوقت فى اللهو «لا يحمل هَمْ الدنيا» ويتقن الشعوذات. ويُحكى عنه، أن صفىّ الدين المطرب غَنَّى له، فمنحه ألفىْ درهم.. فهل هى صفاتٌ متناقضة، أم هو التنوع الكبير فى الشخصية التراثية التى لا تخلو بطبعها من سمات تتنوع حتى تصل إلى درجة التناقض؟ وهل يمثل الشيرازى «حالة فريدة» بين علماء الإسلام، أم أننا تعودنا على صورة العلماء جادين إلى درجة التجهُّم؟ وهل هذه هى الصورة الحقيقية للعلماء، أم أن المؤرخين

(1) يقصد أنه كان لا يراجع ما يكتبه، ويضعه فى صورته النهائية مرة واحدة.
(2) يقصد: الصوفية.
(3) يقصد أنه كان يبتعد عن الخوض فى قضايا الدين، ويقبلها كمسلمات.
(4) ابن حجر: الدرر الكامنة 4/ 340.

احتفظوا فقط بالصورة الجادة لهم، مع إسقاط الجانب المَرِح من حياتهم؟.. تلك محض تساؤلات تدعو للتأمل.

وقد ترك الشيرازى مجموعة كبيرة من المؤلفات، تتنوع بين أكثر من تخصُّص؛ ففيها التفسير، والطب، والفلك، والفلسفة، والتصوف، والمنطق.. وقد ذكر له حاجي خليفة وكارل بروكلمان هذه المجموعةَ من المؤلفات:

- شرح حكمة الإشراق، للسُّهْرَوَرْدى (فى التصوف).
- فتح المنَّان فى تفسير القرآن (تفسير العلامى) وهو يقع فى أربعين مجلدًا.
- حاشية على: الكشاف عن حقائق التنـزيل، لجار الله الزمخشرى. وهو كتابٌ كبيرٌ، يقع فى مجلدين.
- مشكلات التفاسير.
- شرح مفتاح العلوم، للسُّكَّاكى (مفتاح المفتاح).
- شرح مُنتهى السؤل والأمل فى علمى الأصول والجدل، لابن الحاجب.
- شرح التذكرة فى علم الهيئة، للطوسى.
- غرة (درة) التاج، فى الحكمة (الفلسفة).
- شرح حكمة العين، لكاتبى القزوينى.
- فعلتُ فلا تَلُمْ.
- شرح الإشارات والتنبيهات، لابن سينا.
- مشكل الإعراب.
- رسالة فى إثبات الواجب (الله).
- رسالة فى النار الفارسية.
- الزيج الجديد الرضوانى.

- الزيج السلطانى.
- رسالة فى حركة الدحرجة.
- شرح كليات كتاب القانون، لابن سينا.

أما أشهر مؤلفات الشيرازى، فهما كتاباه فى الفلك: التحفة الشاهية فى الفلك، نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك. وكلاهما لا يزال فى نسخه الخطية كبقية مؤلفات الشيرازى التى لم ينشر منها حتى اليوم صفحةٌ واحدة. وأظن أن الشيرازى نفسه لم تكتب عنه إلى اليوم صفحةٌ واحدة (منشورة) فى بحث علمى معاصر[1]. مع أن كتب الشيرازى الفلكية نالت من القدماء اهتمامًا كبيرًا، فقام علاءُ الدين القوشجى والسيدُ الشريف الجرجانى بشرح كتاب: التحفة الشاهية، وقام سنان باشا بشرح: نهاية الإدراك. ومما يشهد باهتمام العلماء القدماء بالكتابين، ذلك الاعتناء الكبير بنَسْخهما، حتى توفَّرت لهما نسخٌ خطية كثيرة. فقد ذكر بروكلمان من مخطوطات (نهاية الإدراك) مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 8/2517، مخطوطة المكتب الهندى بلندن رقم 7693، مخطوطة مانشستر رقم 751/ن، مخطوطة مكتبة سليم أغا رقم 381، مخطوطة مكتبة كوبريلى زاده رقم 7/957، مخطوطة مكتبة فايز بك رقم 1349، مخطوطة مكتبة داماد إبراهيم رقم 851، مخطوطة مكتبة لاله لى رقم 2145، مخطوطة مكتبة ينى جامع رقم 11/221، مخطوطة طوبقابوسراى رقم 4/3333، مخطوطة الموصل رقم 71، نسخة أخرى بالموصل رقم 235، مخطوطة دار الكتب المصرية رقم 25، مخطوطة مكتبة الأصفية رقم 11/1214، مخطوطة مكتبة بنكيبور رقم 1/2060.. إلخ.

وإذا تأملنا فى هذا القدر الوافر من النسخ الخطية، اتضح لنا مقدار اعتناء العلماء المسلمين بالكتاب من جهة، واتضح لنا من الجهة الأخرى أن أغلب هذه المخطوطات محفوظ الآن فى مكتبات أوروبا! فقد تسرَّبت النسخ الخطية إلى مكتبات العالم

---

(1) مؤخرًا قام تلميذنا شريف الأنصارى بعمل دراسة نال بها درجة الماجستير، وكان موضوعها: نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك، للشيرازى.

الأوروبى أيام الاستعمار، وسطا جامعو الكتب والمستشرقون عليها، فأودعوها فى مكتبات بلادهم على غفلة من أصحابها الوارثين.. وهكذا صار تراثنا المخطوط اليوم ملكًا لغيرنا لا نطمح أن نسترده.



وحديثنا عن المخطوطة فيما يلى، نعتمد فيه على النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة كوبريلى زاده باسطنبول، تحت رقم 957. وهى نسخةٌ جيدة، مزدانةٌ برسومٍ هندسيةٍ دقيقة، وهى تبدأ بالآتى:

يقول أحوج خلق الله إليه، محمود بن مسعود الشيرازى، ختم الله له بالحسنى. أما بعد حمد الله فاطر السموات فوق الأرضين عبرة للناظرين المتوسمين، ومزيّنها بزواهر الثوابت والمتحيِّرين (الكواكب المتحركة) إلهامًا لدقائق صنعه فيها قلوب المستنصرين. والصلاة على سيد الأولين والآخرين، محمد وآله الطيبين الطاهرين. فإنى قد كنت برهةً من الزمان عازمًا على أن أحرِّر لنفسى ولسائر الإخوان، فى علم الهيئة.. إلخ.

وعلى عادة المؤلفين العرب فى كل التخصصات، نرى الشيرازى وهو يؤكد فضل تخصُّصه، ويجعله أشرف العلوم. وهو يقرِّر ذلك بقوله: إن شرف العلم، إما بكون معلوماته ثابتة باقية غير متغيرة، أو بكون الطرق المؤدية إليها (إلى المعلومات) طرقًا يقينية مبرأةً عن شوب بمظنون، أو بكثرة فوائده. وهذا العلم الذى نحن بصدده، قد اجتمع له الفضل من هذه الجهات كلها.. ثم يصف كتابه بأنه: رسالةٌ مغنية عن غيرها، مشتملةٌ على زبدة المبسوطات المؤلَّفة، ولباب المجموعات المصنَّفة فى تركيب الأفلاك، ومحتويةٌ على ملخص ما وصل إليه ومحصل ما انتهى عنده منتهى الإدراك، بحيث تكون تبصرةً للمبتدى وتذكرةً للمنتهى، بل عمدةٌ لأولى الأبصار، وغايةً لذوى الأفكار.

وقد أهدى الشيرازى كتابه، حسبما جاء فى المقدمة، إلى بهاء الدين محمد الجوينى، بقوله: رأيت أن أجمع الكتاب المذكور برسمه، ليكون باقيًا طول الدهر

كاسمه. . إلى أن يقضى الله أمرًا كان مفعولًا. وإهداء العلماء العرب مؤلفاتهم إلى الولاة والوزراء وسائر الحكام، أمر كان شائعًا فى القرون الماضية، وهناك عدد لا حصر له من المخطوطات تشهد بذلك؛ منها ما هو مثبتٌ للإهداء فى العنوان، مثل الذخيرة الخوارزمية التى أهداها البيرونى للسلطان خوارزمشاه، ومنها ما يثبت الإهداء فى المقدمة كمخطوطة الشيرازى التى نتحدث عنها. . وهو الأمر الذى يشهد بالاتصال الوثيق بين العلماء والحكام فى القرون السابقة. فقد أولى الحكام عنايتهم الكبيرة للعلم والعلماء، فكان افتخار أحدهم وشهرته بقدر رعايته لأهل العلم والأدب. وهى مسألةٌ استغنى عنها حكام اليوم بوسائل الإعلام.

ونعود للمخطوطة، فنرى الشيرازى وهو يضيف أنه حين شرع فى تأليف نهاية الإدراك، أشار إليه صديقه محمد بن عمر البذخشانى بضرورة أن يضم للكتاب شيئًا من الأرصاد الفلكية، وكيفية استخراج حركة الثوابت والمتحركات فى الفلك، وهو ما يعرف عند العرب بعمل الأزياج، وأن تكون الألفاظ سهلة ظاهرة، ليس فيها غموض ولا انغلاق. يقول الشيرازى: فتلقيتُ مرسومه وأسعفت مأموله، جمعًا بين المصلحتين واستزادة للعنايتين.

لكن الشيرازى يبالغ فى تقدير قيمة كتابه مبالغة كبيرة، حين يذكر فى وصف الكتاب ما نصه: ولما كان هذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، ولا آتية أو شريدة إلا سخَّرها وأدناها، لاشتماله على نهايات أفكار الأولين من المتقدمين والمتأخرين. . وهى ثقةٌ كبيرة فى الذات، واعتداد كبير بالنفس. ولا نستطيع أن نحكم على هذه الثقة وهذا الاعتداد إلا بعد نشر الكتاب محققًا، وبحث موقعه ومكانته فى تطور علم الفلك.

مخطوطة نهاية الإدراك

صفحة العنوان

بسم الله الرحمن الرحيم رب أنعمت فزد
يقول أحوج خلق الله إليه محمود بن مسعود
الشيرازي ختم الله له بالحسنى

أما بعد حمد الله فاطر السموات وما فوق الأرضين عبرة للناظرين المتوسمين
المزينها بزواهر الثوابت والمتحيرين الحاملها الآيات من صنعه ما قلوب المستبصرين
والصلوة على سيد الأولين والآخرين محمد وآله الطيبين الطاهرين. فإني قد كنت
برهة من الزمان عازما على أن أحرر لنفسي ولسائر الإخوان في علم الهيئة التي فاز بالسعادة
عالمها وانغمس في الشقاوة جاهلها لكونه أشرف العلوم لأن شرف العلم إما بكون
معلوماته ثابتة باقية غير متغيرة. أو لكون الطرق الموصلة إليها طرقا يقينية مبرأة عن
شوب مظنونه أو لكثرة فوائده. وهذا العلم الذي نحن بصدده قد اجتمع له
الفضل من هذه الجهات كلها لثباته [illegible] موجباته على أحسن نظام وأتم دوام على ما لا يخفى
وكثرة فوائده على ما لا يحصى ووثاقة براهينها لكونها عددية أو هندسية لا شك
فيها بخلاف براهين الطبيعي والإلهي ولهذا لم يزل [illegible] منهما. [illegible]
هي [illegible] من الفنون [illegible] لما اتسع له من العلوم الحكمية [illegible] مسائله
متشعبة [illegible] مشتملة على [illegible] المبسوطات المؤلفة ولباب المجموعات المصنفة
في تركيب الأفلاك ومحتوية على ملخص ما وصل إليه ومحصل ما انتهى عنده [illegible]
الإدراك بحيث يكون تبصرة للمبتدي وتذكرة للمنتهي بل عمدة لأولي الأبصار
وتتمة لذوي الأفكار وكانت العوائق شاغلة إياي دونه حائلة بيني وبينه
إلى أن [illegible] بعد آونة من الدهر [illegible] من العصر وقد [illegible] بنفسي
بعض العناء [illegible] معضلة الداء ولم يكن من نعم الإملاء إلى قلبي
سبيل ولا للسلو [illegible] بالاتصال ثانيا إلى عالي جناب من هو
خلاصة الدهر ونخبته وصفوة العصر وزبدته أعني [illegible] من هو
بالزمان [illegible] ومن الجلال بهاؤه [illegible] ومن الكمال
[illegible] فظاهره [illegible] وباطنه نقي [illegible] عنه مني
[illegible] الأدوحة [illegible] منها الأصل والفرع [illegible]

الورقة الأولى من المخطوطة

صفحة من المخطوطة

بعض الرسوم الهندسية والجداول الفلكية

# الفصل الأخير

# (مخطوطة منطقية)

# الوُرَيْقَاتُ فِي المَنْطِقِ

لابن النفيس

لابن النفيس مكانةٌ خاصة في تاريخ العلم العربي، بل الإنساني على وجه العموم. وله في نفسي تقديرٌ عظيم، فقد انشغلت به وبتراثه طيلة السنوات العشرين الماضية، وأبحرتُ كثيرًا في جملة مؤلفاته التي جاءت في آلاف الصفحات، يضمها قرابة مائة مجلد، لم يكن المنشور منها إلا ثلاثة، صيرتها سبعًا وثلاثين[1] (حتى الآن).. وقد توغلتُ في درس ابن النفيس، فكنت ألمس عن قرب عبقرية الرجل المتجلية في أعماله المطبوعة والمخطوطة، وأتأكد مع الأيام من أننا نظلمه كثيرًا حين نُقصر التعريف به على أنه مكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل هارفي. فالحقيقة أن لابن النفيس اكتشافات أخرى ونظريات مبتكرة لا تقل أهمية عن اكتشافه للدورة الدموية الصغرى والكبرى.. وللأمر تفصيلٌ سوف يأتي.

ويزداد إعجابنا بابن النفيس، حين نتعرف إلى الواقع شديد الاضطراب الذي عاش فيه، على نحو ما سنعرض بعد قليل. ومع ذلك لم يقعد به هذا الواقع عن مواصلة جهده العلمي الجبار. ولعلها تكون حُجة لنا اليوم، نواجه بها المُثَبِّطين المهووسين بترديد عبارات مثل: ليس هذا زمن الإبداع العربي.. ليس فينا فيلسوف عظيم.. لا فائدة من أي اجتهاد.. وغير ذلك من الأقاويل التي بلغت منتهاها على لسان أستاذ معاصر، قال: إن أقصى ما نطمح إليه اليوم هو أن نكون (سوبرماركت) لأفكار الغرب، ولا داعي لأية محاولات إبداعية.. وعلى مثل هذه الأقاويل، حسنة النية أو خبيثتها، يقوم ابن النفيس حجةً مبطلةً تدفعنا للعمل مثلما عمل هو رغم أنف أحوال الزمان.

---

(1) حصلت أعمالي الأربعة الأولى في ابن النفيس، تحقيق ودراسة، على جائزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبيعية / مؤسسة الكويت للتقدم العلمي (العام 1995) وبعدها بعشر سنوات، حصل تحقيقي لكتاب الشامل في الصناعة الطبية (ثلاثون جزءًا) على جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي في مجال التراث الطبي.

وربما كان إعجابى بابن النفيس وتقديرى له وراء اختيار مخطوطته هذه لتكون موضوع الفصل الأخير من هذا الكتاب، فيكون ذلك مسك ختامه واختتامه.. وهى مخطوطة فى المنطق، فلعلنا بها نستشعر أهمية المنطق والتفكير المنطقى، فى خضم هذه الفوضى المعرفية التى تشملنا اليوم أو نشمل بها. وعلى أىّ حال، فإن الترتيب الألفبائى لعناوين (فصول/ مخطوطات) الكتاب قد جاء بمخطوطة (الوريقات) فى هذا الموضع الاختتامى. فلنبدأ بالكلام عن المنطق، ثم نلقى الضوء على ابن النفيس ومخطوطته:

كانت الجهود العلمية لأهل الحضارات القديمة تستند للمنطق، لكن الفضل يرجع إلى الفيلسوف اليونانى العظيم أرسطو (أرسطاطاليس) فى بيان مباحث المنطق واستقلاله، كمعرفة خاصة مستخلصة من عصارة العقل الإنسانى، الذى كان قد بلغ قمة تطوره آنذاك. وكان أرسطو يقسم المعرفة الإنسانية إلى ثلاثة أقسام، كل قسم منها ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام، كالتالى:

- العلوم النظرية Theoretical. وتضم الرياضيات Mathematics والطبيعة Physics وما بعد الطبيعة Mitaphysics.

- العلوم العملية Practical. وتضم الأخلاق Ethics والسياسة Politics والاقتصاد Economy.

- العلوم الشعرية Poetical. وتضم الموسيقى Music والشعر Poetry والعمارة Architecture.

وبالإضافة إلى هذه الأقسام الثلاثة، وضع أرسطو مجموعة من الأبحاث التى لا تدخل ضمن مباحث أحد العلوم، بل هى آلة كل العلوم. وأسماها أرسطو (الأورجانون) وسميت بعده بالمنطق Logic. ويضم أورجانون أرسطو، أو مجموعة كتبه المنطقية ستة كتب رئيسية هى:

- كتاب المقولات Categories ويعالج التصورات الأساسية.

- كتاب التأويل Interpretation ويهتم بتحليل القضايا والأحكام.

- التحليلات الأولى The First Analytical ويتناول عملية القياس.

- التحليلات الثانية The Second Analytical ويعالج عملية البرهنة.

- كتاب الجدل Topics ويعرض للبرهان الاحتمالى.

- كتاب تفنيد الأغاليط Sophistical Refutations ويدرس الرد على الحجج السفسطائية والمغالطات[1].

ومع أن أرسطو كان يعرف المنطق المادى الاستقرائى Inductive Logic الذى يعتمد على حصر الوقائع الجزئية وإصدار حكم عام عليها جميعًا، إلا أنه كان أكثر اهتمامًا بالمنطق الصورى Formal الذى يركز على صورة الفكر واتساق المقدمات والنتائج المستخلصة منها دون اعتناء كبير بمادة الفكر وصدق النتيجة فى الواقع التجريبى. ففى القياس لا يأبه أرسطو بصحة النتائج فى الواقع التجريبى الفعلى، وإنما يهتم بصحة (صورة) القياس واستنباط النتيجة من المقدمتين، بعد استبعاد الحد الأوسط منهما[2]. بعبارة أخرى، كان أرسطو يبحث عن النتائج فى الذهن لا فى الواقع، فى الصورة لا فى المادة، فى الاتساق لا فى الخبرة. وهو يبدو كأنه قد استوعب كل المعارف فى ذهنه، ولم يبق له إلا توليد المزيد من المعرفة، مما هو مخزون أصلًا فى العقل! ولسوف يُهاجم منطق أرسطو بعد ذلك هجومًا شديدًا، ويوصف بأنه منطق عقيم لا يؤدى إلى تطوير المعرفة ولا يؤدى إلى جديد. لكن المناطقة المعاصرين سوف يعودون، مرة أخرى، إلى بنية المنطق الصورى الأرسطى. ليضعوه فى إطار رمزى، يتخذ الشكل الرياضى.

---

(1) د. ماهر عبد القادر: المنطق ومناهج البحث(دار النهضة العربية، بيروت 1985) ص 12.

(2) بخصوص المنطق الأرسطى، يمكن الرجوع إلى: د. على سامى النشار: المنطق الصورى (منشأة المعارف، الإسكندرية) د.عبد الرحمن بدوى: المنطق الصورى والرياضى (النهضة المصرية، القاهرة) نقولا ريتشر: تطور المنطق العربى، ترجمة د. محمد مهران (دار المعارف، القاهرة) روبر بلانش: المنطق وتاريخه، ترجمة خليل أحمد خليل ( المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت) د. محمد مهران: مدخل إلى المنطق الصورى ( دار الثقافة، القاهرة).

يقول د. ماهر عبدالقادر محمد على: حرص أرسطو على دراسة المنطق الصورى بطريقة دقيقة جادة، وأما المنطق الاستقرائى فقد تضاءل الاهتمام به، نظراً للجاذبية الخاصة للمنطق الصورى، ولاهتمام أتباع أرسطو وشراحه بالأفكار الأرسطية المتعلقة بالمنطق الصورى. كما حرص مناطقة العصور الوسطى على دراسة الفكر من حيث صورته، ولم يظهر الاهتمام بدراسة الجانب المادى (الاستقرائى) من المنطق إلا فى مطلع العصر الحديث مع أبحاث فرنسيس بيكون. ثم حدث أن تطور العلم فى شتى فروعه، وجرت محاولات علمية من جانب المناطقة وعلماء الرياضيات، ابتداءً من القرن السابع عشر، لربط المنطق بالرياضيات، وفى نهاية الأمر تُوِّجت كل تلك المحاولات بكتاب مبادئ الرياضيات Principia Methematica الذى أصدره برتراند راسل وألفرد هوايتهد 10-1913 فى ثلاثة أجزاء، بات المنطق فيها يرتدى ثوب الرياضيات، وأصبحت الرياضيات لا تنفصل عن المنطق، وفقدت النقطة التى ينتهى عندها المنطق وتبدأ منها الرياضيات وهنا اكتمل نمو المنطق الرياضى بعد صراع مع التقليد[1].

تلك هى باختصار مسيرة المنطق فى العالم الغربى.. وهناك مسيرة أخرى للمنطق فى تراثنا العربى الإسلامى. فقد عرف العرب المسلمون منطق أرسطو مع فجر حضارتهم، من خلال حركة الترجمة، فقد كان من الطبيعى أن يترجموا المنطق لأنه آلة العلوم. وانشغال العرب آنذاك بالمنطق لم يكن باعتبار المنطق (علماً) أو (فناً) مستقلاً بذاته، وإنما باعتباره (مقدمة) للعلوم. وظل الاهتمام العربى الإسلامى بالمنطق يتسع، حتى جاء القرن الرابع الهجرى ليكون للمنطق منذ ذلك الحين كيانه المستقل فى المحيط المعرفى؛ لا باعتباره مقدمة لازمة لكل علم فحسب، وإنما كعلمٍ خاص له مدارسه وطرقه المتعددة، وله رجاله المشهورون فى زمانهم، من أمثال: السجستانى، متى بن يونس، الآمدى، الأبهرى، الخونجى.. وغيرهم.

ومع استقرار المنطق كعلمٍ مستقل عند العرب، كانت هناك مواقف متباينة من منطق أرسطو؛ إذ اختلف فيه أعلامُ العلماء بين مؤيدٍ ومعارض، واشتهرت مع الأيام

---

(1) د. ماهر عبد القادر، المرجع السابق، ص 18.

بعض العبارات، مثل قول مؤيدي المنطق: لا يوثق بعلمه من لم يدرس المنطق[1]. ومنها قول المعارضين: من تمنطق فقد تزندق. والمجال هنا يضيق عن سرد حجج المؤيدين والمعارضين، وهو على كل حال خلاف طواه الزمان، ولم يعد قائمًا بحال. بل إن المنطق ذاته تطور اليوم تطورًا كبيرًا، ولم يعد في الصورة الأرسطية القديمة؛ ولذلك سنكتفي هنا بذكر تعريفات المنطق المشهورة عن أعلام الإسلام:

**ابن سينا:** المنطق هو الآلة العاصمة للذهن عن الخطأ فيما نتصوره ونصدّق به. وهو الصناعة النظرية التي تعرفنا من أي الصور والمواد يكون الحد الصحيح الذي يسمى بالحقيقة حدًا، والقياس الذي يسمى بالحقيقة برهانًا.

**الفارابي:** المنطق هو علم القوانين التي تهدينا إلى معرفة الصدق والكذب في الكلام، وتحوطنا من الخطأ والزلل في المقولات.

**الساوي:** المنطق هو قانونٌ صناعيٌ عاصمٌ للذهن من الزلل، مميزٌ لصواب الرأي عن الخطأ.

**الغزالي:** المنطق هو القانون الذي يميز صحيح الحد عن غيره، فيتميز العلمُ اليقيني عمّا ليس يقينيًا، وكأنه الميزان أو المعيار للعلوم كلها.

ومع أن الحضارة العربية الإسلامية كانت أقرب إلى الأخذ بالمنطق الاستقرائي ومنهجه التجريبي، وقد ابتكر فقهاؤها طريقة القياس الأصولي، إلا أن الاهتمام بالمنطق الصوري الأرسطي ونظرية القياس بالذات ظل ممتدًا طوال قرون الإسلام. ولا نكاد نجد مرحلة تاريخية واحدة تخلو من إسهامات منطقية عربية، حتى في القرون الأخيرة. وقد لخّص د. علي سامي النشار مسيرة المنطق الأرسطي في العالم الإسلامي، بل مسيرة (المنطق) عمومًا، حين اختتم بحثه الرائد (مناهج البحث عند مفكري الإسلام) بقوله: انتقل المنطق الأرسطاطاليسي (الأرسطي) ومعه بعض العناصر غير الأرسطاطاليسية إلى العالم الإسلامي منذ فجره، وسرعان ما عرض

---

(1) تنسب هذه العبارة للغزالي (حجة الإسلام، أبو حامد محمد بن محمد، المتوفى 505 هجرية).

المسلمون للمشكلة التي عرض لها الأوروبيون المحدثون، وهي عمومية هذا المنطق وكليته. هل هو قانون عام يجب التسليم به، أم نستطيع أن نجد في أسسه وعناصره من الضعف والأخطاء ما يخرجه عن أن يكون قانونًا كليًا؟ رأينا نحن أن معظم مفكري الإسلام لم يقبلوا المنطق الأرسططاليسي. كلٌ من وجهة نظره، ثم وضع كل فريق من هؤلاء المفكرين عناصر منطقية مبتكرة يمكن أن نعتبرها مذاهب منطقية كاملة.. والعلة الحقيقية لنقد المسلمين للمنطق الأرسطاطاليسي، أن هذا المنطق يقوم على المنهج القياسي الذي هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفلسفي والفكري. والمنهج الاستقرائي هو المعبر عن روح الإسلام. وبواسطة هذا المنهج الإسلامي الاستقرائي، نستطيع أن نفسِّر عداوة الإسلام للفلسفة؛ لأنه إذا كان الإسلام يتطلب المنهج الاستقرائي التجريبي، وينكر أشد الإنكار المنهج البرهاني القياسي؛ استطعنا أن نفسِّر بسهولة عدم نجاح الفلسفة في الإسلام، وأتباعها يدعونهم (فلاسفة الإسلام) أو الشراح الأرسطاطاليسيين كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، وغيرهم، هم مجرد امتداد للروح الهلينية (اليونانية) في العالم الإسلامي.. وإننا لنعلم أن فرنسيس بيكون قام بعد ذلك بشرح المنهج الاستقرائي، ثم بحث فيه جون ستيوارت مل Mill محتذيًا حذو العرب، آخذًا لكل ما توصلوا إليه، مرددًا عباراتهم وأمثلتهم.. المسلمون إذن هم مصدر الحضارة الأوروبية، القائمة على المنهج التجريبي[1].

ورأي د. النشار هذا جديرٌ بالنظر والاعتبار. ونحن نوافقه في أن الاستقراء والمنهج التجريبي عند العرب كان مقدمة مهمةً بالنسبة لأوروبا والحضارة الغربية. لكننا نخالف أستاذنا النشار (الذي لم ألتق به أبدًا، مع أننا ننتمي للمدينة نفسها) في أشياء، منها: إن الاستقراء كمنهج كان موجودًا لدى اليونان عند أرسطو ومن بعده الرواقيون ومن بعدهم المناطقة والعلماء الأوروبيون، فلا يجوز القفز إلى نتيجة (العرب مصدر الحضارة الأوروبية) وإنما الأسلم أن نقول: إن العرب

---

(1) د. علي سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام (دار النهضة العربية، بيروت 1984) ص 351 وما بعدها.

اهتموا بالاستقراء كمنهج للعلوم الطبيعية، لكنهم أيضًا اهتموا بالمنطق الأرسطى الصورى القياسى بنفس الدرجة.. وليس صحيحًا أن (روح الإسلام) استقرائية تجريبية فحسب، فهناك أيضًا السمة الصورية القياسية النظرية. هذا إن صح أصلًا ذلك التعبير الغامض: روح الإسلام! فالحضارة الإسلامية شهدت تنوعًا وثراءً لا يمكن معهما إهدار جانبٍ منها لصالح جوانب أخرى.. وأخيرًا، نخالفه بأنه ليس صحيحًا ما يقال عن (عداوة الإسلام للفلسفة)؛ إذ إن نتاج اليونان القديمة ليس هو (كل الفلسفة)، فلكل حضارة فلسفتها وحكمتها. ورفضُ المسلمين للفلسفة اليونانية لا يعنى رفضهم للفلسفة من حيث هى محبةُ الحكمة، ورؤيةٌ لله والعالم والإنسان، وانشغالٌ بقضية الموت.. وغير ذلك من مفاهيم الفلسفة العامة، أعنى الفلسفة من حيث هى، لا من حيث تجلياتها اليونانية بالذات.

ويبقى لنا هنا، من بعد ذلك، أن نرى جانبًا من الاهتمام الإسلامى بالمنطق الصورى الأرسطى، متمثلًا فى جهد عالمٍ كبير كان مجال تخصُّصه الأول هو الطب، أحد العلوم الطبيعية ذات المنهج الاستقرائى[1]. لكنه اهتم أيضًا بعلوم أخرى، من بينها (المنطق).. فإلى ابن النفيس ومخطوطة الوريقات.



لا يمكننى الحديث عن ابن النفيس بغير إسراف، بعدما كتبتُ عنه ونشرتُ له آلاف الصفحات. ومع ذلك فسوف أحاول فيما يلى الإيجاز والاقتصار على ذكر الضرورى من التعريف به:

هو علاء الدين على بن أبى الحرم القَرَشى الدمشقى المصرى الشافعى، المعروف بابن النفيس[2]. ولد سنة 607 هجرية بقرية قرب دمشق اسمها (القَرَش) وإليها انتسب، ونشأ بالشام ودرس الطب هناك على يد عمران الإسرائيلى المتوفى

(1) بخصوص المنهج الاستقرائى عند ابن النفيس، انظر دراستنا الممهدة لتحقيقنا لكتابه: رسالة الأعضاء، ص48.. وانظر أيضًا، كتابنا: إعادة اكتشاف ابن النفيس.

(2) راجع: شذرات الذهب 401/5، النجوم الزاهرة 377/7، طبقات الشافعية 129/5، البداية والنهاية 313/13، معجم المؤلفين لكحالة 58/7، Brockelmann.2/900.

637 هجرية ومهذب الدين الدُّخوار المتوفى 628 هجرية، ثم وفد إلى مصر وظل بها حتى وفاته يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة، سنة 687 هجرية. وفى القاهرة اشتهر ابن النفيس ونال مكانة كبيرة بين معاصريه، وظل يترقى فى المناصب حتى صار (رئيس أطباء مصر)، وكانت له مشاركة فى عدة علوم غير الطب، كالفقه واللغة والنحو والحديث النبوى.. والمنطق.

وقد عاصر ابن النفيس أحداثًا جسامًا، وشهد زمنًا مضطربًا غاية الاضطراب. ففى غضون سنوات حياته الثمانين، حدث الآتى: انهيار الدولة العباسية وسقوط بغداد واستباحتها على يد المغول سنة 656 هجرية، وتهديدهم لمصر بعد اجتياح الشام، تزايد الحملات الصليبية على الشام ومصر، زحف ملك النوبة على جنوب مصر، اشتداد الصراع على السلطة بين المماليك وانتهاء دولة بنى أيوب وقيام دولة المماليك البرجية، انتشار الأوبئة فى مصر والشام.

لكن مصر فى عصر ابن النفيس، استطاعت أن تلاقى تلك المصادمات، وتخرج قوية؛ فقد كسرت شوكة المغول فى عين جالوت، وردت هجوم ملك النوبة جنوبًا، وحملات الصليبيين شمالًا، وأسرت لويس التاسع فى المنصورة، وشفيت من وباء سنة 671 هـ الفتاك، وأقامت العمائر والمساجد والقصور والقلاع حتى صارت القاهرة بحق: حاضرة العالم الإسلامى.. ولقد عاش ابن النفيس بالقاهرة، وعايش كل ما ذكرناه، وعانى ما عاناه معاصروه من واقع اجتماعى مضطرب، ونزاع سلطوى لا يهدأ، ومخاوف وانتصارات.. ولم يشغله ذلك عن الاشتغال بالعلم والتأليف، فكانت له تلك المجموعة المتنوعة من التآليف[1]، التى جمعت بين الطب والصيدلة والفلسفة والفقه واللغة.. ومنها هذه المخطوطة.

وقبل الدخول إلى مخطوطة (الوريقات) التى هى المخطوطة المنطقية الوحيدة الباقية من أعمال ابن النفيس فى المنطق، إذ إن شرحه لكتاب الهداية فى المنطق مفقود. تستوقفنا عبارة مهمة وردت فى «مسالك الأبصار»، حيث يقول ابن فضل الله

(1) انظر تناولنا التفصيلى لهذه المؤلفات فى مقدمة: المختصر فى علم أصول الحديث النبوى، ص 9 – 82.

العُمَرى: وكانت لابن النفيس معرفة بالمنطق، وصَنَّف فيه مختصرًا، وشَرَحَ الهداية لابن سينا فى المنطق، وكان لا يميل فى هذا الفن إلا إلى طريقة المتقدمين كأبى نصر (الفارابى) وابن سينا، ويكره طريقة الأفضل الخَوَنْجى والأثير الأبهرى[1].

فما هى طريقة الخونجى والأبهرى التى كرهها ابن النفيس؟.. نحن نعلم أن الأوائل من أمثال الفارابى وابن سينا نظروا للمنطق النظرة الأرسطية التى تجعل منه آلةً للعلوم، ومقدمةً نظرية لابد أن تسبق كل علم. لكن المتأخرين، من أهل القرن السابع الهجرى، أمثال أفضل الدين الخونجى وأثير الدين الأبهرى، جعلوا المنطق علمًا قائمًا بذاته وفنًّا له خصوصيته بين سائر العلوم والفنون. وعلى ذلك، نفهم من عبارة ابن فضل الله أن ابن النفيس كان يعدُّ المنطق مدخلًا للعلوم، وليس علمًا قائمًا بذاته. وهو ما يتأكد لنا عند مطالعة مخطوطة الوريقات.

لا توجد من (الوريقات) غير مخطوطة وحيدة فى العالم هى النسخة النادرة الجيدة المحفوظة بمكتبة بودليان بأكسفورد تحت رقم 469. وهى تقع فى 200 ورقة من القطع الكبير (الورقة صفحتان) وغير مؤرخة، وإن كانت حالتها تدل على أنها ربما كُتبت فى عصر المؤلف، أو بعده بقليل. وعليها تملُّكٌ مؤرَّخ بسنة 1044 هجرية، مسجلٌ على الورقة الأولى بخط أحدث من خط النسخة.

ومن الورقة الأولى فى المخطوطة، نعرف أن لابن النفيس مختصرًا فى المنطق بعنوان (الوريقات) وهذه المخطوطة هى (شرح الوريقات)، فابن النفيس يبدأ بما يلى: قال الفقير إلى الله تعالى[2]، على بن أبى الحرم القرشى المتطبب: هذا كتابٌ شرحتُ فيه كتابى، الذى عُرف بكتاب الوريقات، ولأجل تقرير مباحثه، افتقرتُ فيه إلى استعمال البراهين قبل تحقيقها، ورتَّبته على مقدمة وتسعة كتب، على ترتيب ذلك الكتاب.

---

(1) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار، مخطوطة دار الكتب المصرية رقم 99/ مجاميع، المجلد السابع، ورقة 228.

(2) تدل هذه العبارة بما عليها من سمات التواضع، على أن النسخة التى بين أيدينا نسخة عتيقة، كتبها المؤلف أو أملاها على بعض تلاميذه. أما النسخ المتأخرة فتبدأ عادة بقول الناسخ: قال العالم العلامة، البحر الفهامة الإمام الرئيس علاء الدين ابن النفيس.. إلخ.

وتشتمل المقدمة على ثلاثة فصول، تتناول: بيان الحاجة إلى المنطق، حَدُّ المنطق وأقسامه، بعض الشكوك على المنطق وحلها. وكأن ابن النفيس، في الفصل الثالث من المقدمة، يدفع الهجوم على المنطق، فنقرأ:

الفصل الثالث، في ذكر شكوك وحلها. الشَّكُّ الأول: لو كان المنطق يميِّز بين صحيح الحَدِّ والقياس من فاسده، لما غلط المنطقى. لكنَّا نراه يغلط كثيرًا، حتى فى المنطق نفسه. الشَّكُّ الثانى: المنطق إما أن يكون بجملته فطريًا أو بجملته مكتسبًا، أو بعضه فطريًا وبعضه مكتسبًا. والأول باطل، لأنه يلزمنا فى تعلُّمه كُلفة (مشقة)، والثانى يحوج إلى منطق آخر، والثالث إن كان البعض الفطرى منه كافيًا فى اكتساب المجهولات، وجب ألا يحصل فى الباقى منه غلط، وأيضًا فليُسْتَغْنَ عن ذلك الباقى. وإن لم يكن كافيًا احتيج فى الباقى إلى منطق آخر. الشَّكُّ الثالث: إن جماعة اكتسبوا علومًا، ولم يحتاجوا إلى منطق، ولولا ذلك لكان الناس قبل ظهوره جُهالًا بالعلوم النظرية.

الجواب.. عن الشك الأول: كون المنطق يميز بين الصحيح والفاسد من الحد والقياس، لا يمنع غلط المنطقى إذا لم يراعه، كالنحوى إذا لم يراع أصول النحو، فإنه قد يلحن (يخطئ فى الإعراب). وعن الثانى: أنه إذا وقع فى البعض النظرى من المنطق غلطٌ لمن لم يراع البعض الفطرى، ولو روعى حَقُّ المراعاة لم يقع غلطٌ. وإنما احتيج إلى البعض النظرى، لتكون طرق الكسب (المعرفة) كثيرة، فيكون الوصول إلى المطلوب سهلًا. وعن الثالث: إنَّا لا ندَّعى أن الذهن لا يكفى فى إصابة الحق ألبتة، بل ندَّعى أنه قد لا يكفى.. فلا يحصل الوثوق إلا بالمنطق.

ثم تتوالى أبواب الكتاب وأقسامه، فتقع فى تسعة كتب، منها ما ينقسم إلى فصول كثيرة، ومنها ما لا ينقسم. وأولها (كتاب إيساغوجى) الذى ذكرنا فى فصل سابق أنه مقدمة لمنطق أرسطو وضعها فرفوريوس. يقول ابن النفيس عن إيساغوجى:

هو كالمدخل إلى هذه الصناعة (المنطق) فلذلك قُدِّم. وإنما افتقرنا إلى الكلام فى الألفاظ؛ لأن بين اللفظ والمعنى علاقة، ولذلك إذا فكرنا فى معان، لابد أن نتخيل

لها ألفاظًا تتميز بها، حتى كأن المفكر يناجي نفسه. ولذلك يختلف المعنى باختلاف اللفظ، بل باختلاف هيئة اللفظ، فإن قولنا: ضرب زيدٌ عمرًا. مغايرٌ فى معناه لمعنى قولنا: ضرب زيدًا عمرو. فوجب على المنطقى مراعاة اللفظ المطلق، غير مقيد بلغة قوم، إلا فيما يقل.

والكتاب الثانى هو (قاطيغورياس)[1] أو المقولات. ويبدأ فيه ابن النفيس بقوله: ليس هذا الكتاب من المنطق؛ إذ لا نظر للمنطقى فى الحقائق الوجودية. وإنما ذكره المعلم (أرسطو) لتكثر عند المتعلِّم الأمثلة، فاقتدى به.

والكتاب الثالث (باريمينياس) أو العبارات. ويتناول الألفاظ المركبة فى جمل وأقسام الجملة والقضية، ويتوقف فيه ابن النفيس عند (القضية الشرطية) بوجه خاص. وهى القضية التى يعرف المشتغلون بالمنطق اليوم أهميتها. إذ هى الأساس الذى يقوم عليه المنهج الاستقرائى، وهى الأساس الذى قام عليه المنطق الرياضى المعاصر (اللوجستيقا) حين نظر إلى القضية الكلية على أنها قضية شرطية متصلة، بينما القضية الجزئية هى فى الحقيقة قضية شرطية منفصلة.

والكتاب الرابع من الوريقات هو (أنولوطيقا الأولى) أو القياس. وفيه يتناول ابن النفيس أشكال القياس، وضروب كل شكل، وهيئة المقدمات والحدود والنتائج.. والكتاب الخامس (أنولوطيقا الثانى) أو البرهان. وفيه يقول ابن النفيس: سُمِّى هذا الكتاب بالبرهان، وإن كان فى الحقيقة كتاب الحدِّ والبرهان؛ لأنهما يبينان فيه، إلا أن المقصود فيه بالذات، هو البرهان. لأن المقصود فى العلوم بالذات هو التصديق بأحكام الأشياء. والغرض من هذا الكتاب هو إفادة الطرق الموقفة على التصديق اليقينى.

ثم يأتى كتاب (طوبيقا) أو الجدل. ويعرض ابن النفيس عبر فصوله لماهية الجدل ومفاهيمه المتعددة، حيث يوضِّح أن الجدل هو: التسلُّط بالخطاب المشتمل

---

(1) وضعنا هنا عناوين الكتب بحسب رسمها فى المخطوطة، وقد ذكرناها على وجهها الصحيح ورسمها فى الإنجليزية المعاصرة بأول هذا الفصل.

على قوة فى الإلزام لقطع الخصم. ثم يتناول الغرض من الجدل، والمطالب الجدلية المختلفة، وكيفية الاحتيال فى القول. بالإضافة إلى عملية (القدح) فى الحدود والمقدمات.

والكتاب السابع (سوفسطيقا) أو المغالطات والمفسطة. وفى بدايته يقول ابن النفيس فى منفعة هذا الكتاب: كما أن الحَقَّ يُتعلَّم ليُعتقَد، والخيرَ يُتعلَّم ليُستعمل، كذلك الباطل يُتعلَّم ليتحرز منه. كما يتعلَّم الطبيب السموم والأشياء الضارة، ليجتنبها ويحترز عنها.

ويلى ذلك الكتاب (رطوبيقى) أو الخطابة، وما يخص التحدُّث منها.. ثم الكتاب التاسع (قطوريقى) أو القياس الشعرى الذى يقول فيه ابن النفيس: القياس الشعرى فائدته الحثُّ أو القبض بالتخييل من غير اعتبار صدق. حتى لو استُعمل فيه الصادق اليقينى، لم يكن ذلك شعرًا من جهة ما هو صادق، بل من جهة تخييله. فالتخيُّل من الشاعر بمنزلة الإقناع فى الخطابة واليقين فى العلوم.

كتاب سوفسطيقا وديا بسطوريقا

في المخاطبات والجدل والمغالطات

وغير ذلك والله أعلم 469

كتاب شرح

كتاب ... في المنطق

101.

Robertus Huntington.



غلاف المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقير إلى الله تعالى علي بن أبي الحزم القرشي المتطبب
هذا كتاب شرحت فيه كتابي الذي عرف بكتاب
الوريقات ولأجل تفرع مباحثه افتقرت فيها إلى استعمال
البراهين قبل تحقيقها وبينته على مقدمة وتسعة كتب على
ترتيب ذلك الكتاب وأنا أسأل الله التوفيق والعصمة

والمقدمة تشتمل على فصول الفصل
الأول في بيان الحاجة إلى المنطق العلوم المشهورة
الحاجة إليها معلومة إلا المنطق فلذلك رأينا أن نبين بيانا وجه
الحاجة إليه لا شك أن العلوم تحصل للنفس كمالا وشرفا
وذلك مطلوب فبنا حاجة إلى تكميل نفوسنا بالعلم والعلم
على قسمين علم علمي والغرض منه العلم بالحق لذاته والعلم به
وعلم عملي والغرض منه العلم بالخير للعمل به وكلاهما يكمل
النفس باعتبار قوتها النظرية وبالعمل بالخير تكمل النفس باعتبار
قوتها العملية وأيضا كل علم فإما تصور وإما تصديق لأن

الورقة الأولى

هيئته أو لبلاغته أو لقوة صدقه وإن لم يكن فيه ما المطلوب
فإن الدليل إذا كان قوله ظاهر الصدق أذعن له وخصوصا إذا
روعي الوزن وحسن النظم وخصوصا إذا كان النغم موافقا
ولنذيلا وإذا فرغنا من فنون المنطق فلننه هذا الكتاب
فلنختمه مستعينين بالله وحده تم الكتاب بحمد الله وعونه
والصلاة على محمد خير خلقه وعلى آله والسلام



الورقة الأخيرة

# أهم المراجع

## المطبوعات:


1- إبراهيم بن مراد: بحوث فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب (دار الغرب الإسلامى، بيروت 1991).

2- أحمد عيسى (دكتور): تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (دار الرائد العربى، بيروت).

3- الأصفهانى (أبو الفرج): الأغانى (طبعة بولاق).

4- ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا (دار الحياة، بيروت 1965).

5- بدر (د. عبد الرحيم): مقدمة كتاب: محاضرات مؤتمر الصوفى وابن النفيس، جامعة الأردن (دار الفكر، بيروت 1991م).

6- بدوى (د. عبد الرحمن): مؤلفات ابن خلدون (دار المعارف بمصر 1962م).

7- بل (ألفرد): مادة «ابن خلدون» بدائرة المعارف الإسلامية.

8- البيرونى (أبو الريحان): تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة (عالم الكتب، بيروت).

9- ابن البيطار: الجامع فى الأدوية المفردة (طبعة بولاق 1291 هجرية).

10- تفسير كتاب ديسقوريدس، تحقيق إبراهيم بن مراد (دار الغرب الإسلامى، بيروت 1989م).

11- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية 1938).

12- ابن تيمية: شرح كلمات من فتوح الغيب، ضمن (جامع الرسائل) تحقيق د. محمد رشاد سالم (دار المدنى، جدة).

13- الجاحظ : البيان والتبيين (القاهرة 1367 هجرية).
14- الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تاريخ الجبرتى (مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة).
15- جران (بيتر): الجذور الإسلامية للرأسمالية، ترجمة محروس سليمان (دار الفكر للدراسات والتوزيع والنشر، القاهرة 1992 م).
16- جعفر (د. عبد الوهاب): البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه (دار المعارف 1989 م).
17- الجيلانى (عبد القادر): الفتح الربانى والفيض الرحمانى (مطبعة البابى الحلبى، القاهرة).
18- : فتوح الغيب (مطبعة البابى الحلبى، القاهرة).
19- حاجى خليفة: كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (دار الفكر، بيروت).
20- حسين محمد (دكتور) : أدب الرحلات(سلسلة عالم المعرفة، الكويت).
21- الحلاج: الطواسين، نشرة ماسينيون (باريس 1913م).
22- الخضر حسين (محمد) : الرحلات (المطبعة التعاونية، بيروت).
23- ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - تاريخ ابن خلدون (بولاق 1284 هجرية).
24- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (بولاق 1329 هجرية).
25- الخوانسارى : روضات الجنات فى أخبار العلماء السادات، تحقيق أسد الله إسماعيليان (طهران 1392 شمسية!).
26- الذهبى : سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة-بيروت).
27- الرازى (فخر الدين): محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين (مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة).
28- رمضان (أحمد) : الرحلة والرحالة المسلمون (دار البيان، جدة).

29- أبو ريان (د. محمد علي) : الفكر الفلسفي في الإسلام (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1988 م).
30- الزركان (محمد علي) : عبد الرحمن الصوفي وأسلوبه في التأليف (محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس).
31- الزركلي (خير الدين) : الأعلام (بيروت، بدون تاريخ).
32- سارتون : تاريخ العلم: ترجمة لفيف من الأساتذة (دار المعارف بمصر 1970).
33- السبكي : طبقات الشافعية الكبرى (المطبعة الحسينية، القاهرة).
34- السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (دار الحياة، بيروت).
35- ابن سناء الملك : دور الطراز في عمل الموشحات، تحقيق د. جودت الركابي (دمشق 1949 م).
36- ابن سينا : القانون في الطب (طبعة بولاق).
37- الشامي (د. صلاح الدين) : الرحلة عين الجغرافيا المبصرة (منشأة المعارف - الإسكندرية).
38- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم، نشرة لويس شيخو (بيروت 1912م).
39- الطائي (د. أحمد فاضل) : أعلام العرب في الكيمياء (الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب).
40- طاش كبري زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة. تقديم كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور (القاهرة 1968).
41- الطاهر (علي جواد) : الطغرائي (مكتبة النهضة، بغداد 1963م).
42- الطوسي (نصير الدين): تلخيص المحصل، نشرة طه عبد الرؤوف سعد (مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة).
43- عاشور (د. سعيد عبد الفتاح) : مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك (دار النهضة العربي، بيروت).

44- ابـــــن العبـــــرى : تاريخ مختصر الدول، نشرة الأب أنطون اليسوعى (دار الرائد العربى، بيروت 1983).
45- العســــــقلانـــــى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة(حيدر آباد، الدكن 1350 هجرية).
46- : ذيل الدرر الكامنة، تحقيق د. عدنان درويش (معهد المخطوطات العربية، القاهرة 1992م).
47- العسـيلى (كامـل جميـل) : مخطوطات فضائل بيت المقدس (عمان، الأردن 1988م).
48- عطية (د. أحمد عبد الحليم) : دراسات فى تاريخ العلوم عند العرب (دار الثقافة، القاهرة 1991).
49- على عبد المعطى (دكتـور) : المنطق ومناهج البحث العلمى (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1984).
50- ابـــــن العمـــــاد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (مكتبة القدس، القاهرة 1350 هجرية).
51- عنانى (د. محمد زكريـــا) : ديوان الموشحات الأندلسية (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية).
52- غريب سيد أحمد (دكتـور): تاريخ الفكر الاجتماعى (دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1988 م).
53- غليونجـى (د. بـــــول) : ابن النفيس (الهيئة العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب).
54- : البغدادى (الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب).
55- القـادرى (إبراهيم حلمـى): مدارج الحقيقة فى الرابطة عند أهل الطريقة (الإسكندرية 1381 هجرية).
56- القـــفــــطـــــى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء (دار الآثار، بيروت).

57- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (المطبعة الأميرية بالقاهرة 1332هجرية).
58- ابن كثير : البداية والنهاية (مطبعة السعادة، القاهرة 1358 هجرية).
59- كحالة (عمر): معجم المؤلفين (دار إحياء التراث العربى، بيروت).
60- كونيتش (باول): آثار الصوفى (محاضرات مؤتمر الصوفى وابن النفيس).
61- مال الله (على): أدب الرحلات عند العرب فى المشرق (مطبعة الإرشاد، بغداد).
62- ماهر عبد القادر (دكتور) : المنطق ومناهج البحث (دار النهضة العربية، بيروت 1985).
63- : دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1991م).
64- مايرهوف (ماكس) : من الإسكندرية إلى بغداد. مقالة ترجمها د. عبدالرحمن بدوى فى كتابه: التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية (وكالة المطبوعات، الكويت).
65- المحبى : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر (القاهرة 1282 هجرية).
66- مرحبا (د. عبد الرحمن) : الجامع فى تاريخ العلوم عند العرب (منشورات عويدات، بيروت 1985م).
67- المقدسى (ابن غانم) : تفليس إبليس (دار أنوار القرآن، مكتبة نجمة الحسين، الأزهر 1978 م).
68- منتصر (د. عبد الحليم) : تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه (دار المعارف، القاهرة 1971 م).

69- مؤنـــس (د. حســـين) : ابن بطوطة ورحلاته (دار المعارف- القاهرة).
70- نـجـيــب (ناجـــى) : الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق (دار الحكمة، بغداد).
71- ابـــن النـديـــم : الفهرست. تحقيق: رضا المازندرانى (دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثالثة 1988م).
72- النشـــار (د. علـى سامى) : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام (دار النهضة العربية، بيروت 1984).
73- نللينـو (كارلــو ألفونسـو) : علم الفلك، تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى (الـدار العربية للكتاب، بـيروت 1993).
74- هونكــه (د. زيجـريـــد) : شمس العرب تسطع على الغرب (دار الآفاق الجديدة، بيروت).
75- اليــافـــعـــــــى : مرآة الجنان وعبرة اليقظان فيما يعتبر من حوادث الزمان (حيدر آباد، الدكن).
76- ياقـــــوت الحمـــوى : معجم الأدباء (دار إحياء التراث العربى، بيروت).
77- : معجم البلدان (دار صادر، بيروت).

## المخـطـوطـات:

78 - إبراهيـم حلمـى القادرى : محو الشبهات (مخطوطة مكتبة السادة القادرية النيازية بالإسكندرية).
79 - الأبهـــــــــــرى : عنوان الحق وبرهان الصدق (مخطوطة جامعة إسطنبول، تركيا).
80 - أحمـــد الدمنهـــورى : عين الحياة فى استنباط المياه (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).
81 - أحمـــد الريشــــى : كفاية التعليم فى معرفة وضع التقاويم (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).

82 – البغـــــــــدادى : شرح تقدمة المعرفة (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).

83 – ابـــــن البيطـــــار : قانون الزمان فى تدبير الإنسان (مخطوطة بمكتبة جامعة أوبسالا، السويد).

84 – ابـــــن البيطـــــار : رسالة فى التداوى من السموم (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).

85 – ابـــــن التلميـــــذ : المغنى فى الطب (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).

86 – الحســـن الســـنجارى : هداية الرامى إلى الأغراض والمرامى (مخطوطة أحمد الثالث، تركيا).

87 – الحســـين الطغرائـــى : جامع الأسرار (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).

88 – ابـــــن حوقـــــل : صورة الأرض = المسالك والممالك (مخطوطة مكتبة أحمد الثالث، تركيا).

89 – خالـــد بـــن يزيـــد : ديوان فردوس الحكمة (مخطوطة كوبريلى زاده، تركيا).

90 – ابـــــن خلـــــدون : لباب المحصل (مخطوطة الإسكوريال، إسبانيا).

91 – الزهـــــــراوى : التصريف لمن عجز عن التأليف (مخطوطة خدابخش بتنه، الهند).

92 – الشـــــــيـــزارى : نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك (مخطوطة كوبريلى زاده، تركيا).

93 – الشـــــــيـــزارى : جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام (مخطوطة جامعة ليدن، هولندا).

94 – ابن أبى صادق النيسـابورى : شرح فصول أبقراط (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).

95 – ابـــن الصبـــاغ الجذامـــى : الديوان (مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط، المغرب).

96 - الطرسوسى : تبصرة أرباب الألباب (مخطوطة أحمد الثالث، تركيا).

97 - عبد القادر الجيلانى : جلاء الخاطر فى الباطن والظاهر (مخطوطة جامعة القاهرة، المكتبة المركزية).

98 - عبد الوهاب الحسينى: الروض المغرس فى فضائل بيت المقدس (مخطوطتى: عارف حكمت بالمدينة المنورة، مكتبة الدولة ببرلين).

99 - عز الدين المقدسى: منتخب مصايد الشيطان وذم الهوى (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).

100 - : الشجرة لإظهار الثمرة (مخطوطة مكتبة البلدية بالإسكندرية).

101 - ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار. (مخطوطات: دار الكتب المصرية بالقاهرة، المكتبة الوطنية بباريس، مكتبة البلدية بالإسكندرية).

102 - لاجين الحسامى: تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين (مخطوطة نور عثمانية، تركيا).

103 - مجهول: الروضة الغنّاء فى أصول الغناء (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، المغرب).

104 - مجهول : مختصر غبطة الناظر فى ترجمة الشيخ عبدالقادر (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، المغرب).

105 - مجهول : تفريج الكروب فى تدبير الحروب (مخطوطة الفاتح، تركيا).

106 - محمد بن لاجين الحسامى : بغية القاصدين فى العمل بالميادين (مخطوطة مكتبة الفاتح، تركيا).

107 - : بنود الرمح (مخطوطة المكتبة الأحمدية، سوريا).

108 - محمـــد بـن منكلـي : الأدلة الرسمية فى التعابىء الحربية (مخطوطة أياصوفيا، تركيا).
109 - محمـــد بـن منكلـي : الحيل فى الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب (مخطوطة أحمد الثالث، تركيا).
110 - مديـن القوصـونـى : قاموس الأطباء وناموس الألباء (مخطوطتى: دار الكتب المصرية بالقاهرة، المكتبة الظاهرية بدمشق).
111 - ابـن المطـــران : بستان الأطباء وروضة الألباء (مخطوطة مكتبة مجلس الشورى، طهران).
112 - بنـو موسى بن شـاكر : الدرجات المعروفة (مخطوطة نور عثمانية، تركيا).
113 - ابـن ميمـــون : الإفادة والتبصير (مخطوطة كوبريلى زاده، تركيا).
114 - نصـير الديـن الطوسى: تحرير المجسطى (مخطوطة أحمد الثالث- تركيا).
115 - النواجـــــى : عقود اللآل فى الموشحات والأزجال (مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة).

# الموضوعات

# أعمال د. يوسف زيدان

1 - المقدمة فى التصوف، لأبى عبدالرحمن السلمى (تقديم وتحقيق).

2 - عبدالكريم الجيلى فيلسوف الصوفية (تأليف).

3 - الفكر الصوفى (تأليف).

4 - شرح فصول أبقراط لابن النفيس (دراسة وتحقيق).

5 - شعراء الصوفية المجهولون (تأليف).

6 - ديوان عبدالقادر الجيلانى (دراسة وتحقيق).

7 - ديوان عفيف الدين التلمسانى (دراسة وتحقيق).

8 - قصيدة النادرات العينية للجيلى، مع شرح النابلسى (دراسة وتحقيق).

9 - الطريق الصوفى وفروع القادرية بمصر (تأليف).

10 - عبدالقادر الجيلانى، باز الله الأشهب (تأليف).

11 - رسالة الأعضاء، لابن النفيس (دراسة وتحقيق).

12 - المختصر فى علم الحديث النبوى، لابن النفيس (دراسة وتحقيق).

13 - المختار من الأغذية، لابن النفيس (دراسة وتحقيق).

14 - شرح مشكلات الفتوحات المكية، لعبدالكريم الجيلى (دراسة وتحقيق).

15 - فوائح الجمال وفواتح الجلال، لنجم الدين كُبْرى (دراسة وتحقيق).

16 - التراث المجهول، إطلالة على عالم المخطوطات (تأليف).

17 - فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية (الجزء الأول).

18 - فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية (الجزء الثانى).

19 - نوادر المخطوطات بمكتبة بلدية الإسكندرية (تأليف).

20 - فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوى (الجزء الأول).

21 – فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوى (الجزء الثانى).

22 – فهرس مخطوطات رفاعة الطهطاوى (الجزء الثالث).

23 – فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (الجزء الأول: المخطوطات العلمية).

24 – بدائع المخطوطات القرآنية بالإسكندرية (تأليف).

25 – المتواليات (نصوص نقدية).

26 – فهرس مخطوطات أبى العباس المرسى (الجزء الأول: التصوف، التفسير، السيرة، الحديث).

27 – حى بن يقظان، النصوص الأربعة ومبدعوها (تأليف).

28 – المتواليات (دراسات فى التصوف) (تأليف).

29 – المتواليات (فصول فى المتصل التراثى المعاصر) (تأليف).

30 – فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (الجزء الثانى: التصوف وملحقاته).

31 – فهرس مخطوطات رشيد ودمنهور.

32 – فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (الجزء الثالث: التاريخ والجغرافيا).

33 – إعادة اكتشاف ابن النفيس (تأليف).

34 – فهرس مخطوطات شبين الكوم.

35 – فهرس مخطوطات المعهد الدينى بسموحة.

36 – فهرس مخطوطات أبى العباس المرسى (الجزء الثانى: أصول الفقه وفروعه).

37 – فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (الجزء الرابع: المنطق).

38 – فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية (الجزء الخامس: الحديث الشريف).

39 – فهرس مخطوطات دار الكتب بطنطا.

40 – فهرس مخطوطات دير الإسكوريال (إسبانيا).

41 – ماهية الأثر الذى فى وجه القمر، لابن الهيثم (دراسة وتحقيق).

42 – مقالة فى النقرس، للرازى (دراسة وتحقيق).

43 - مختارات من نوادر مقتنيات مكتبة الإسكندرية (تأليف).

44 - التصوف (تأليف).

45 - المخطوطات الألفية (تأليف).

46 - الشامل فى الصناعة الطبية، لابن النفيس (ثلاثون جزءًا) (دراسة وتحقيق).

47 - كنوز المخطوطات فى مدن العالم (طشقند).

48 - كنوز المخطوطات في مدن العالم (الإسكندرية).

49 - مخطوطات الطب والصيدلة بالإسكندرية.

50 - ظل الأفعى (رواية).

51 - أعمال مؤتمر المخطوطات الألفية.

52 - أعمال مؤتمر المخطوطات الموقّعة.

53 - عزازيل (رواية).

54 - كلمات (التقاط الألماس من كلام الناس).

# أحـــدث إصـــدارات

الدكتور

**يوســـف زيـــدان**

1- كلمات (التقاط الألماس من كلام الناس).

2- المخطوطات الألفية.

3- إعادة اكتشاف ابن النفيس.

4- التراث المجهول (إطلالة على المخطوطات).

5- المختصر في علم أصول الحديث.

6- رسالة الأعضاء.

7- المختار من الأغذية.

8- شرح فصول أبقراط.




[redacted]